

المكتبة الأدبية

# عقيدة الشرف الرضى

تأليف  
الدكتور زكى مبارك

الجزء الثانى

الناشر  
مكتبة الثقافة الدينية

## الأصدقاء والأعداء في حياة الشريّف الرضي

أيها السادة ..

رأيتم فيما سلف أن الشريّف الرضي كان يهجم على أقربائه في بعض الأحيان، وعرفتم تفسير هذه الظاهرة النفسية؛ فقد كان الشريّف رجلاً موصول الأواصر بالحياة الاجتماعية والسياسية، كان رجل فعل Homme d'action وكانت هذه الصفة تمنحه الفرص الثمينة لامتحان الرجال.

ولكن هل معنى ذلك أنه لم يكن يعرف المودة والقرابة إلا لغايات نفعيّة؟

لا؛ ولكن معناه أنه كان ينتظر من الصديق والقريب أن يكون ساعده الأيمن في جميع الأحوال، وقد كانت المكاره لا تغزوه إلا من الثغور السياسية والاجتماعية، فكان من المعقول أن تكون المناصرة في حروب المجتمع هي أساس ما يرجوه من الأقارب والأصدقاء.

ويمكن الحكم بأن الشريّف تفرّد من بين الشعراء بالإسراف في الكلام عن العدو والصديق، كما تفرّد بالإكثار من شرح العواطف البنوية، وهذه نوازع يرجع بعضها إلى بعض، وإن اختلفت أصولها في مشاعر الوجدان.

وإلحاق الشريّف في الكلام عن العداوة والصداقة يشعرننا بأنه كان في نفسه أعنف عدو، وأكرم صديق.

وأشعاره تحدثنا بأنه كان يعرف في نفسه طهارة القلب، وعذوبة الروح، وإنه ليخاطب أحد أصدقائه فيقول:

سألفاك بالعهد عن المشيب      وهأنذا في حليّة الأمر  
وإني إذا لم أجسد ناصراً      وجدتك أنصري من يدي

سب يأخذ من يومه للغد  
 ن قول النوادب لا تبعد<sup>(١)</sup>  
 بروح بنجسواي أو يغتدي  
 ن أنسس النواظر بالإثم<sup>(٢)</sup>  
 كالشمس في نساظر الأرمم  
 ولا فك منسا يدا عن يد  
 م في ظل عيش رقيق ندي

خذ الوقت واعلم بأن اللبيد  
 فما ينفع المرء بعد المنو  
 على أنني تحفة للصدق  
 وإني ليأنس بي الزائرو  
 تغمض لي أعين الحاسدين  
 فلا دخل البعد ما بيننا  
 وطول أيامنا بالمقسا

وهذه القطعة صريحة بأنه كان يعرف في نفسه بشاشة القلب، وبهجة الروح.

وهذا الشعور هو الذي كان يدفعه إلى التألم لغربة قلبه بين القلوب كأن يقول:

ومالي من بين الأنسام صديق  
 وهذا قريب غادر وشقيق؟!

كفى حزناً أني صديق وصادق  
 فكيف أريغ الأبعدين لخلعة

وكان يتلهف إلى الصديق المنشود:

لا يستطيل عليه عاب؟<sup>(٣)</sup>  
 كان لي وله الغلاب  
 ل به بعداد واقتراب  
 ت بنعمة كثر الصحاب  
 صفرت من القوم الوطاب<sup>(٤)</sup>

من لي بغرة صاحب  
 ما حارب الأيام إلا  
 هيهات أطلب ما يطو  
 قلّ الصحاب فإن ظفر  
 مسن لي به مسمحا إذا

- (١) من البعد وهو هنا الهلاك.
- (٢) الإثم: بكسر الهمزة هو الكحل.
- (٣) العاب: لغة في العيب.
- (٤) صفرت: خلعت، الوطاب: الأوعية.

من لي به يادهر والأيام كالحلة غضاب<sup>(١)</sup>

وهذه من نفثات القلوب الظماء إلى موارد الود الرفيق.

وكان الشريف الرضي يطرب لاجتماع إخوانه عنده، ويرى أنسه بلقائهم من فرص العيش، وكان يرى إدارة الأحاديث الشبيهة بإدارة الكئوس كأن يقول وقد اجتمع في بيته خمسة من الأصفياء:

|                                |   |
|--------------------------------|---|
| نظمنا نظم العقد ودًا وألفة     | وكان لنا البتّي سلك نظام                |
| أخي وابن عمي وابن حمد فإنه     | تباريح قلبي خاليًا وغرامي               |
| وسادسنا الأزدي ما شئت من أب    | جواد ومن جد أغرهمام                     |
| أحاديث تستدعي الوقور إلى الصبا | وتكسو حلِيم القوم ثوب عرام              |
| فنضحى لها طربى بغير ترنم       | ونمسي لها سكرى بغير مدام <sup>(٢)</sup> |
| تعالوا نول اللاتمين تصامما     | ونعص على الأيام كبل ملام                |
| ونغتئم الأوقات إن بقاءها       | كمر غمام أو كحلّم منام                  |
| من الله أستبقي صفاء يضمننا     | وطاعة أيام ودار مقام                    |
| وأستصرف الأعداء عنّا فإننا     | مذ اليوم أغراض لكل مرام                 |

وكان الشريف يعرف جيدًا كيف يحفظ عهد الصديق وكان له أصدقاء يواسونه أيام البؤس وفي أحدهم يقول:

|                         |                          |
|-------------------------|--------------------------|
| يا ذاكر النعماء إن نسيت | ومجدد المعسوف إن درسا    |
| ومنبه الآمال إن رقدت    | بالطول لا أغفى ولا نعسا  |
| نصل إذا وقف النصول مضي  | جبل إذا اضطرب الجبال رسا |

(١) كالحلة: عابسة.

(٢) طربى: جمع طربان، وهو كالطروب.

لله بحر ما هتفت به  
 أجمعت جتمه ففاض بها  
 زخرت غواربسه إلي ولم  
 وأغر مخنثلس مكارمه  
 غرس الصنائع ثم عابده  
 حتى استهل عليّ وانبجسا<sup>(١)</sup>  
 يطأ الريا ويلل اليسا<sup>(٢)</sup>  
 يقل الرجاء لعلها وعسى<sup>(٣)</sup>  
 إن الكريم يرى الندى خلا  
 عود الندى فسقى الذي غرسا

وله عبارات جيدة في تصوير الوداد، كأن يقول:

لقد حل ودك من مهجتي بحيث يقيل الأسى والأسا<sup>(٤)</sup>

وكان يقول:

فلقد حللت من الفؤاد محلة  
 فلئن وفيت فما الوفاء ببدعة  
 ولئن غدرت ولا عجيب إنه  
 نفسي فداء الغادرين تباعدوا  
 في حيث ليس من الوري لك جار  
 إن الوفاء لذي الصفاء شعار  
 بعض الزمان ببعضه غدار  
 أو قاربوا أو أنصفوا أو جاروا

وقد أهدى إليه أحد أصدقائه رداءً فلم يقبله، فعتب عليه ذلك الصديق، فكتب إليه الشريف:

عقيد العلالا لزلت تستبعد العلالا وتعتق منها رق كل أسير<sup>(٥)</sup>

(١) انبجس الماء: سال وتدفق.

(٢) الجمّة: بضم الجيم معظم الماء، والريا جمع ريوه وهي المكان المرتفع.

(٣) غوارب الماء: أعالي موجه.

(٤) الأسى: بفتح الهمزة الحزن، والأسا: جمع أسوة بضم الهمزة وهي العزاء، ويقيل: يتزل ويحل.

(٥) العقيد والمعاهد: هو المعاهد، أي الذي يعهد الشيء ويلزمه، فيقال: عقيد الكرم وعقيد العلالا: أي الذي يلزم هذه الخلال.

لئن خف من ضافي ردائك عاتقي  
 فتودك يخطو في رداء قتييري<sup>(١)</sup>  
 ستعلم أن الشوب يدثر رسمه  
 ورسم الهوى في القلب غير دثور<sup>(٢)</sup>  
 فلا تश्متن الحاسدين فسرهم  
 يشفي لظني من وراء أمور

وقد يشتاق الشريف إلى إخوانه عند البعد ويحن إليهم أرق الحنين، ويظهر أن بغداد على خشونتها في ذلك العهد لم تبخل عليه كل البخل، فكان له فيها إخوان أوفياء، وإلا فكيف صحَّ له أن يقول:

أخلائني بيغداد  
 وحالتي دون لقيتكم  
 لقد كنت شديد الظن  
 وأن ينصدع الشعب  
 ولكنني رعبت الأرب  
 وعجلت النسوي لمسا  
 نداماي على الهمم  
 وحياتكم برياه  
 تننذرتكم والدم  
 فلما أخلفكم جار

جنى دونكم الرمل  
 زحساليق النقا الزل<sup>(٣)</sup>  
 أن ينقطع الحبل  
 وب الذي لسوئم والشمل<sup>(٤)</sup>  
 ض مطاب لي البقل  
 فشا اللأواء والأزل<sup>(٥)</sup>  
 سقى عهدكم الويل  
 جديد النور مخضل<sup>(٦)</sup>  
 مع لا ويل ولا طبل  
 مسن المواقين منه ل

(١) الضافي: الطويل، والقتير: الشيب.

(٢) يدثر: يبلى.

(٣) في بعض نسخ الديوان (القنا) وفي بعضها (اللقا) وقد آثرنا كلمة (النقا) والزل: بالضم المكان الذي يزل فيه، يريد وعورة الطريق.

(٤) الشعب: بالفتح معناه هنا الجمع.

(٥) اللأواء: الشدة، والأزل: الضيق.

(٦) النور: بفتح النون هو النوار بضمها وهو الزهر أو الأبيض منه، والمخضل المندي.

وفي الأيام ما يسلي ولكن أين من يسلو<sup>(١)</sup>

أيها السادة ..

ذلكم إحساس الشريف بقيمة الصداقة والأخوة؛ ولكن هل هذا كل ما يملك ذلك القلب الطروب؟ هيهات، ففي قلب الشريف بقايا من الشوق العاصف، الشوق إلى الأصدقاء الأصفياء، هو شوق لا نعرفه في هذه الأيام؛ لأننا نعيش في زمنٍ عابسٍ متجهم لا نكاد نرى فيه الناس حتى نتخير الأصدقاء في قلب الشريف بقايا من الحنان لا يعرفها غير ذلك القلب، وأمثال ذلك القلب، إن كان له أمثال.

هل سمعتم بأخبار أبي الحسن البتي؟ إنه كاتب من كبار الكتاب الذين أنجبهم العراق في القرن الرابع، وقد نزلت مودته إلى الأعماق من قلب الشريف الرضي، وحسبكم أن تعرفوا أن آخر شعر نظمته الشريف الرضي هو أبياته في زناء ذلك الصديق، وأكاد أجزم بأن موت أبي الحسن البتي هو السبب في موت الشريف الرضي؛ يشهد بذلك قوله في ذلك الرثاء:

|                   |                                    |
|-------------------|------------------------------------|
| ما للهموم كأنها   | نار على قلبي تشب                   |
| والدمع لا يرقى له | غرب كأن العين غرب <sup>(٢)</sup>   |
| لوداع إخوان الثبا | ب مضت مطاياهم تحب                  |
| فارتهم والعين ع   | ين بعدهم والقلب قلب <sup>(٣)</sup> |
| ما كنت أحسب أنني  | جلد على الأرزاء صعب                |

(١) في الديوان (ما يسلو) وهو تحريف.

(٢) الغرب: عرق في العين يسيل منه الدمع، والغرب أيضًا الدلو العظيمة، وفي البيت جناس.

(٣) العين: هي الباصرة، وهي أيضًا ينبوع، والقلب: الفؤاد وهو أيضًا اسم ماء، وبمراعاة الجناس يفهم البيت.



وما لي غير قربك من طبيب  
 كما غار المحب على الحبيب  
 بحسن للزمان ولا بطيب  
 وأطرب إن رأيتك من قريب  
 عليّ وطلعة الفرج القريب  
 نزا قلبى إليك من الوجيب<sup>(١)</sup>  
 يبارقة تصوب على قلب<sup>(٢)</sup>  
 وأصفح للزمان عن الذنوب  
 عليّ من الفوادح والندوب<sup>(٣)</sup>  
 أميل إلى المقارب والنسيب<sup>(٤)</sup>  
 على بعد القبائل والشعوب  
 من الأنفاس والنظر المريب  
 يحن من الغرام على مشيب؟  
 مكان الروح من عقد الكروب  
 ترامقنا بالحفاظ القلوب<sup>(٥)</sup>

ولي شوق إليك أعلّ قلبي  
 أغار عليك من خلوات غيري  
 وما أحظى إذا ما غبت عني  
 أشفق إذا ذكرتك من بعيد  
 كأنك قدمة الأمل المرجى  
 إذا بشرت عنك بقرب دار  
 مراح الركب بشر بعد خمس  
 أسالم حين أبصرك الليلي  
 وأنسى كل ما جنت الرزايا  
 تميل به الشكول إليك حتى  
 وتقرب في قبيل الفضل مني  
 أكاد أرب فيك إذا التقينا  
 وأين وجدت من قبلي شباباً  
 إذا قرب المزار فأنت مني  
 وإن بعد اللقاء على اشتياقي

(١) نزا القلب: وثب، والوجيب: الخفوق.

(٢) المراح: بكسر الميم هو النشاط والتبخر، والقليب: البثر، والمعنى أنه يفرح حين يبشر بقرب صديقه كما يفرح الركب الضامى حين يبشر بقرب الماء بعد أن يطول ظمؤه خمسة أيام، وهو خيال بدوي.

(٣) الندوب: جمع ندب بفتح النون وهو الجرح.

(٤) في الديوان (أشكوك) وهو تحريف، والشكول: الأمثال، قال المتنبي: ليالي بعد الظاعنين شكول. وقد وردت صواباً في الدالية التي رثى بها الصابغ (فقدت ملامة الشكول بفقده).

(٥) في مثل هذه المعاني يقول التوحيدي:

إذ تلاحظنا تساقينا كأس المسودة وإذا تصادمنا تتاجينا بلسان الثقة

وهذا القلب الألوّف كان يحمل الشريف الرضي على انتهاء أيام التلاقي خوفاً من عدوان الزمان، وإنا لنراه يتعجل لقاء بعض إخوانه فيقول:

|                      |                                   |
|----------------------|-----------------------------------|
| أأخيّ ما اتسع الزمسا | ن على جماعتنا وضاقا               |
| إلا ليعقبنا اجتمنا   | عنا بالنوائب وافتراقا             |
| سابق فليس نال أغد    | سراض المنى إلا سباقا              |
| من قبل أن تترد الخطو | ب على مودتنا طراقا <sup>(١)</sup> |
| فأزبد بعددًا من لقا  | ثك كلما ازددت اشتياقا             |
| وأرك تمنحني الصدو    | د وبعده لم أنسو انطلاقا           |
| إن كان ذا خوف الفرا  | ق فقسد تعجلت الفراقا              |

وهذا القلب الألوّف هو الذي كان يقفه موقف الصابر المتخشع وهو يعاني تقلبات القلوب، وإلا فكيف جاز مثله على إباطه أن يقول:

|                            |  |
|----------------------------|--|
| عزيري ممن ذم عهدي وقد نبا  | مرارًا وقلبي وادع لا يذمه                  |
| تجرّم لما لم يجدي زلة      | وأقصدني باللوم والجرم جرّمه <sup>(٢)</sup> |
| تعمدت بعدي عنه من غير سلوة | ليعلمني يوم النوى كيف طعمه                 |
| وأجمته لا عن غناء وإنما    | لأشربه في حرّ خطب أجمه <sup>(٣)</sup>      |
| وإني وإن على القلب حربيه   | لمتنصر أن يعقب الحرب سلمه                  |
| ولا تأسن من عفو حرّ فإنما  | تحلمه بواق إذا ضاع حلمه                    |
| أطمع أن أنساك يومًا وإنما  | هواك ضجيج القلب مني وحلمه                  |
| يقر بعيني منظر أنت قيده    | ويعتق قلبي مطلب أنت غنمه                   |

انظر ص ١٤٢ من الجزء الثاني من كتاب (الثر الفني).

(١) الطراق: بالكسر التتابع.

(٢) تجرم: تجبى.

(٣) أجمته: تركته يجم ويغزر، أصل العبارة في الماء ثم نقلت إلى الود والمعروف.

وللشريف أشعار كثيرة في الصفح عن ذنوب الأصدقاء؛ ولكن الدهر كان  
يبتليه أحياناً بإخوان لا تغفر لهم ذنوب، إخوان يميلون عليه مع الزمان  
فيسقونه كأس العلقم والصاب فنراه يتوجع بمثل هذا الشعر الحزين:

|                          |  |
|--------------------------|--|
| أُمسى عليَّ مع الزمان أخ | قد كنت أمل يومه لغد                      |
| من كان أحنى عند نائبة    | من والديّ وأبر من ولدي؟                  |
| لم يثمر الظن الجميل به   | فقدي من الظن الجميل القدي <sup>(١)</sup> |
| لو كان ما بيني وبينكم    | بيني وبين الذئب والأسد                   |
| لأويت من هذا إلى حرم     | ولجأت من هذا على عضد                     |
| ولأصبحت في الروع من عددي | كرما وفي اللاواء من عددي                 |
| ولمانعاً عني إذا جعلت    | نوب الزمان تهيض من جلدي <sup>(٢)</sup>   |
| أو كان ما قدمت من مقمة   | سبباً إلى البغضاء لم يزد <sup>(٣)</sup>  |
| بل لو قذفت بمدحتي لكم    | في البحر ذي الأمواج والزبد               |
| لرمى إليّ أشرف جوهرة     | وسقى بأعذب مائه بلدي                     |
| فلأجعلنَّ عقوبتي أبداً   | أن لا أمد يدي إلى أحد                    |
| فتكون أول زلة سبقت مني   | وآخرها إلى الأبد                         |

وهذه الزارة تنقلنا إلى أشعاره في الثورة على الغادرين، فنراه أحياناً يقف  
موقف اليائس من صحة الود فيقول:

تجاذبني يد الأيام نفسي  
ويوشك أن يكون لها الغلاب  
وتغدر بي الأقارب والأداني  
فلا عجب إذا غدر الصحاب

أو يقول:

- (١) قدي: حسبي، وكفي.
- (٢) تهيض: تكسر وتجرح.
- (٣) المقمة: بكسر الميم الحب وهي من ومق.

لأي حبيب يحسن الرأي والود  
وأكثر هذا الناس ليس له عهد؟  
أكل قريب لي بعيد بوده  
وكل صديق بين أضلعه حقد؟

أو يقول:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها  
لعظيم ما ألقى من الخلان  
وإذا أمنت من الزمان فلا تكن  
إلا على حذر من الإخوان  
كم من أخ تدعوه عند ملمة  
فيكون أعظم من يد الحدتان!!

وكان للشريف أصدقاء تعوزهم شجاعة الرجال، فيسمحون لزوارهم باغتيابه، وكانت الأخوة توجب أن يدفعوا عنه أضرار الاغتياب، وقد وجه الكلام إلى أحد هؤلاء فقال:

ما رفع الواشون في ولفقوا  
قل لي فأما حاسد أو مشفق<sup>(١)</sup>  
في كل يوم ظهر داري مغرب  
لكلامهم وجبين دارك مشرق  
وإلى متى عودي على أيديهم  
ملقى ينسب دائماً ويحرق<sup>(٢)</sup>  
كم يسبك الذهب المصفى مرة  
قد لاح جوهره وبيان الرونق  
يحلوهم عرضي فيسترطونه  
ويصل عرضهم الذليل فيصق<sup>(٣)</sup>  
نفضوا عيويهم عليّ وإنما  
جدوا مصحافي الأديم فمزقوا<sup>(٤)</sup>  
من لي بمن إن بان عيب خليله  
غطاه من شاتيه أو من يصدق؟  
وإذا الخليم رمى بسر صديقه  
عمداً فأولى بالوداد الأحق  
جار الزمان فلا جواد يرتجى  
للائبات ولا صديق يشفق

(١) الإشفاق: هنا هو الحنين.

(٢) ينسب: يعرض بالأنياب.

(٣) يسترطونه: يبتلعونه، وسرطه كذلك، ويصل: يتنن، يقال: صل وأصل؛ والمعنى أن لحمي طاب؛ فأكلوه، وأنتنت لحومهم فبضقها الناس.

(٤) الأديم الجلد: ولا يمزق إلا الجلد الصحيح.

وطغى علي فكل رحب ضيق إن جُلت فيه وكل جبل يخنق<sup>(١)</sup>

والشريف الذي يجيد حوك العتاب كان في بعض أحواله يكره العتاب.

أعني: إنه ينكر على إخوانه أن يعاتبوه، وهذا وجه آخر من صور النفس، كأن الشريف كان يرى نفسه فوق العتاب، أو كأنه كان يرى أن مثله لا يحتاج في رعاية الود إلى عتاب؛ ولكن الحالة التي سنشير إليها ويختلط فيها العتب بالوعيد، وهي تشرح أصول العداوات التي عانها الشريف، والظاهر أنه كان كأكثر الناس يبغض من حيث كان يحب، فأكثر أعدائه هم في الأصل أصدقاء قدماء، ولا يتلى الرجل بمحنة أشق من معادة إنسان كان يراه قبلاً بعين الصديق.

وشواهد هذه الحالة النفسية كثيرة في شعر الشريف؛ ولكننا نكتفي بالقطعة

الآتية:

|   |                             |
|---|-----------------------------|
| تصامم بك عن ذا القول أم صمم                     | فلمست أول من راقته له حلال  |
| وانظر بعينك من زَمَّوا ومن خطموا <sup>(٢)</sup> | من أضمم الصد عن ليس يضمه    |
| ولست أول من راحت له نعم                         | من أنهضته لقطع الود غدرته   |
| بغياً مشى في نواحي سره الندم                    | من ساء ظناً بما يهواه فارقه |
| كان المذمم منه الكف والقدم                      | متسى نجهم غدرًا سر عهدكم    |
| وحرصته على إبعاده السهم                         |                             |
| فإن عهدي على غدر بكم حرم                        |                             |

(١) في الديوان (قلت فيه) والأصوب ما أثبتناه.

(٢) زم الأنف وخطمه ضرب عليه الزمام والخطام، يصف مضر بقوة البأس.

أيها السادة ..

لقد ساقنا الكلام إلى ضجر الشريف الرضي من الناس، فلتتذكر أن هذا الرجل عانى في دهره أشق العداوات، وابتلته الحوادث بضروب من لؤم الخلائق؛ ولكنه تماسك وقارع خصومه قراع الفحول، وكان مع ذلك يعود إلى نفسه فيدرسها من حين إلى حين فيرى نفسه أعدى الأعداء، فهو بذلك من أحكم الناس إذ يقول:

أروم انتصافي من رجال أباعد      ونفسي أعدى لي من الناس أجمعا  
إذالم تكن نفس الفتى من صديقه      فلا يحدثن في خلة الدهر مطمعا<sup>(١)</sup>

ولو أنه ألح في ترديد هذا المعنى لكان له مكان بين أساتذة الأخلاق؛ ولكن يكفي أنه تنبه إلى هذا المعنى، فهو كان يدرك بوحى الفطرة أننا نؤذي أنفسنا قبل أن يؤذينا الناس، وأن الشر لا يسقط علينا سقوط المطر من السماء، وإنما نستدعي الشر عامدين بما نسرف في مكايده الأنداد والنظراء، هو كان يفهم أنه يتطلع إلى انتهاب ما في أيدي الناس من المناصب العالية، كان يفهم أنه يحاول أمورًا لو طاعت له؛ لتبدلت في الجو السياسي والاجتماعي رسوم وشئون، كان يفهم أن أعلام الناس في عصره ليسوا أغبياء إلى الحد الذي يسمح بأن يجهلوا ما ينطوي عليه مثل صدره من غرض مبيت وسر مكنون.

والثورة على العيش الضيق وعلى حياة الخمول هي بداية الحرب بيننا وبين المجتمع، فمن شاء أن يعيش في سلام مطلق؛ فليكتف بأكل العشب في البيداء ثم ليحترس أيضًا؛ ففي البيداء خلائق تغار على ما فيها من مساقط الغيث ومنابت الأعشاب.

وكذلك نرى الشريف يتنبه إلى أسباب العداوة بينه وبين الناس ونراه

(١) الحُلة: بضم الحاء الصداقة المتينة:

يداري الأعداء خوفاً من عواقب اللجاجة في تهيج الضغائن والحقود، وهو الذي يقول:

|                                |   |
|--------------------------------|---|
| تجاف عن الأعداء بقيا فربما     | كفيت ولم تعقر بناب ولا ظفر <sup>(١)</sup>     |
| ولا تبر منهم كل عود تخافه      | فإن الأعادي يبتنون مع السهر                   |
| إذا شئت أن تبقى خلياً من العدا | فعض عيش خال من علاء ومن وفر                   |
| إذا أنت أفنيت العرائن والذرى   | رمتك لليالي عن يد الخامل الغمر <sup>(٢)</sup> |
| وهبك أنقيت السهم من حيث ينقى   | فمن ليد ترميك من حيث لا تدري؟                 |

فهو بهذه الأبيات يقرر أن سبب العداوة هو بسطة الجاه والمال ويشير بمداراة الأعداء؛ لأن العداوة كالنار قد تخدم بعض الخمود إن سكنت عنها الريح أو تناستها أفواه النافخين، ويذكر أن الذي ينتصر على الأقوياء من الأعداء قد ترميه الليالي بأيد الضعفاء.

ولو كنا نعرف مصادر المخاوف في كل وقت؛ لدفعناها ولكن المخاوف تخفى مصادرها في كثير من الأحيان، فمن الحزم أن لا نعرض أنفسنا للعداوات وهي أسباب المعاطب والحتوف.

وفي هذه القطعة إشارة إلى معانٍ كثيرة. وليت الشريف احتفل بهذه المعاني كما يتفق له ذلك في كثير من الأغراض؛ ولكن هذه الإشارة تفهمنا أنه كان يخاف الضعفاء أكثر مما يخاف الأقوياء؛ لأن الأقوياء شرهم هين، إذ كانوا يجارون بأسلحة الرجال، أما الضعفاء فشرهم أخطر وأفظع إذ كانوا يدبون بالوشايات والنهائم كما تدب العقارب في حلك الظلام، والعدو الضعيف مخلوق خطر؛ لأن الضعف علمه الدهاء، وبصره بأساليب الختل والخداع،

(١) البقيا: بمعنى الاستبقاء، وهو هنا صيانة النفس.

(٢) العرائن: جمع عرنين بالكسر وهو الأنف أو ما هو ضلب من عظمه، والعرائن هنا الأشراف، والذرى: جمع ذروة وهي أعلا الشيء والغمر من لم يجرب الأمور.

وكان من السهل أن يعتمد الأعداء الضعفاء إلى تهوين قدر الشريف في أنفُس أهل العراق. ومثل الشريف كان يعتمد في حياته السياسية على قوتين: القوة الذاتية وحسن السمعة بين الناس.

وأعيذكُم أن تظنوا أني أتكلف هذا الافتراض، ففي ديوان الشريف شواهد نعرف بها أنه كان مبتلى بأقوام يقرضون عرضه في الخفاء، وإلا فكيف نفسر سكوته عن وصف الخمر مع أن وصفها كان من المذاهب التي سنّها شعراء العراق، وكان الشاعر العراقي يصف الخمر وإن لم تمسّها شفتاه؟ والشريف وصف الخمر فعلاً؛ ولكن ينص في صلب الديوان على أنه سئل وصفها فأجاب.

ولا تنسوا أن الشريف غلبت عليه الصفة الأدبية - بالرغم من منزلته العلمية التي قضت بأن يكون له مدرسة فيها طلاب يتلقون دروسه في الصباح والمساء - والصفة الأدبية حين تغلب على رجل؛ تعرّض سمعته لسيئات الظنون، فقد كان شاع في البيئات العراقية أن الأدباء والشعراء قوم لا يهمهم غير الهيام بأودية الشياطين.

ولم يكن يَسُرُّ الشريف الرضي أن يقال: إنه يتخلق بأخلاق الشعراء؛ لأنه كان يرشح نفسه لمناصب دينية لا يصلح لها إلا المعروفون بطهارة السر والعلانية والمشهورون بالتقى والعفاف، وحسبكم أن تذكروا أنه كان يرشح نفسه لنقابة الأشراف وإمارة الحج وتولي القضاء، وهي مناصب شائكة توجب على من يسمو إليها أن يتخوف عواقب الأقاويل والأراجيف.

قد تسألون: وهل كان الشريف يكتُم هذه المعاني؟

ونجيب بأنه كان يصرح بها في بعض الأحيان، كأن يقول:

حبست عن العوراء فضل لسانيا<sup>(١)</sup>  
وإن كان يوماً رائحاً كنت غاديا<sup>(٢)</sup>

وإني إذا أبدى العدو سفاهة  
وكنت إذا التأت الصديق قطعته

وكان يقول:

مقام البدر تنبجه الكلاب  
وقد علموا بأني لأعاب  
وإني لا يرو عنني السباب  
كسوني من عيوبهم وعابوا

وإن مقام مثلي في الأعادي  
رموني بالعيوب ملفقات  
وأني لا تدنسي المخازي  
ولما لم يلاقوا في عييا

وكان يقول:

أمسكت عنه بلاعبي ولا حصر  
كذلك تحمى لحوم الذرد بالدبر<sup>(٣)</sup>

وجاهل نال من عرضي بلا سبب  
حمته عني المخازي أن أعاقبه

وكان الشريف قد امتحن بجماعة من أقربائه يناصبونه العدا، ونحن نعرف أسباب تلك العداوة، فقد كانت هناك مناصب موقوفة على الأشراف، وكانت الحرب على تلك المناصب التي لا تنفك مسعرة الضريم، والهجوم على الأخوة وبنى الأعمام باب معروف في الشعر العربي، ولا يكاد يخلو منه ديوان فالشريف الرضي لا يبتدع هذا الفن؛ ولكنه مع ذلك لا يفتعل هذا الفن، ولا يقف فيه موقف المحاكين لعواطف القدماء، وإنما يعبر عن عواطف ذاتية أنبتها في صدره عنف الأهل ولؤم الزمان ولو لا ذلك ما صح له أن يقول:

بحد السيف قريبي الأقباء<sup>(٤)</sup>  
يميل على الأخوة للإخاء

إذا أشر القريب عليك فاقطع  
وكن إن عنك القرباء ممن

(١) العوراء: الكلمة الفاحشة.

(٢) التأت الصديق: تغير وده.

(٣) الذود: جماعة الإبل، والدبر: بالتحريك قرحة تصيب الدواب.

(٤) أشر: هنا معناها حقد.

فـرـب أخ خـليـق بالتقـالي

وأن يقول:

وقل لبني عمنا الواجدين  
أما أن للراقسد المستمر  
سرحتم سفاهتكم في العقوق  
ولما أنتم إران الجموح  
أقمنّا أنبايكم بالثقاف  
وباربا عاد سوء العقاب

وأن يقول:

ومولى يعاطبني الكئوس تجملاً  
خبأت له ما بين جنبي فتكة

وأن يقول

غمست يدي في أرم فمري؟  
كفاني أنني حرب لقومي  
حطمت صعادهم حتى استقاموا

ومغـتـرب جـسـدير بالـصفاء

بني عمنا بعض هذا الغضب<sup>(١)</sup>  
في ظلم الغبي أن يستهب  
ولم تحلفوا الخلم لما غرب<sup>(٢)</sup>  
وماج بكم حبلكم واضطرب<sup>(٣)</sup>  
وداوى الهناء مطال الجرب<sup>(٤)</sup>  
على المسذنين بحسن الأدب

وقد ودّ لو أن العقار نجيع<sup>(٥)</sup>  
دهته ويوم الغادرين شنيع

وأين؟ بنزع كفي وانكفافي  
وذلك لي من الضراء كاف  
مجازرة بهم جنّد الثقاف<sup>(٦)</sup>

(١) الوجد: هنا معناها الحقد.

(٢) غرب: غاب.

(٣) الإران: فورة النشاط.

(٤) الأنابيب: جمع أنبوب بضم الهمزة وهو كعب الرماح، والثقف تسوية الرماح. والهناء: على وزن كتاب هو القطران وبه يداوى جرب الإبل.

(٥) النجيع: الدم المائل إلى السواد، أو هو دم الجوف.

(٦) الصعاد جمع صعدة وهي القناة المستوية تنبت كذلك.

فصرت لزمهم غرضاً رحيماً  
وأكذب بالتصون مدعهم  
ولو أني أطعت الرشيد يوماً  
وأغضيت اللواحق عن ذنوب  
ولكن الحميمة في تأبى  
وأنظر سبة وعظيم عار  
ولو أني رميت أصاب سهمي  
فما سهمي السديد من النوابي  
ولي أنف كأنف الليث بأبي  
وقد عرف العدا وبلوا قديماً  
لي العزم الذي قد جربوه  
أفلوا- لا أبال لكم- وخلوا  
فقد مدت غيابات المخازي  
صفوت لكم فرنقتم غديري  
ويوشك أن تقام على التقالي  
مضى زمن الستمازج والتداني  
لئن أعلى بناءكم اصطناعي

يرامون بمثل حصا القذاف<sup>(١)</sup>  
وأجسم قائلهم بالعفاف  
لأبدلت التحامل بالتجافي  
وموضعها لعيني غير خاف  
قراري للرجال على التكسافي  
رضاي من المنازع بالكفاف  
ولكنى ألقب عن شغافي<sup>(٢)</sup>  
ولا باعي الطويل من الضعاف  
شميمي للمذلة واستيافي<sup>(٣)</sup>  
خطاي إلى المنايا وازدلافي  
يقد مضارب الببيض الخفاق  
مطاعنة الأسنان بالأشافي<sup>(٤)</sup>  
على عرصاتكم مد الطراف<sup>(٥)</sup>  
وأني مضاعن رجوع المصافي  
أناييب رجعتن إلى التصافي  
وذا زمن التزاييل والتنافي  
فسوف يثل عرشكم انحرافي

(١) حصا القذاف - على وزن كتاب - ما يرمى بالمنجنيق. ويراموني: يرامونني، حذف  
إحدى النونين للتخفيف، وهذا كثير جداً في أشعار الشريف كأن يقول:  
سيذكروني إن بنا جانب

من العدا وانحل عقد الزمام

(٢) الشغاف: على وزن سحاب وهي غلاف القلب.

(٣) الاستياف والسوف: الشم.

(٤) الأشافي: جمع الإشفى بكسر الهمزة وهو المثقب يخرز به.

(٥) الطراف: على وزن كتاب بيت من آدم.

أداري داءهم فيزيد خبثًا  
حنوت عليهم ولرب حنانٍ  
فما تغني القوادم من جناح  
وعندي للزمان مسومات  
بوارد للغليل كأن قلبي  
أسر بهن أقوامًا وأرمي  
وليس لداء ذي البغضاء شاف  
على جانٍ وإن بعد التلاقي  
تحامل إن قعدن به الخوافي  
من الأشعار تحترق الفيافي  
يعبّ بهن في برد النطاف  
أفيوامًا بثالثة الأثافي<sup>(١)</sup>

ويهمني أن أوجه أنظاركم إلى قوله في هذا القصيد:

وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائلهم بالعفاف

فهو يؤيد ما افترضناه من قبل، ويبين لكم أن الشريف كان يعرف أن هناك جماعة من الأندال يسوئون سمعته ويذيعون عنه الأباطيل؛ ليغضوا من قدره بين الناس، فيخلو لهم الجوّ إذ يقضي عليه التجريح لآثم بالخروج من الميدان.

أيها السادة ..

في ديوان الشريف أشعار كثيرة عن الأقارب والأصدقاء الذين يعرفون الرجل في أيام النعماء، وينكرونه في أيام البأساء، وهي أشعار جيدة؛ ولكنها في مراميها لا تُعدُّ من المبتكرات؛ لأنها مما تعاورته سهام الشعراء في القديم والحديث.

فلنترك هذه الناحية ونقف لحظة عند الأزمة التي وقعت بين الرضي وأخيه المرتضى.

لا تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التي وقعت بين ذينك الأخوين

(١) المراد بثالثة الأثافي: الداهية، وثالثة الأثافي هي في الأصل الجبل؛ وذلك أنهم كانوا إذا لم يجدوا ثالثة الأثافي أسندوا القدر إلى الجبل، الأثافية: بالضم والكسر الحجر توضع عليه القدر.

ولكننا نعرف أنّهما لم يكونا مؤتلفين كل الاثتلاف؛ لأنّ مذهبهما في الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف، ويمكن الحكم بأن الرضي كان جمهوره من أهل الأدب، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل العلم، وهنا تظهر أسباب المنافسة بين الأخوين، فالرضي الشاعر كان عالماً جليلاً، والمرتضى العالم كان شاعراً مجيداً، ولا ندري متى يأتي الزمن الذي يسمح بأن نحدد خصائص هذين الأخوين، ونبين ما يشتركان فيه، وما يتفرّد به كل منهما تفرّداً لا يتطرق إليه الخلاف.

ولكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم، وهو أنّ ذينك الأخوين عرفا كدر الأخوة بعد الصفاء، وإن جهلنا حقائق الأسباب، ولكن أي كدر؟!

تصوروا حال الشريف الرضي الذي مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد، وامتزج بحياته البيئية امتزاج الماء بالصهباء، تصوروا حاله وهو يسمع أخاه يمسّه بقوارص الاغتياب.

وهل في الدنيا وجه أقبح من وجه الأخ الذي يغتاب أخاه؟ إنها بلية دميمة لا يضمن بها دهر الغادر على كرام الرجال، وقد شرب الرضي كئوس العلقم من يد الزمان، رأى من البلايا ما أنطقه بالشعر وهو في العشر من سنه ورماء بالشيب وهو في سن العشرين!

ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا الحد فيرى أخاه الشقيق وهو يمضغ عرضه بلا تورع ولا استحياء؟ هل تفسد الدنيا هذا الفساد فنرى المرتضى والرضي يتباغضان ويتحاقدان بعد أن جمعتهما الأيام تحت جناحي أمّ رءوم تروضهما على المودة والعطف وهي ترى الدنيا في وجهيهما حين زج زوجها في غياهب الاعتقال!

ما هي الأخيطة التي طافت برأي الشريف وهو يعادي أخاه؟ إن الجبال أخف وزناً من الهموم التي تساور الشاعر حين يبغض من

يجب، والسم أحلى مذاقاً من ورود الشاعر بحر القطيعة، قطيعة الأخ  
المحجوب، فماذا صنع صديقنا الشريف الرضي في تلك الأيام السود؟!!

ما الذي عاناه وهو يستعد لذلك النضال المشثوم؟!

وما هو الغم الذي سيطر عليه حتى استباح لنفسه أن يهجم على أخيه؛  
وهو يعلم أن ذلك الأخ هو كل ما بقي له من الثروة الروحية في زمن كان  
يزخر بالمهالك والخطوب؟

ولا تنسوا أيها السادة أننا نتحدث عن شاعر كان يعيش في بغداد في  
النصف الثاني من القرن الرابع، وهو من أسمى العصور التي عانتها بغداد؛  
لأنها لم تكن تختار ملوكها ولا وزراءها في ذلك العهد، وإنما كانت تفرض  
عليها الملوك وفقاً لعدوان المطامع بين الديلم والأتراك، ولم يبق لأهل بغداد  
من أسباب الجاه إلا ما توارثوه من المناصب بفضل التقاليد، وكان من أهم ما  
توارثوه مناصب القضاء، وكانت هذه المناصب مما يملك الفقهاء البغداديون  
السنيون والشيعة فلم يكن بدّ من أن يتعاطفوا وتشيع بينهم القلة الحسنة  
والصيت الجميل.

فإذا نقل الواشون إلى الرضي أن أخاه المرتضى يسلقه في غيبته بلسان  
حديد؛ فإننا يصورون له مجداً يتقلص وملكاً يضع.

وماذا يبقى للرضي إن ضاعت منه مودة ذلك الشقيق؟!

هو مع الملوك في حرب، ومع الخلفاء في حرب، ومع المنافسين في نضال  
والعراق على اتساع حواضره وبيواده يضيق عن تأسيس الثروة والمجد من  
جديد لأن الثورات لم تترك فيه مجالاً لأيدي الفلاحين فضلاً عن الشعراء  
والعلماء.

اعذروني أيها السادة إذا وقفت عند هذه المعضلة النفسية، فأنا أحب أن اعذر عن الشريف الرضي، أحب أن أقول: إنه لم يهجم على أخيه إلا بعد أن ضاقت في وجهه مسالك الصفح الجميل، وكان في مقدوري أن أحكم بأن أهل العراق قوم تغلب عليهم دقة الإحساس، فهم يغضبون لأول بادرة؛ ولا يفكرون في العواقب عند الصيال؛ ولكن ماضي العراق يشهد بأن أهل العراق كانوا من أشوق الناس إلى درس أصول الحب والبغض، فمن العسير أن نصدق أن الرضي هجم على أخيه إلا بعد أن طفح الكيل، وعزّ الوفاق.

ولكن ما بالنا نشغل أنفسنا بهذه الدقائق النفسية؟ يكفي أن نعرف أن الرضي عرف في حياته لونا أسود هو الاضطغان على الأخ الشقيق، وأنه لم يرد ذلك المورد إلا وهو آسف محزون، وقد نظم في ذلك قصيدة ضادية هي أعظم ما نظم في قافية الضاد: وقد تأثر بهذه الضادية التي اختارها أبو تمام في الحماسية، فجاءت ضاديته أبلغ وأروع، والشعراء يعدي بعضهم بعضًا بالعواطف والآحاسيس، ولننظر كيف يقول:

|                                 |   |
|---------------------------------|---|
| رضيت من الأحباب دون الذي        | ودانيت من تقضي الديون ولا يقضي                |
| وقد أتهرت في الليالي جراحها     | مرارًا وأضناني من الهم ما ينضي <sup>(١)</sup> |
| طوى الدهر أسباب الهوى عن        | وحل الصبا عقد الرحائل عن نقضي <sup>(٢)</sup>  |
| ولم يبق لي في الأعين النجل طربة | ولا أرب عند الشباب الذي يمضي                  |
| ضحأ اليوم عن ظل الشبية مفرقي    | وأبدل مسود العذار بمبيض <sup>(٣)</sup>        |
| أتاني ومطول من النأي بيننا      | قوارص تنبو بالجفون عن الغمض <sup>(٤)</sup>    |

(١) أنهر الجرح: وسّعه. وأنضاه: أهزله وأضناه.

(٢) النّقص: بالكسر المهزول من السير.

(٣) ضحأ: برز للشمس، والمفرق بفتح الراء وكسرهما وسط الرأس وهو الذي يفرق من الشعر.

(٤) القوارص: الكلمات الجافية.

ومولى ورى قلبي بلذعة ميسم  
 فعذرًا لأعدائي إذا كان أقربي  
 إذا ما رمى عرضي القريب بسهمه  
 ألم يأتيه أني تفردت بعده  
 وأني جعلت الأنف من كل حاسد  
 وكم من مقام دون مجدك قمته  
 وقارعتُ من أعيالك قبل قراءة  
 لقد أمست الأرحام منا على شفا  
 رأيت مخيلات العقوق مليحة  
 ولا تشمتن من ودّ لو أننا معًا  
 إذا كنت أغضي والقواذع حمة  
 على غصص لو كنَّ في البدر لم ينر  
 رزئتك حبسًا بالقطيعة والقلبي

- (١) المولى: القريب، ورى القلب: كواه، والميسم: ما يكوى به.  
 (٢) يشذب: يقطع، والنحض: اللحم.  
 (٣) القبال: على وزن كتاب هو من النعل زمام بين الأصابع الوسط والتي تليها.  
 (٤) الدحض: قريب في معناه من الزلق.  
 (٥) داخجة: هنا معناه صالحه، والتشارر فك إدغامها للوزن، وهذا يقع كثيرًا جدًّا في شعر الشريف، وفي نسخة الديوان (التشاور) وهو تحريف.  
 (٦) الشفا: حرف كل شيء؛ يريد أن الأرحام أصبحت على شفا الهاوية والمشفى المشرف على الهلاك، ويعلل: يعال، ويقضي: يموت.  
 (٧) المخيلات: جمع مخيلة وهي من أخيلت الساء إذا تهبأت للمطر، والمليحة من الأح البرق إذا أومض.  
 (٨) الشجيجان مثني شجيج وهو المجروح، وفي الديوان (شحيحان) بحاءين مهملتين وهو تحريف.  
 (٩) يرم: يسكت.

- أناديك فارجع من قريب فيأتي  
لقد كان في حكم الوشائج لو رأى  
فكيف ولم تخرج مناديج همتي  
إذا هو أغضى ناظريّ على القذى  
خليلي ما عودي لأول غامز  
فقل للعدا عضوا الأخماص إنكم  
هن نقضوا ما قد بنى أولوهم  
أفي كل يوم يصيغ العار منهم  
يريدون أن يخفوا النواقر بيننا  
ذكرت حفطي والحفيظة في الحشا  
دعوتكم قبل التي لا شوى لها<sup>(١)</sup>  
ردوني نميراً قبل أن أحمل القذى  
ولسوا جيمي قبل أن يمنع الحمى
- إذا ضاق بي ذرعى مضيت كما تمضى<sup>(٢)</sup>  
عن المجد بطيء أن يبالغ في حضي<sup>(٣)</sup>  
ولا ذمت العلياء بسطى ولا قبضي<sup>(٤)</sup>  
وكان لمثلي مسخطاً فلمن يرضي؟  
ولا زيد وطبى للمقيم على مخضى<sup>(٥)</sup>  
تعرفتم الأيدي على من العض<sup>(٦)</sup>  
وشدنا وهيهات البناء من النقض  
رداء امرئ والعار باقٍ على الرحض<sup>(٧)</sup>  
وقد صاحت الأضغان في الخلق المرض<sup>(٨)</sup>  
لها نغضان العرق مجفز بالنض  
وقلت لكم فيثوا إلى الخلق المرضي  
فلا تردوا إلا على الثمد البرض<sup>(٩)</sup>  
إبائي أو يوبي على رعيكم حمضي<sup>(١٠)</sup>

(١) هذا بيت القصيد.

(٢) الوشائج: جمع وشيجه وهي هنا رباط القرابة.

(٣) تخرج: تضيق. وفي الديوان (تخرج) بالخاء المعجمة وهو تحريف، والمناديج: المسالك.

(٤) الغامز: الذي يختبر العود، والوطب: سقاء اللبن وهو من جلد. والمخض: أخذ الزيد من اللبن.

(٥) الأخماص: جمع الأخص وهو من باطن القدم ما لا يصيب الأرض، والتعرق: أكل اللحم.

(٦) الرحض: الغسل.

(٧) النواقر: جمع ناقرة وهي الداهية والمراد بها الحقد.

(٨) قبل التي لا شوى لها: أي قبل الضربة القاضية.

(٩) التمير: الماء الصافي، الثمد: بسكون الميم ويحرك بقية الماء، والبرض: القليل.

(١٠) اللس: الأكل واللحس وبتف الدابة الكلاً بمقدم فمها، والجميم: النبات الكثير أو الناهض المنتشر، يوبي: يفسد، والحمض: بالفتح ما ملح وأمر من النبات وهو للإبل

برود الخنا ما شئت في الطول والعرض<sup>(١)</sup>  
 بلا حقب تطوي البلاد ولا غرض<sup>(٢)</sup>  
 وإن غلب الأقران إلا على رمض<sup>(٣)</sup>  
 أناشدكم بالله في الحسب المحض  
 ستجري إلى عار العواقب أو تفضي  
 من الناس إطراقي على الهون أو غضي  
 فيؤلنى من قبل نزعى بها عرضي<sup>(٤)</sup>  
 ولم أدم أعضائي بسنهش ولا عض  
 وكان فمي يمضي من القول ما يمضي  
 من الغيظ واستعطقت بعض على بعض

ومن قبل أن يسدي المعادون بيننا  
 ولا تركبوا سياء دامية القرا  
 تقوا عار حرب لا يعود مثيرها  
 ولا تولجوا زور العقوق بيوتكم  
 أراها بعين الظن حمراء جهمة  
 تمضمني من لا يكون لغيره  
 أفوق نبل القول بيني وبينه  
 وأرجع لم أولغ لساني في دمي  
 إذا اضطرت ما بين جنبي غضبة  
 شفعت على نفسي بنفسي فكفكفت

ولم تطل الجفوة بين الأخوين؛ فكتب المرتضى إلى أخيه الرضي قصيدة  
 جيدة نتخير منها الأبيات الآتية:

وأعدى اقتراب الوصل منا على البعد  
 صفوحًا ولا في قسوة عنه بالجلد  
 كما يتضى العضب الجراز من الغمد<sup>(٥)</sup>  
 بجبل وفاء غير منقصم العقد  
 يسالي ولم أحفل بداعية المصد

تكشف ظل العتب عن غرة العهد  
 تجنّبي من لست عن بعض هجره  
 نضته يد الأعتاب عما سخطته  
 وكنت على ما جرّه الهجر ممسكًا  
 أمين نواحي السر لم تسر غدره

كالفاكهة للإنسان.

- (١) يسدي من السدى: وهو ما مد من الثوب.
- (٢) السياء: بالكسر حارك الفرس وظهر الحمار. والقرا: الظهر، والحقب بالتحريك الحزام أو حبل يشد به الرحل. والغرض للرحل كالحزام للسرّج.
- (٣) تقوا: اتقوا، والرمض: شدة وقع الشمس على الرمل.
- (٤) فوق النبل: رماء مسددًا.
- (٥) الأعتاب: الترضية.

تلمين على مس الإخاء مضاربي  
ولما استمر البين في عدوائه  
أصاحب حسن الظن والشك مقبل  
إذا اتسعت في خطة الصد فكري  
وإن ناكرتني خلة من خلاله  
يخال رجال ما رأوا لفضالة  
إذا تركت يمنى يديك تعلقني  
إيابًا فلم تشرف على غاية النوى  
ولو لم يلاقى الزند قدحًا بمثله<sup>(١)</sup>  
هلمّ نعد صفو الوداد كما بدا  
ونغتم الأيام فهسي طوائش  
ومثلك أهدى أن يقاد إلى الهدى

وإن كنت في الأقسام مستخشن الجد<sup>(٢)</sup>  
تغول عفوي أو ترقى إلى جهدي<sup>(٣)</sup>  
بوجهي إلى حيث استمرت غري الود<sup>(٤)</sup>  
تجللني هم يضيّق به جلدي  
تعرض قلبي بفتديها من الحقد<sup>(٥)</sup>  
ولن تستشف بالأعين الرمد  
فيا ليت شعري من تمسك من بعدي!  
ولم تنأ كل النأي عن سنن القصد  
لما انبعثت شهب الثرار من الزند  
إعادة من لم يلف عن ذلك من بسد  
تواتي بلا قصد وتأبى بلا عمد  
وأرشد أن ينحاز عن جهة الرشد

وقد انعطف الرضي حين وصلت إليه هذه القصيدة وجنح إلى السلم؛  
فأرسل إلى أخيه قصيدة طويلة؛ نكتفي منها بالقطعة الآتية:  
وأعظم ما لاقيت شجواً ولوعة عتاب أخ قلّ الزمان به حدي!  
أفيك الردى ما كان ما كان عن قلي ولكن هنات كدن يلعين بالجد<sup>(٦)</sup>

- (١) في الديوان (مستحسن) بالسين والحاء المهملتين وهو تحريف.
- (٢) العُدّاء: بضم العين وفتح الدال، الشدة، وهي في الأصل الأرض الصلبة.
- (٣) استمرت: قويت، وفي الأصل (استترت) وهو تحريف، وقد تكلف شارح الطبعة البيروتية، والصواب ما أثبتناه.
- (٤) الحلة: بالفتح الخصلة.
- (٥) في الديوان: ولم لا يلاق القدح زنديًا بمثله وهو شطر محرف.
- (٦) في الديوان (بالجلد) وهو تحريف.

إلى القلب إلا بعد ما حز في الجلد  
وعقد ضميري أن أداوم على الود  
فأنف لي من أن أفوز بها وحدي  
على الحسب الداني وبقيما على المجد  
ونافست فيك الأبعدين على الود  
بقلب على الضراء كالحجر الصلد<sup>(١)</sup>  
وعدت كما عاد الجزار إلى الغمد  
تسوء ومتقوض الضلوع من الوجد  
إذا ارتمت الأعداء بالأعين الرممد  
تجلى الدجى عن ناظري وورى زندي  
أنيقاً كبرد العصب أو زمن الورد<sup>(٢)</sup>  
فأصبحت من نيل الأماني على وعد  
كما نشط المأسور من حلق القد  
إليك كما ضمت ذراع إلى عضد

ولا تحسبن العتب جازت كلومه<sup>(٣)</sup>  
منحتك ما عندي من الصد معلناً  
وقد كنت أبغي رتبة بعد رتبة  
حفاظاً على القربى الرءوم وغيره  
حسدت عليك الأجنبين محبة  
وقد كان لذع فألقيت شباته  
تجلدت حتى لم تجد في مغمراً  
وهأنسا عريسان الجنان من التي  
أفلب عيناً في الإخاء صحيحة  
وإني منذ عاد التودد بيننا  
وعاد زماني بعد ما غاض حسنه  
وكنت سليب الكف من كل ثروة  
وفارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضا  
وقد ضمنى محض الصفاء وصدقه  
أيها السادة ..

لقد كان الرضي شاعراً يرضى ويشوق إلى الصديق فيقول:

وما زادني القرب إلا اشتياقاً  
فأسلفتها بالقبول الصداق<sup>(٤)</sup>  
نت أنك أضجعت فيه التفاقاً

لقاؤه جرّ عليّ الفراق  
جلوت عليّ هدي الوداد  
وأسرفت بالبشر حتى ظنـ

(١) الكلوم: جمع كلم بالفتح وهو الجرح.

(٢) الشبابة: إبرة العقرب وحد كل شيء.

(٣) العصب: ضرب من البرود.

(٤) الهدى: على وزن غني العروش.

فكيف حضور يضم الرفاقا؟  
 ء يومًا حسونه كأسا دهاقًا  
 فلله أي دمء أراقا!!  
 يلسوي إزارًا ويرخي نطاقا  
 د مبتدءا فشكرنا العراقا  
 لنا القرب حتى نسينا الفراقا!!  
 وما زود الباع منك العناقا

وإن لأكلسه داء عياء  
 ويحسن لي التجميل واللقاء  
 من الضراء آنية ملاء

وكان يوازن بين عداوة الأقارب وداوة الأباعد فيقول:  
 والذل ما بين الأباعد أروح  
 فسهام ذي القربى القربة أجرح  
 فلي من يد المولى وإن ذل ناصر<sup>(١)</sup>  
 وقد تمسك الساق المهيض الجبائر<sup>(٢)</sup>

على عظم داء بيننا متفاقم

وحاشاك من همة في المغيب  
 وكان الزعيم بهذا الإخسا  
 نحرنا الدنان على صدره  
 شرقنا بلذاته والسرور  
 سقى الله دهرًا حبانًا الودا  
 وما زلت أعجب من حفظه  
 أنقتص من جسدي بالبعاد

وكان يغضب على المغتايين فيقول:  
 وغمر أكل بالغيصب لحمي  
 يسيء القول إما غبت عنه  
 عبأت له وسوف يعب فيها

وكان يوازن بين عداوة الأقارب وداوة الأباعد فيقول:  
 للذل بين الأقربين مضاضة  
 وإذا رمتك من الرجال قوارص  
 وكان يتشبث بأبناء عمه فيقول:  
 إذا لم يكن لي ناصر من عشيرتي  
 ولاني وإن قلوا مستمسك بهم

أو يقول:

لويت إلى ود العشيرة جانبي

(١) المولى: ابن العم.

(٢) الجبائر: جمع جبيرة وهي العيدان التي تجبر بها العظام.

جرائف هاتيك الندب القدائم<sup>(١)</sup>  
 لتمزيق قريبي بيننا والمحارم  
 ذنوب بني عمي عزوب السوائم  
 وقد كان سمعي مدرجًا للسائم

ونمت على الأضغان حتى تلاجت  
 وقلمت أظافري وكنت أعدها  
 وروحت علمي بعد ما عزيت به  
 وأوطأت أفول الوشاة أخامصي

أو يمن عليهم بالحللم فيقول:

من الضراء ما لقيت شمالي  
 إذا خطر العقوق لكم بيالي  
 أروني من يقول لكم مقالي  
 ومن يشفي من الداء العضال  
 ويرمى عنك يوم النضال<sup>(٢)</sup>  
 أشدُّ عليَّ من صرد النبال<sup>(٣)</sup>  
 فكان جزاء قائلها فعالي

بني عمي وعز علي يميني  
 أعود على عقوقكم بحلمي  
 أروني من يقوم لكم مقامي  
 ومن يجمي الحریم من الأعادي  
 يشايح دونكم يوم المنايا  
 ورب قوارص نكتت جناي<sup>(٤)</sup>  
 صبرت لها ولم أردد مقالاً

أو يهددهم فيقول:

ما تصنعون بأخلاق تنافيني؟  
 في كل يوم قطيع الذل يحدوني  
 خشونة الصلة عقبى ذلك اللين  
 فالكأر غض وإن بقي إلى حين  
 فكم أباقي بها من لا يباقي!!  
 بعارض كضريم الليل مدخون

هبوا أصولكم أصلي على مضمض  
 كم الهوان كأني بينكم جمل  
 لا تآمن عدواً لأن جانبه  
 واحذر شرارة من أطفأت جمرته  
 إني تهييب بي البقايا وأتبعها  
 توقعوها فقد شبت بوارقها

(١) الجوائف: جمع جائفة وهي طعنة تبلغ الجوف.

(٢) يشايح: يقاتل.

(٣) النكت: الضرب.

(٤) الصرد: وقع، وهو أيضاً مسمار في السنان يشك به الرمح.

إذا غدا الأفق الغربي مخمراً      من الغبار فظنوب و ظنوني

أو يصارحهم بالقطيعة فيقول:

قد يقدح المرء وإن كان ابن عم      ويقطع العضو الكريم للألم

أو يعلن اليأس من الناس جميعاً فيقول:

أكرّ طرفي فلا أرى أحداً      إلا مغيظاً عليّ مضطغنا

ينبض لي مسن لسانه أبداً      نصال ذم تمزق الجننسا

أيها السادة ..

تلكم صورة نفسية تمرّ بخواطر الشعراء، ولها في الشعر القديم والحديث أمثال؛ ولكن الشريف تفرد بقصيدة يتيمة لم يقل مثلها أحد من القدماء والمحدثين فكان أوحّد الناس في الدعوة إلى استبقاء الصديق، إذ يقول:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوية      أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

تقبلت منه ظاهراً متبلججاً      وأدمج دوني باطننا متجهجاً

فأبدى كروض الحزن رقت فروعه      وأضمر كالليل الخداريّ مظلماً<sup>(١)</sup>

ولو أنني كشفته عن ضميره      أقمت على ما بيننا اليوم مأتماً

فلا باسطاً بالسوء إن نالني يدًا      ولا فساغراً بالذم إن رابني فمًا

كعضو رمت فيه الليالي بقادح<sup>(٢)</sup>      ومن حمل العضو الأليم تألماً

إذا أمر الطب اللبيب بقطعه      أقول عسى ضنّاً به ولعلماً

صبرت على إيلامه خوف نقصه      ومن لام من لا يرعوي كان ألوماً

هي الكف مض تركها بعد دائها      وإن قطعت شانت ذراعاً ومعصماً

أراك على قلبي وإن كنت عاصياً      أعزّ من القلب المطبوع وأكرماً

(١) الخداري: بالضم المظلم.

(٢) القادح: أكال يقع في الشجر والأسنان والصدع في العود.

حملتك حمل العين ليجّ بها القذى  
 دع المرء مطويًا على ما ذمته  
 إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته  
 ومن لم يوطن للصغير من الأذى  
 فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى  
 ولا تنشر النداء العضال فتندما  
 على مريض لم يتوق لحماً ولا دماً  
 تعرض أن يلقى أجل وأعظماً<sup>(١)</sup>

(١) في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) بيان الأصول التي أخذ منها الشريف الرضي هذا المعنى الجميل، فليرجع إليه القارئ. إن شاء.

## أسرار العلائق بين الرضي والصابي

أيها السادة:

رأيتم في المحاضرة الماضية ألواناً من تأثير الصداقة والعداوة في حياة الشريف الرضي، وشهدتم أننا وقفنا وقفة قصيرة عند صلته بصديقه أبي الحسن وخصومته مع أخيه الشريف المرتضى، وتذكرون أنه أشار إلى صديق اسمه ابن حمد، إذ قال في الحديث عن اجتماعوا عنده في مجلس أنس:  
أخي وابن عمي وابن حمد فإنه تباريح قلبي خاليًا وغرامسي

فلنقل اليوم إن ابن حمد هذا كانت له مكانة في أواخر القرن الرابع، وقد رافق الرضي في طريق الحج سنة ٣٩٤ وفيه يقول:

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| دعوت ابن حمد دعوة فأجابها      | وكنت إذا ضاقت مناديع خطة       |
| رمى لي أعراض المنى فأصابها     | أخ لي إن أعيت علي مطالبني      |
| قرعت به دون الأخلاء بامها      | إذا استبهمت علياء لا يهتدي لها |
| ووجب عندي نأيها واغترابها      | به خف عني ثقل فادحة النوى      |
| رفيقين تكسسونا السدياجي ثيابها | ثمانون من ليل التمام نجوبها    |

وهناك صديق آخر يسمى ابن ليلي كان له في نفس الرضي أثر بليغ، وسنعرض له في غير هذا الحديث.

والمهم في هذه الليلة أن نشرح أسرار العلائق بين الرضي والصابي، فنقول: كانت صلة الصابي بأسرة الشريف الرضي قديمة العهد، وكان الرضي وهو طفل يسمع أن في دنيا الأدب والسياسة رجلاً كريم الشائل اسمه أبو إسحاق الصابي، وكان يسمع أنه من أصدقاء أبيه الأصفياء.

وما نعرف بالضبط متى ابتدأت صداقة الصابي لأبي أحمد الموسوي والد

الشريف، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن شواهدا القوية ظهرت سنة ٣٥٤ قبل أن يولد الشريف بأكثر من أربع سنين.

وتلك الشواهد القوية هي العواطف التي ظهرت في كتابة التقليد وهو المنشور الذي كتبه الصابي عن الخليفة المطيع لله بتقليد أبي أحمد الموسوي نقابة الطالبين.

وإليكم فقرات من ذلك المنشور لتعرفوا جوهر تلكم العواطف:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين لما يعرفه من تيقظك وحزمك وتحفظك يرى أن ينوط بك من سني الأعمال ما يستمتع فيه بكفايتك ويستثمر معه المخيلة في دينك وأمانتك، ويفرع بك من أعلى المراتب ما يضاهاه رأيه في أمثالك من أعيان دولته، وذوي التحقق بدعوته، والاعتصام بحبله، جريا من أمير المؤمنين على شاكلته في الارتياح لمواقع معروفة، وتخير من يؤهله لتكريمه وتشريفه حتى يلبس إنعامه من يستحق أن يكون التفضل، ويحمد منه من يبين أثر التوفيق في الإحسان إليه ...

ولذلك رأى أمير المؤمنين أن يقلدك النقابة على الطالبين أجمعين من كان في مدينة السلام وفي غيرها من النواحي والأمصار، ثقةً بأنك تقع من النهوض بالأعباء بحيث تحقق ظن أمير المؤمنين فيك، وتظهر من الكفاية والغناء ما يكون لمزيدك من النعمة مقتضيا ولمضاعفة الإحسان إليك ممتريا.

واعلم أن أمير المؤمنين قد فضلك على أهل بيتك طرا، ورفعك فوقهم جمعا، فجعلك واحدهم بعد أن كنت واحدا منهم، واختصك دونهم بعد مساواتك لهم، فسر في تطبيقهم سيرته، واسلك في ترتيبهم طريقته، وأوصهم بحسن التأمل لآثار الجماعة، وكفهم عما تنكر بالهيبة والطاعة، وإنما جعلك أمير المؤمنين أمينه فيهم، وعينه عليهم، لما ضمن بهم عن الزلل وصابهم عن الغي

والخطل، واستهد الله أولاً وآخرًا يهدك، واستكفه باطنًا وظاهرًا يكفك،  
واستمد منه العون يمددك، واشكر نعمه يزدك.

هذه فقرات من التقليد الذي كتبه الصابي إلى أبي أحمد الموسوي عن  
الخليفة المطيع، ومن هذه الفقرات ترون روح الحب الذي كان يكنه الصابي  
للموسوي والد الشريف.

قد تقولون: هذا كلام أذيع باسم الخليفة فهو يصور عواطف الخليفة لا  
عواطف الصابي.

ونجيب بأنه كان مفهومًا أن الكتاب يسألون عما يكتبون؛ لأن الخلفاء  
والمملوك والرؤساء لم يكونوا يملون الرسائل، وإنما كانوا يوصون بشرح  
الغرض، فكانت للكتاب فرص يعلنون بها ما يضمرون.

والتاريخ يحدثننا أن الخليفة المنصور حقد على ابن المقفع للأمان الذي كتبه  
لعبد الله بن علي، فقد جاء فيه:

ومتى غدر أمير المؤمنين بعمة عبد الله فساؤه طوائق، ودوابه حبس،  
وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته.

وكان يستطيع المنصور أن يفترض أن ابن المقفع لم يكتب غير ما أملي عليه  
ولكنه كان يعرف أن الكتاب يتصرفون فيما يُعهد إليهم من ضروب الإنشاء،  
وكان جزاء ابن المقفع أن يقتل ويحرق ويذري رماده في الهواء.

والصابي نفسه أخذت عليه عبارة كتبها عن الخليفة الطائع في شأن بختيار  
وهي:

وقد جدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق والعوالي السوامق،

التي تلزم كل داني وقاصي، وعام وخاص، أن يعرف له حق ما كرم به منها، ويتزحزح عن رتبة المهائلة فيها.

فقد غضب عضد الدولة من هذه الكلمة وعدّها تعريضاً به، فلما أمكته الفرصة نكل بالصابي أشنع تنكيل.

ونحن في هذه الأيام نسمع الرد على خطاب العرش. فهل تظنون النواب يجادلون جلالة الملك؟ لا، وإنما هم يجادلون رئيس الوزراء؛ لأن المفهوم في عرف الحياة الدستورية أن خطاب العرش من وضع رئيس الوزراء، أو هو خطاب اشترك في تدوين أصوله جميع الوزراء.

كذلك كان يُسأل الكتاب الذين يُنشئون الرسائل بأسماء الخلفاء والملوك.

وإنما سقنا هذه الشواهد لنؤكد أن الثناء على أبي أحمد الموسوي - في الخطاب الذي كتبه الصابي باسم الخليفة المطيع - يدل على المودة المتينة التي كانت بين ذينك الرجلين، وهي مودة سمع بأخبارها الشريف وهو طفل، ثم جاءت الحوادث فزادتها توكيداً إلى توكيد.

ولكن ما هي تلك الحوادث؟

حدثناكم من قبل عن الخصومة بين بختيار وعضد الدولة وقلنا: إنها انتهت باندحار بختيار وسيطرة عضد الدولة على العراق.

فلنذكر أن عضد الدولة حين انتصر أخذ يصفى حسابه مع خصومه القدماء فنظر فرأى الصابي، وكان شيخاً له بين الكتاب مكان مرموق، ففكر في أمره غير قليل، ثم هداه الرأي إلى استخدام الصابي في تأليف كتاب يسجل به مفاخر الدولة الديلمية ويشرح ما قامت به من الحروب والفتوحات، ورأها الصابي فرصة يستلين بها عضد الدولة وينجي بها رأسه من السيف، وأخذ في

التأليف، ولكن بعض الأصدقاء دخل عليه وهو مشغول بالتسويد والتبييض فسأله عما يفعل، فأجاب وقد خانته الحظ: بأباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها!

ومضى ذلك الصديق الخنون فنقل العبارة إلى عضد الدولة، فثارت أحقاد ذلك الطاغية، وأمر بأن يُلقى الصابي تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتل، ولكن لطف الله بالصابي شيخ الكتاب، فقد كان في حضرة عضد الدولة جماعة يرون له الأستاذية عليهم، منهم: نصر بن هارون، والمطهر بن عبد الله، وعبد العزيز بن يوسف، فأكبوا على الأرض يقبلونها بين يدي عضد الدولة ويستشفعون إليه في أمره ويتلطفون في استهياج دمه، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه واستئصال ما يملك من عقار وأموال<sup>١</sup>.

وهنا تذكرون أن عضد الدولة الذي نكب الصابي، هو نفسه عضد الدولة الذي أودع أبا أحمد الموسوي غياهب الاعتقال.

فإن ذكرتم ذلك فهتمم -ولا ريب- أن الاشتراك في مصدر النكبة، سيدخل ألواناً جديدة في نفس الطفل الذي اسمه الشريف الرضي، وفهمتم أن ذلك الطفل سيجعل نكبة الصابي باباً من التلوم على عضد الدولة الذي يضطهد أقطاب الرجال.

اعتقل الصابي سنة ٣٦٧ ولكن عضد الدولة سيموت، وسيتولى ابنه صمصام الدولة ويفرج عن الصابي في سنة ٣٧١، فليكن هذا التاريخ هو بداية الصلة الوثيقة بين أبي إسحاق الصابي والشريف الرضي، ولنعطِ الشعر فرصة يصور فيها الوداد.

أيها السادة:

كان الصابي كما تعلمون من أعلام الكتاب، وقد بسطت القول عنه من هذه الناحية في الجزء الثاني من كتاب النثر الفني، وكان مع ذلك من أفراد الشعراء، وهو الذي يقول:

|                                |   |
|--------------------------------|---|
| إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى | بجارية أمسى بها القلب يلهج                |
| إذا امتزجت أنفسنا بالتزامنا    | توهمت أن الروح بالروح تمزج                |
| كأنى وقد قبلتها بعد هجعة       | ووجدني ما بين الجوانح يلعج <sup>(١)</sup> |
| أضفت إلى النفس التي بين أضلعي  | بأنفاسها نفسًا إلى الصدر نولج             |
| فإن قيل لي: اختر أيما شئت منها | فإني إلى النفس الجديدة أحوج               |

فيمكن القول بأن المودة بينه وبين الشريف الرضي نشأت من التوافق في المذاهب الأدبية، وذلك من أمتن الأسباب في الجمع بين قلوب الرجال، ولكن يظهر أن التوافق الأدبي لم يكن كل شيء، فقد كان الرجلان من جيلين مختلفين والألفة الذوقية توجب تقارب السن في أغلب الأحوال، وكان هذان الرجلان متباعدين في السن حين جمع بينهما الصفاء، فقد كان الشريف في مطلع العقد الثاني من عمره، وكان الصابي في أواخر العقد الثامن، وشعر الصابي نفسه يشهد بأنه كان يعظم الشريف قبل أوان التعظيم، أي إنه كان يراه طفلاً لولا الفراسة التي توحى بأن سيكون هذا الطفل من عظماء الرجال إذ يقول:

|                                 |                                  |
|---------------------------------|----------------------------------|
| أبا حسن لي في الرجال فراسة      | تعودت منها أن تقول فتصدقا        |
| وقد أخبرتني عنك أنك ماجد        | سترقى من العلياء أبعد مرتقى      |
| فوفيتك التعظيم قبل أوانه        | وقلت: أطال الله للسيد البقا      |
| وأضمرت منه لفضة لم أبح بها      | إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقاً     |
| فإن عشت أو مت فاذكر بشارتي      | وأوجب بها حقاً عليك محققاً       |
| وكن لي في الأولاد والأهل حافظاً | إذا ما اطمأن الجنب في موضع النقا |

(١) يلعج: يتوقد، ومنه لاعج الحب ولواعج الشوق.

وهذه الأبيات تعطينا مفتاح السر لتلك العلائق فما هي البشارة التي يسجلها الصابي ليستقضي حلاوتها في مستقبل الزمان؟

لنتنظر قليلاً حتى نسمع جواب الشريف:

ستت لهذا الرمح غرباً مذلقاً" وأجريت في ذا الهندواني رونقاً  
وسومت ذا الطرف الجواد وإنما شرعت له نهجاً فخبّ وأعناقاً  
لئن برقت مني مخايل عارض لينيك نقضي أن يجود ويغدقاً  
فليس بساق قبل ربعمك مريعاً وليس براق قبل جرك مرتقى  
وإن صدقت منه الليالي مخيلة تكن بجديد الماء أول من سقى  
ويغدو لمن يروي جنبك مروياً زلاًّ وللأعداء دونك مسعقاً  
وإن تر ليثاً لائثاً لفريسة يراصد غرات المقادير مطرقاً  
فما داك إلا أن يوفر طعمها عليك إذا جلى عليك وحققاً  
وإن يرق يوماً في المعالي فإنه سما ليوقى وطء رجلك مزلقاً  
وإن يسع في الأمر العظيم فإنها سعى لك في ذاك الطريق مطرقاً  
وإن يصب السهم الذي راش نصله فما كان إلا في هواك مفوقاً  
وإن ينهض الغرس الذي هو غارس يكن لك مجنى في الخطوب معلقاً  
لتجنيه دون الناس ما كان مشمراً وتلبس ظلاًّ منه ما كان مورقاً  
فتم وادعاً واستسقتني فستتضي حساماً إذا ما مر بالعظم طبقاً

إلى أن يقول:

- (١) الغرب: الحد، والمذلق: المحدد.
- (٢) الطرف: بالكسر الحصان، والخبب والعنق: من أنواع السير السريع.
- (٣) العارض: السحاب.
- (٤) المظرق: ممهد الطريق.
- (٥) مفوق: مسدد.

فإن راشني دهري أكن لك بازياً  
 أشاطرك العز الذي أستفيده  
 فتذهب بالشطر الذي كله غنى  
 وتأخذ منه ما أنام وما حلا  
 فغيري إمطار غادر صبحه  
 فإن تسلف التبجيل قبل أوانه  
 وإن تعطني الأعظام قولاً فإنني  
 يسرك محصوراً ويرضيك مطلقاً  
 بصفقة راض أن غنيت وأملقت  
 وأذهب بالشطر الذي كله شقا  
 وأخذ منه ما أمر أرقاً  
 دوين المعالي واقعين وحلقاً  
 أعضك به وجهها من الود مونقاً  
 سأعطيك فعلاً منه أذكى وأعقباً<sup>١</sup>

ومن هنا نفهم أيها السادة سر العلائق بين ذينك الرجلين، نفهم أن الصابي كان يزيّن للشريف أن يطلب الخلافة الإسلامية، وهذا التزيين هو وحده كافٍ لأن يجعل الصابي أعز الناس على الشريف، فقد كان الشريف في بداية شبابه، والشبان يحبون من يثق بكفائتهم الذاتية ويرشحهم للجلائل الأعمال.

وهذه أيها السادة ظاهرة نفسية يدركها من يدرس نفوس الشبان، فهم يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد في يوم وليلة، ويبحثون عن من يزيهم ويؤيدهم ويدعي لهم التفوق، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى شيخاً جليلاً يتنبأ له بمستقبل جليل فأحبه كل الحب، ومال إليه كل الميل.

والقصيدة التي سقناها من شعر الشريف تشهد بأنه انخدع كل الانخداع، فأخذ يتصور الأيام التي يقسم فيها الحظوظ والأرزاق، ويؤكد للصابي أنه سيجعله في مأمن من خطوب الزمان.

وقد ثارت الحمية في ذلك الغصن الأملود، واستكثر أن تعوقه عضاضة السن عما يريد، فاندفع يقول:

(١) في هذه القصيدة كثير من القعقة، ولكن عذر الشريف أنه قالها في بداية حياته الشعرية.

فإن قعدت بي السن يوماً فإنه سينهض بي مجدي إليها بحققا  
فوالله لا كذبت ظنك إنه لعار إذا ما عاد ظنك محققا  
فإن الذي ظن الظنون صوادقا نظير الذي قوى الظنون وحققا

على أن الشريف لم يكن بالغافل إذ صدق فراسة الصابي، فهما أديبان، والأدباء قد يطمئن بعضهم إلى بعض، وكان الشريف يعرف أن الصابي له علاقات متينة بكثير من الرؤساء والوزراء، ولا سيما الصاحب بن عباد، وكان مفهوماً في تلك العهود أن الخلافة العباسية على شفا الهاوية، وأن الأمر للملوك بني بوية، والاتفاق مع أولئك الملوك ليس بالأمر المستحيل.

وكذلك تطور الحب بين الشريف وبين الصابي، فبعد أن كان الشريف يميل إلى الصابي لأنه من أصدقاء أبيه القدماء، ولأنه من خصوم عضد الدولة، ولأنه يُعجب بشعره وهو طفل، أصبح يحبه لأنه صار داعية من دعائه الأوفياء، ولأنه سيصير في المستقبل من صنائعه يوم يصبح أمير المؤمنين.

تلکم أيها السادة أسرار العلائق بين ذينك الرجلين، ولكنها إلى الآن علائق نفعية، فلننظر كيف تطورت مرة خامسة فأصبحت مودة وثيقة تساور لفائف القلوب.

أيها السادة:

لا تسألوا عن الصابي الذي كان يشجع الشريف على مطامعه السياسية، فتلك شئون كان الرجلان يروضانها في الخفاء، وقد مرت أعوام وأعوام وبغداد بين مد وجذر، وأرض العراق معسكرات يتداولها المحاربون بين يوم ويوم، فكان لا بد من التريص لتحقيق ذلك الأمل الخطير، وهو لن يتحقق برسالة يكتبها الصابي أو قصيدة ينظمها الشريف، وإنما يتحقق يوم تتم السيطرة لرجل واحد من البويهيين يسهل معه الاتفاق، ولكن: متى يأتي ذلك

اليوم؟

وفي انتظار اليوم الموعود يمضي الصديقان ليستقيان كأس الوداد، والظاهر أن نفس الشريف كان طال عهدها بالنفرة من الناس، فما كاد يعرف الصابي حتى أقبل على محبته بقلب ملهوف.

ويظهر أيضًا أن نفس الصابي كانت ملت الاتصال برجال السياسة الذين أزعجوا شبابه وكهولته بالتلون والتقلب، فما كاد يتصل بالشريف حتى رأى فيه نفسًا روحانية قد تستطيع تجديد نوره وهو يجنح راغمًا إلى الغروب.

وهنا نذكر أن شيخوخة الصابي اعتمدت على دعامتين من أكرم دعائم العطف، الدعامة الأولى هي مودة الصاحب بن عباد الرجل النبيل الذي ظلمناه بعض الظلم في كتاب النثر الفني، فقد كاد ابن عباد يتلطف في الصابي فيرسل إليه الهدايا المستورة مع الحجاج، والدعامة الثانية مودة الشريف الرضي، الفتى الفقير الذي يملك من صفاء الروح ما يؤنس الصابي فيرده إلى مرح الشباب.

ولكن حظ الصديقين كان يختلف أشد الاختلاف، فكل شمس تطلع تمد الشريف بقبس من الفتوة، وكل شمس تغرب تذكر الصابي بما ينتظر من الأفول.

وسياق الحوادث يشهد بأن ذلك الشيخ الذاوي هو الذي كان يجب عليه أن يتكلف المشقة ليزور ذلك الفتى الفينان، وقد تكلف ذلك الشيخ ما تكلف إلى أن أعجزه المرض عن عبور دجلة فكتب إلى صديقه الفتى يقول:  
أقعدتنا زمانة<sup>١</sup> وزمان جائر عن قضاء حق الشريف

(١) الزمانة: المرض المزمن.

ولئن ثقلا عن الخدمة الخطو  
فانتصرنا فيما نؤدي من الفر  
والفتى ذو الشباب يسط التقصير  
لعنَّ خاطر إليها خفيف  
ض<sup>٣</sup> على الكتب والرسول الحصيف  
عذر الشيخ العليل الضعيف

وقد أجاب الشريف على هذه الأبيات بقصيدة طويلة ابتدأها بجيد  
النسيب إذ يقول:

كم ذميل إليكم ووجيف<sup>٣</sup>  
وغرام بكم لو أن غراما  
وصدود عنا لكم وصدوف  
جرّ نفعاً للواجد المشغوف

فلما وصل إلى خطاب الصابي تلمظ فأشار إلى أنه نصيره على الزمان،  
وشبه وجهه بالدينار وكلامه بالنصول. ثم قال:

إن شكواك للزمان مبين  
قدمت غيرك الجود وأخر  
قصف الدهر فيك رمحا من الكي  
إن حرمت الرزق الذي نال منه  
عمل فاضح وأجمل من بع  
فاصطبر للخطوب رب اصطبار  
كم تحملتها بظهر من الصبر  
لم تغب عن سواد عيني وإن غب  
قرّ عينًا بطارقات الشكايا  
لي عن<sup>٣</sup> قسدر عقله المضعوف  
ت ولكن أناف غير منيف<sup>٣</sup>  
د وحامي عن المعيب المؤوف<sup>٣</sup>  
فدواء العيبي داء الحصيف  
ض الولايسات عطلة المصروف  
شق فجرًا من ليلهن المخوف  
فخفت والعبء غير خفيف  
ت معنى نوائب وصروف  
ما تجافت مطرقات الحنوف

(١) في الديوان: (العرض) بالعين المهملة وهو تحريف

(٢) الذميل والوجيف: من ضروب السير

(٣) في الديوان: (على)

(٤) أناف: رفع.

(٥) المؤوف: الذي لحقته آفة.

ومن هذه الأبيات تفهم أن الصابي كان يشكو علتين: علة الشيخوخة، وعلة الفقر الديقوع.

ثم اشتدت العلة بالصابي فكان لا يتقل من مكان إلى مكان إلا وهو محمول، فكتب إلى رفيقه الفتّي:

|  |  |
|--|--|
| إذا ما تعدت بي وسارت محفة <sup>(١)</sup>   | لها أرجل يسعى بها رجلان                |
| وما كنت من فرسانها غير أنها                | وفت لي لما خاننت القدمان               |
| نزلت إليها عن سرة حصان                     | بحكم مشيبي أو فراش حصان <sup>(٢)</sup> |
| فقد حملت مني ابن تسعين سالكا               | سيلا عليها يسلك الثقلان                |
| كما حمل المهدي الصبي وقبلها                | ذعرت ليوث الغيل بالبزوان               |
| ولي بعدها أخرى تسمى جنازة                  | جنيبة يوم للمنيبة داني                 |
| تسير على أقدام أربعة إلى                   | ديار السبلي معدودهن ثمان               |
| وإني على عي <sup>(٣)</sup> الردي في جوانبي | وما كف من خطري وبطش بناني              |
| لأعلم أني ميت عاق دفنه                     | ذماء قليل في غد هو فان <sup>(٤)</sup>  |
| وأن فما للأرض غرثان حاتم <sup>(٥)</sup>    | يراصد من أكلي حضور أو ان               |
| به شره عمّ الوري بفجائع                    | تركن فلا نانا كالأفقلان                |

وهي قصيدة مزعجة يضيق المقام عن سرد ما تشير إليه من الفجائع الإنسانية والمهم أن نشير إلى أن الصابي كشف في هذه القصيدة عن نفسه فرأيناه يرى الشريف الرضي هو الذخيرة التي يتركها لأبنائه يوم يموت، وهذا

(١) المحفة بالكسر: مركب كالهودج إلا أنها لا تقب.

(٢) الحصان بالكسر: الجواد، بالفتح المرأة العفيفة، والسرة الظهر.

(٣) في اليتيمة (غيث): بالعين المعجمة وهو تحريف.

(٤) الذماء بالفتح: بقية النفس.

(٥) غرثان: جائع.

أجل ما يمدح به صديقنا الشريف، طيب الله ثراه.

وقد انزعج الرضي لهذه القصيدة الباكية، وأجابه بقصيدة طويلة نختار منها هذه الأبيات الحسان.

|                                 |                            |
|---------------------------------|----------------------------|
| وما زال منك الرأي والحزم والحجا | فنأسى إذا ما زلت القدمان   |
| لو أن لي يوماً على الدهر إمرة   | وكانت لي العدو على الحدان  |
| خلعت على عطفك برد شبيتي         | جواذاً بعمري واقتبال زماني |
| وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي      | وإن فل من غربي وعض عناني   |
| ونابت طويلاً عنك في كل عارض     | بخطّ وخطو أخصي وبناني      |
| على أنه ما انفل من كان دونه     | حميم يرامي عن يد ولساني    |
| وإنك ما استرعت مني سوى فتى      | ضموم على رعي الأمانة حسان  |
| حفيظ إذا ما ضيع المرء قومه      | وفي إذا ما خون العضدان     |
| من الله أستهدي بقاءك أن ترى     | محلا لأسباب العلابمكان     |
| وأسأله أن لا تزال مخلصاً        | بملقى سماع بيننا وعيان     |
| إذا ما رعاك الله يوماً فقد قضى  | ما أرب قلبي كلها ورعاني    |

ثم لزم الصابي منزله وهو راغم بحكم الضعف والوهن، فكان آخر ما قال من الشعر قصيدة أرسلها إلى الشريف قبل أن يموت باثني عشر يوماً، وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بالأبيات الآتية:

|                                 |   |
|---------------------------------|---|
| أفئك الردى ليس القلى عنك مقعدي  | ولكن دهاني بالزمانة ذا الزمن              |
| وغادرنى خلف المضاجع راهناً      | على علة في الحال والنفس والبدن            |
| فإن تنأ منك الدار فالذكر ما نأى | وإن بان مني الشخص فالفكر لم يبـن          |
| وإن طال عهد الالتقاء فدونه      | عهدود عليها من رعائتنا جنن <sup>(١)</sup> |

(١) جمع جنة بالضم: وهي الوقاية.

وقد أجاب الشريف بقصيدة أطول وأمتع، نكتفي منها بالقطعة الآتية:

من مبلغ له أبا إسحاق مألكة  
 جرى الوداد له مني وإن بعدت  
 مسود قصب الأقلام نال بها  
 إن لم تكن تورده الأرماع موردها  
 والطاعن الطعنة النجلاء عن جلد  
 حار المجارون إذا جاروك في طلق  
 ضلوا وراءك حتى قال قائلهم  
 ما قد فضلك ما أصبحت ترزقه  
 قد كنت قبلك من دهري على حنق  
 كم رائنا وبرانا غير مكرث  
 إن يبدن قوم إلى داري فألقهم  
 فالمرء يسرح في الآفاق مضطرباً  
 والبعد عنك بلاني باستكانهم<sup>(١)</sup>  
 أن الكرى مؤنساً طرفي وبمضهم  
 كم من قريب يرى أني كلفت به  
 أشتقاكم ودواعي الشوق تنهضني  
 وأعرض الود أحياناً فيؤنسني

عن حنو قلب سليم السر والعلن<sup>(٢)</sup>  
 منا العلائق مجرى المياه في الغصن  
 نيل المحمر أطراف القنا اللدان  
 فما عدلت إلى الأقلام عن جبن  
 كالقائل القولة الغراء عن لسن<sup>(٣)</sup>  
 وأجفلوا عن طريق السابق الأرن<sup>(٤)</sup>  
 ما ذا الضلال وذا يجري على السنن  
 ليس الحظوظ على الأقدار والمهن  
 فزاد ما بك من غيظي على الأقدار والمهن  
 بما نعالج بري القدح بالسفن<sup>(٥)</sup>  
 وتنأ عني فأنت الروح في البدن  
 ونفسه أبداً تهفو إلى وطن  
 إن الغريب لمضطر إلى المسكن  
 مثل القذى مانع عيني من الوسن<sup>(٦)</sup>  
 يمسي شجاعي وتضحى دونه شجني  
 إليكم وعوادي الدهر تقعدني  
 وأذكر البعد أطواراً فيوحشني

(١) الحنو بالكسر والفتح: كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الحجاج والضلع.

(٢) يرد أن المجاهد بالقلم واللسان كالمجاهد بالرمح والسيف.

(٣) الأون: الجرح.

(٤) القدح بالكسر: السهم قبل أن يراش وينصل، والسفن بالتحريك كل ما ينحت به

الشيء.

(٥) الاستكان: افتعال السكن.

(٦) الوسن: النوم.

هذا ودجلة ما بيني وبينكم وجانب وجانب العبر غير الجانب الخشن“

وكانت هذه القصيدة آخر ما مر بسمع الصابي من الطيبات، فقد مات بعد قراءتها بأيام.

وقد رأيتم أن هذين الصديقين كانا يتقارضان الشكاية، فإن تجمل الصابي شكاه عنه الشريف، وإن شكاه الصابي واساه الشريف، وما ندري كيف استطاع الشريف أن يسكت على قول الصابي في وصف الزمان. وغادرنى خلف المضاجع راهناً على علة في الحال والنفس والبدن

ولكنني أرجوكم أن تتذكروا أن الرضي كان فقيراً وأن أملاك أبيه ظلت محجوبة عنه إلى ذلك الحين.

لم يبقَ أيها السادة إلا أن نحدثكم عما صنع الشريف بعد موت الصابي، وكل أديب يعرف أن الشريف رثا الصابي بقصيدة جيدة بلغت اثنين وثمانين بيتاً، وكل الذين ترجموا للصابي أو الرضي تحدثوا عن تلك المرثية الهائلة، وكان وجه الغرابة أن يبكي شاعر من عترة الرسول ﷺ رجلاً من الصابئين، وقد فصلت ذلك في كتاب النثر الفني، فلا أعود إليه الآن، ولكن الذي يجمله أكثر الأدباء أن الشريف لم يرث الصابي مرة واحدة، فقد ظل يتفجع عليه إلى آخر حياته، ورثاه بعد أن طال العهد بموته بقصيدتين هما آيتان من آيات الوفاء.

وأعيذكم أن تجهلوا هذا الجانب من نفس الشريف، فالشعراء في الأغلب يرثون أصدقاءهم يوم الموت، ثم يتناسونهم فينسوههم بعد حين، والوفاء في الدنيا قليل.

وتذكروا أن الصابي لم تكن له عصبية حتى نتهم الشريف بأنه يبحث عن

أنصار وأشياء، هيهات، فقد كان الصابون أقلية لا يحسب لها حساب، وكان محرماً عليهم أن يتساموا إلى مراتب الوزراء.

ونحن في الواقع نثق ثقة مطلقة بأمانة الشريف، ولكن البحث النفسي يوجب أن نعرض هذا الجانب، والمؤرخون لذلك العهد نظروا إلى مريثة الشريف نظرة استغراب، وهذا يؤكد أن الشريف لم يرعَ في مريثته غير معاني الوداد.

ويزيد في قيمة تلك المريثة أن الصابي لم يمت إلا وهو في فقر مدقع، ولم يرَ الموت إلا بعد أن تقطعت عنه أسباب المجد، وأقبلت الدنيا على خصومه الألداء.

فالشريف في رثاء الصابي رجل مفرد بين الرجال، وموقفه أقوى من موقف البحري في رثاء المتوكل، لأن البحري شهد فاجعة أليمة تنطق الجهاد، أما الصابي فيرثى صديقاً عديم الخول، وقد بلغ أرذل العمر ولم يمت إلا في الحادية والتسعين وهو على دين منبوذ تنكره الدولة وينكره الناس.

قد تقولون: إن الشريف لم يكن يملك غير ذلك وقد عرف الناس ما بينه وبين الصابي.

ونعترف بأن هذا النوع من الوفاء هو لون من الأثرة الذاتية، ولكن هذه الأثرة في ذاتها جوهر نبيل، وشرف البواعث ما تنصب له الموازين.

وكيف يتهم في صدقه من يقول:

أرأيت من حملوا على الأعواد

جبل هولوا خمر في البحر اغتدى

ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى

أرأيت كيف خبا ضياء النادي

من وقعته متابع الأزياد

أن الثرى يعلو على الأطواد

أقذى العيون وفتت في الأعضاء  
 إن القلوب له من الأمداد  
 تلك الفجاج وضل ذلك الهادي  
 وعدت على ذلك الجواد عوادي"  
 أبدي المنون ملكست أي قياد  
 بقضائه ما كان بالمتقاد

لمعان ذلك الكوكب الوقاد  
 متشابه الأجداد والأوغاد

في السرب كان ممزق الأغساد  
 لكن أراد الله غير مرادي  
 أسفاً عليك فلا لعمارقاد"  
 أنسى ومثلك معوز الميلاذ  
 والقلب بالسلوان غير جواد  
 وغسلت من عيني كل سواد  
 أن القلوب من الغليل صواد  
 لتقوم بعدك لي مقام الزاد  
 من بعد صولته على الأذواد"

بعداً ليومك في الزمان فإنه  
 لا ينفد الدمع الذي يُكى به  
 كيف انمحي ذلك الجناب وعظمت  
 طاحت بتلك المكرمات طوائح  
 قالوا أطاع وقيد في شطن الردى"  
 من مصعب لو لم يقده إله"

أعزز عليّ بأن يفارق ناظري  
 أعزز عليّ بأن أراك بمنزل

عمري لقد أغمدت منك مهناً  
 قد كنت أهوى أن أشاطرك الردى  
 ولقد كبا طرف الرقاد بناظري  
 ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياً  
 إن الدموع عليك غير بخيلة  
 سودت ما بين الفضاء وناظري  
 رمى الحدود مع المدامع شاهد  
 ما كنت أخشى أن تضن بلفظة  
 ما الذي منع الفيتق هديره"

(١) في الديوان: (أعادي) وما أثبتناه أنسب.

(٢) الشطن بالتحريك: الحبل الطويل.

(٣) المصعب: الفحل.

(٤) لا لعا به: عبارة قديمة تفيد الذم.

(٥) جمع زود، وهي الجماعة من الإبل، وهي كلمة تكثر في أشعار الشريف لكثرة ما

من بعد سبقته إلى الأماناد  
 وعدا على دمه وكان العادي  
 أن لا دوام لنسضة الأعواد"<sup>١</sup>  
 ومضت هواد للرجال هواد"<sup>٢</sup>  
 كم قنية جلبت أسى لفؤادي  
 مما يجرح حرارة الأكياد  
 نقصوا به عددًا من الأعداد  
 رجل الرجال وأوحد الآحاد  
 فلمثلسه أعياء على المرتباد"<sup>٣</sup>  
 وبقيت بين تباين الأضداد  
 أبدًا ولا ماء الحيا ببراد"<sup>٤</sup>  
 شرفي مناسبه ولا ميلادي"<sup>٥</sup>  
 فلأنت أعقلهم يندًا بودادي  
 شرف الجدود بسؤدد الأجداد"<sup>٦</sup>  
 في باطن متغييب أو باد

ما الذي حبس الجواد عن المدى  
 ماذا الذي فجع الهام بوثبة  
 يقضي لسانك مسذ ذوات ثمراته  
 لقيت أعيجاز يضل تبعها  
 يا ليت أني ما اقتنيتك صاحبًا  
 برد القلوب لمن تحب بقاءه  
 ويقول من لم يدر كنهك أنهم  
 هيهات أدرج بين برديك السردى  
 لا تطلبي يا نفس خلاً بعده  
 فقدت ملاءمة الشكول بفقده  
 ما مطعم النديا بحلو بعده  
 الفضل ناسب بيننا إن لم يكن  
 إن لم تكن من أسرتي وعشيرتي  
 إن لم يكن وافي الأصول فقد وفي  
 لا در دري إن مظلمتك ذممة

يصطنع من الأخيلا البدوية.

(١) الفئيق: الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب.

(٢) اللام في كلمة (لقضى): مفتوحة وهي لتوكيد المعنى.

(٣) أعيجاز: تصغير إعجاز. وجمع القلة يصغر على لفظه، والتببع: التابع، والهوادي جمع

الهادي وهو العنق، وفي البيت جناس.

(٤) اللام في كلمة (فمثلته) تنطق بالفتح وهي أيضًا لتوكيد المعنى.

(٥) الحيا: المطر، والبراد: البارد.

(٦) هذا المعنى ورد في أشعار كثيرة قبل الرضي، وقد حللناه في كتاب الشر الفني ج ٢ ص

١٧، ١٨.

(٧) الجدود: الحظوظ المكسوبة، يريد أنه عصامي بنى مجده بيديه.

حيًا إذن ما كنت بالمزاد  
 أبدًا وليس زماننا بمعاد  
 وتركت أضييقها عليّ بلادي  
 ومن الدموع روائح وغمود  
 جسمي يسأل عليك في الأبراد  
 باقٍ بكل خائل ونجاد  
 إن النايًا غايّة الأبعاد  
 مغرى بطيٍّ محاسن الأجماد  
 عبث السبلي بأنامل الأجواد  
 من رائح متعمرس أو غداد  
 وقفت عليه مطالب السرواد

إن الوفاء كما اقترحت فلو تكن  
 ليس التنافث بيننا بمعاود  
 ضاقت عليّ الأرض بمدك كلها  
 لك في الحشا قبر وإن لم تأوه  
 سلوا من الأبرار جسمك وانثنى  
 فاذهب كما ذهب الربيع وأثره  
 لا تبعدن وأين قريبك بعدها  
 صفح الثرى عن حر وجهك إنه  
 وتماسكت تلك البنان فظالما  
 وسقاك فضلك إنسه أروى حيا  
 جدت على أن لا نبات بأرضه

وقد اجتاز الشريف على قبر الصابي بعد موته بأعوام فهاجته الذكرى

فقال:

أقمنا به نعي الندى والمعالي  
 كما استشرف الروض الطيباء الجوازي  
 من الدمع أو شال ملأن الأماقيا  
 نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا  
 عن الوجد إقلاغا عذرنا البواكيا  
 أريكم به فرعًا من المجد ذاويا  
 إذا لم نجد عقرا عقرنا القوافيا

يعلم قبر بالجنينة أننا  
 مررنا به فاستشرفتنا رسومه  
 أو ما لاح ذاك الترب حتى تجلبت  
 نزلنا إليه عن ظهور جياننا  
 ولما تجاهشنا البكاء ولم نطق  
 قول لركب رائحين تعرّجوا  
 ألموا عليه عاقرين فإننا

(١) التنافث: التناجي.

(٢) المتعمرس: الذي ينزل بالليل.

(٣) الجنينة مقبرة كانت في بغداد

(٤) الأوشال: جمع وشل بالتحريك، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.

وجزوا رقابًا بالظبا لا نواصيا  
تكون على سوم الغرام غواليبا  
قضيًا على هام النوائب ماضيًا<sup>(١)</sup>  
هلالًا على ضوء المطالع باقيا  
نواضب ماء أم بواق كما هيا  
لو أني استعديته كان عاديًا<sup>(٢)</sup>

ولو أنصفوا شقوا عليه ضائرًا  
وقفنا فأرخصنا الدموع وربما  
ألا أيها القبر الذي ضم لحده  
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا  
وتلك البنان المورقات من الندى  
وما كنت أبى طول لبث بقبره

وأصبح تمرره النوائب واديبا  
ضائرنا أيامها واللياليبا<sup>(٣)</sup>  
ومن ذا الذي يغدو بما ساء راضيبا  
ولو أجد الأعوان أصبحت عاصيبا  
فألقي على ظهري وجرّ زماميبا  
لأن المرائي لا تسدُّ المرازيبا  
عليك ولكنني أمني الأمانيبا

خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه  
أراحت علينا ثلة الوجد ترعمي  
رضيت بحكم الدهر فيك ضرورة  
وطاوعت من رام انتزاعك من يدي  
وظامننت كيما يعبر الخطب جانبي  
رثيتك كي أسلوك فازددت لوعة  
وأعلم أن ليس البكاء بنافع

وفي سنة ٣٩٣ أي بعد موت الصابي بنحو تسع سنين مر الشريف على قبره

فقال:

حييت قبرك يسا أبا إسحاق  
قلق الضمير إليك بالأشواق  
يحلّو على متأمل ومذاق  
خطف الوميض بعارض مبراق

لولا يذم الركب عندك موقفي  
كيف اشتياقك مذ نأيت إلى أخ  
هل تذكر الزمن الأنيق وعيشنا  
وليالي الصبوات وهي قصائر

(١) القضيبة: هنا السيف.

(٢) استعديته: استنصرته.

(٣) الثلة بالضم: الجماعة الكثيرة من الغنم، وفي البيت تخيل.

لا بَدَّ للقرناء " أن يتزايلاوا  
 أمضي وتعطفني إليك نوازعُ  
 وأذود عن عيني الدموع ولو خلت  
 ولو أن في طرفي قذاة من ثرى  
 إن تمضٍ فالمجد المرجب خالد "

يومًا بغدر قلى وعذر فراق  
 بتنفس كتنفس العشاق  
 لجرت عليك بوابل غيداق "  
 وأراك ما قذبتها من ماقى "  
 أو تفننَ فالكلم العظام بواقى "

إلى آخر القصيدة:

وكنت أشرت في كتاب (النثر الفني) إلى أن رسائل الصابي لا تصلح لغير أهل عصره فهي غير حليلة بالبقاء، وفاتني أن أقول أن الشريف كتب اسم الصابي على جبهة الزمان بأصباغ لا تجففها الشمس ولا يمحوها هواء.

(١) في الديوان: (القرباء) بالباء وهو تحريف.

(٢) غيداق: كثير الانسكاب.

(٣) هذا بيت نفيس، ومعناه أن القذى لو دخل عينه وكان ترابًا في قبر الصابي لما رضي أن يخرج ذلك القذى من عينه.

(٤) المرجب: المعظم.

## غرائب الوفاء عند الشرف الرضى

أبها السادة:

أشرنا قبلاً إلى رجل من أصدقاء الشرف يقال له ابن لىلى، وهو رجل لم تتحدث عنه كتب التاريخ، وإنما نعرف أن اسمه عمرو، لقول الشرف وهو يرثيه:

وأبن فارس الفرسان عمرو إذا رزء من الحدثن فاجا

ونعرف أن كنيته أبو العوام من قول الشرف:

أبن أبو العوام للعواصي يروضها والخيل والدلاص

والمفهوم أن ابن لىلى كان رجلاً عربياً من سادة البوادي، والمظنون أنه كان داعية للشرف، وتشهد أشعار الرضى أن بني تميم هم الذين قتلوا ذلك الصديق.

تلك هي ترجمة ابن لىلى، فهل كان يستحق أن يبكيه الشرف بأربع قصائد، وأن يجعله في قصيدة خامسة مثلاً أعلى لأشراف الرجال.

إن ابن لىلى رجل صغير القدر عند من تستهويهم عنعنات التواريخ، فلو كان لهذا الرجل شأن لأفاض في أخباره المؤرخون، ولكننا نرى ابن لىلى رجلاً عظيماً جداً؛ لأنه ذكر بالحمد والثناء في أثر أعظم من كتب التواريخ وهو ديوان الشرف.

والحق أن شخصية ابن لىلى تعطينا صورة من صور الرضى، أو هي تدلنا على بعض مذاهبه في الحياة، ومن الواجب أن ننص بصراحة على صفة أساسية

من صفات الشريف هي الفروسية، فقد كان الشريف الرضي فارسًا، وكان أبوه فارسًا، وكان أقطاب أسرته من الفرسان؛ وأبطال الفروسية لهم شمائل الأعراب، فليس من المستغرب أن يكون للشريف صديق بدوي يحبه أصدق الحب ويبكيه حين يموت بالقصائد الباقيات.

أضيفوا إلى هذا أن الشريف كان ورث عن أبيه صداقات كثيرة، صداقات بدوية أسسها في غدوه ورواحه بين العراق والحجاز، وكان الشريف وأبوه قد عرفا أقطاب البوادي وشياطين الصحراء وهما يحجان، وقد حجًا مرات كثيرة بفضل المنصب الموروث -منصب إمارة الحج- ومن هنا جاز أن يقال أن ابن ليلي كان داعية للشريف، فليس من المستبعد أن يكون الشريف فكر في تكوين عصبية عربية يناهض بها خلافة بني العباس حين تسمح الظروف، وكان ابن ليلي من الذين اصطفاهم لتحقيق ذلك الغرض المرموق، ولكن ستظل هذه القضية ظنونًا في ظنون إلى أن يظهر ما يحققها من شواهد التاريخ.

والمهم أن نقرر أن الشريف تفجّع على ابن ليلي أعظم تفجّع، وشهدت أشعاره بأنه كان يرى ذلك الرجل من كرام الأصفياء، والواقع أن البوادي فيها كنوز من الشهامة والفتوة والمروءة، وهي عالم مجهول ولكنه موجود، وكان من حظ الشريف أن يعرف ما في ذلك العالم من شمائل وخصال.

لا نعرف بالضبط متى مات ابن ليلي، ولكن الأرجح عندنا أن أقدم قصائد الشريف في رثائه هي القصيدة التي نظمها في مطلع سنة ٣٩٣ والظاهر أن ابن ليلي قتل في ذلك الحين، فإن الشريف يقول:

تعيف الطير فأبناؤه أن ابن ليلي علقتة علوق<sup>١</sup>

(١) العلوق بفتح العين وضم اللام: المنية

(٢) تعيف الطير وعافها: زجرها، وهو أن يعتبر بأسائها ومسارها وأنوائها، فيتسعد أو يتشأم.

وَأَنْ سَجَلًا مَنْ دَمَ آمِنٌ أَفْرَغَهُ الطَّعْنَ بُوَادِي الْعَتِيقِ

وهي قصيدة بدوية النسخ تشهد بأن الشريف أراد أن يلائم بين سمات  
المبكي وسمات الأسلوب، وفيها يقول:

بَعْدًا لِأَرْمَاحِ تَمِيمٍ لَقَدْ هَدَدْنِ عَادِيَّ بِنَاءِ عَتِيقِ  
قَرَعْنِ فِي أَصْلِ كَرِيمِ الثَّرَى وَجَلْنِ فِي فَرْعِ عَزِيزِ الْعُرُوقِ  
حَدِّدُوا لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَتَّقَى عَيْرًا مِنَ الطَّعْنِ مَلَاءِ الْوَسُوقِ  
مَا كَانَ بِالرَّاجِعِ عَنْ نَهْجِهِ لَوْ وَقَفَ السَّيْفُ لَهُ فِي الْمَضِيقِ

وفيها توجع الشريف أشد توجع إذ يقول:

كَانَ هَوَى لِنَفْسِ لَوْ أَنَّنِي فِي حَلَقِ الْقَدِّ وَأَنْتِ الطَّلِيقِ  
مَا كُنْتِ بِالْهَائِبِ طَرَقِ الرَّدَى مَا سَلِمَ الْعَضْبِ وَأَنْتِ الرِّفِيقِ  
مَا أَنَا بِاللَّاقِي بِذَاتِ النِّقَا خَيْلٍ وَغَى مَشْعَلَةَ بِالْعَتِيقِ  
مَا طَلَّهَا الْمَاءُ فَلَمَّا سَلَّتْ عَنِ الرُّوَى مَا طَلَّهَا بِسَالِغِيقِ  
وَلَى ابْنِ لَيْلَى عَارِضًا رَمَحَهُ يَحْدُو بِخَفَانِ جِهَالًا وَنُوقِ  
يَأْبَى إِذَا الضَّمِيمِ غَدَا مَضْغَةً سَلْسَالَةَ سَائِغَةَ فِي الْخَلِيسُوقِ  
يَرُوحُ مِنْ يَرْجُو لَهُ غَرَّةٌ قَدْ خَضَّخَضَّ السَّجَلِ بِجَالِي عَمِيقِ  
اسْتَبْدَلَ الْحَيَّ بِعَقْبَانِهِ أَغْرَبَةَ بِعَسْدِكَ حَمَقِ النِّعِيقِ

(١) الوسوق: جمع وسق: وهو ستون صاعًا أو حمل بعير.

(٢) القد بالكسر: القيد.

(٣) العضب: السيف.

(٤) العتيق: على وزن أمير: شدة الجري.

(٥) خفان: اسم موضع.

(٦) الجال: البثر.

(٧) جمع عقاب بالضم.

خاطرت الشول بأذناهما  
 ما الحي بالضحك عن مثله  
 لا أغفلت قبرك حنانة  
 ولا أغيب الأرض تمسي بها  
 لما انطوى قرقار ذاك الفنيق  
 ولا وجوه الحي مذ غاب روق  
 خرقاء بالقطر صناع البروق  
 ظل صفيق ونسيم رقيق

وهناك قصيدة أخرى سلكت هذا المسلك الوعر، أرق ما فيها قوله:  
 يا قبر بين القور الدعاص  
 قناد ابن ليلى قائد المعتاص  
 ما أثقل اليأس على الحراس  
 قد ينزل العالي من الصياصي<sup>(١)</sup>  
 ضُمَّ على لؤلؤة الغواص  
 كان سياغي فغدا اغتصاصي  
 هل لجروح الدهر من قصاص  
 وقد يطيع الرأس وهو عاصي

ولكن الشريف سيترك هذه الوعورة ويكي ابن ليلى بالشعر السمح، كأن يقول:

أداري المقتسين عن ابن ليلى  
 لها ثبط على الأيام باق<sup>(٢)</sup>  
 كأنها ركيعة<sup>(٣)</sup> مستميج<sup>(٤)</sup>  
 وبأبي دمعها إلا لجاجا  
 تجيش به معينا أو أجاجا  
 يخضخضها بكورا وادلاجا

(١) القرقار: الهدير، والفنيق: الفحل.

(٢) الشول بالفتح: النوق تشول بذنيها اللقاح.

(٣) روق بضم الراء: حسان.

(٤) الحنانة: السحابة الماطرة.

(٥) القور بضم القاف: جمع القارة وهي الجبيل المنقطع عن الجبال أو الصخرة العظيمة أو الأرض ذات الحجارة السود، والدعاص: جمع دعص بالكسر وهو قطعة من الرمل.

(٦) الصياصي: جمع صيصة بالكسر وهي الحصن.

(٧) الثبط: هو من قولهم أثبطه المرض لم يكد يفارقه.

(٨) الركيعة: البثر.

(٩) المستميج: الذي يستخرج الماء، وفي الديوان (مستमित).

أذود النفس عنه وذاك منها  
 كأن العين بعد اليوم جرح  
 تجم على القذى وتفويض دمعا  
 وأين كفارس الفرسان عمرو  
 بحق كان أولهم ولو جفا  
 إذا رسبت حصة القلب منه  
 عنان ما ملكت له معاجا  
 إذا طبوا له غلب العلاجا  
 مطال الداء وادع ثم هاجا  
 إذا رزء من الحسدان فاجا  
 على هول وآخرهم خراجا  
 طفا قلب الجبان به انزعاجا

وهو يحدثنا أن ذلك الرجل كانت إليه قيادة العرب إذ يقول:

فمن يزع العريب" إذا تناغت  
 ويذكرها الخلوم على تناس  
 بمحاججا" عن الأرحام حتى  
 ويضرب بين غاربهما سياجا  
 وقد بلغت حفاظها الهياجا  
 يقر القوم أن له المحاججا

ثم يختم القصيدة بأقباس الالتياح فيقول:

أقاض حقك ذو غرام  
 يريق عليك ماء القلب صرفا  
 ولو بلغ المنى إنسان عيني  
 أعاج الركب عن طرب وعاجا  
 وماء العين يجعله مزاجا  
 خلا منها وأسكنك المحاججا"

وما زال الشريف يبدئ ويعيد في التفجع على ابن ليلي حتى ذهب الحزن به

كل مذهب فخلد ذكره بقصيدة قليلة الأمثال؛ إذ يقول:

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلي  
 وإن قنا العمد ليردن منه  
 كأن الرمح يصدر منه عدوا  
 لقد عكفت على لحم كريم  
 دما لم يجرف في عرق لشيم  
 عن الأجمى ذي اللبد الكلیم"

(١) العريب: مصغر عرب.

(٢) محاججا: محاجها، بك الإضغام وهو الأصل، وهو يكثر في شعر الشريف.

(٣) الحجاج بالفتح ويكسر: عظم يثبت عليه الحجاب.

(٤) الأجمى: ساكن الأجم وهو الليث، واللبد: جمع لبدة وهو شعر كاهل الأسد.

وأقسم إن ثوبك يا ابن ليل  
 رزئتك كالوذيلة لم تمتع  
 تنام وتترك الأضغان يقظي  
 إذا نزعوا الملابس أذكرتهم  
 ومن مطل الديون أعد صبراً  
 تداعت لي بمصرعه الليالي  
 وتقرع القوراع في جنائي  
 أجزع أن حطم من حجاز أنفي  
 ومالي لا أراع وقد رمتسي  
 أحنُّ إليه واللقيا ضاراً<sup>(١)</sup>  
 وأنشده وأعلم أين أمسي  
 كأدماء القمرا نشدت طلاها<sup>(٢)</sup>  
 تطيع اليأس ثم تعود وجداً

لمجموع على عرض سليم  
 بها بعد الوجود يد العديم<sup>(٣)</sup>  
 خماشات الذوابل في تميم<sup>(٤)</sup>  
 ذحول يديه آثار الكلوم  
 على عنق المطالب والغريم  
 وأوعبت النوائب في أديمي  
 قراع النبل في الغرض الرجيم<sup>(٥)</sup>  
 وهن يقصن أعناق القروم<sup>(٦)</sup>  
 يد الجلي بقارعة التميمي  
 حنين العود للوطن القديم<sup>(٧)</sup>  
 مطالاً للبلابل والهموم  
 وما وجدان جازية بغوم<sup>(٨)</sup>  
 إليه بالمقصة والشميم<sup>(٩)</sup>

## والكليم: الجريح

- (١) الوذيلة على وزن سفينة: المرأة والقطعة المجلوة من الفضة.
- (٢) الخماشات: جمع خماشة بالضم وهو: ما ليس له أرش معلوم من الجراحات.
- (٣) تقرع: تقتل، والغرض الرجيم: الهدف المنصوب.
- (٤) يقصن: من الوقص وهو الكسر.
- (٥) العود بفتح العين: الجمل.
- (٦) الضمار على وزن كتاب: هو ما لا يرجى رجوعه من المال.
- (٧) الجازية: الطيبة يميزها العشب، والبعوم الرخيمة الصوت.
- (٨) القرا: الظهر، والأدماء: ما في لونها من أدمة، وهي في الطباء لون مشرب بياضاً.

(٩) المقصة: من قص الأثر إذا تبعه، والشميم: شم الأرض لتعرف الطريق الذي مشى فيه المفقود.

يعارضني بذكرك كل شيء      عداد الداء غبَّ على السليم  
أجدك هل ترى بعد ابن ليلي      طعناً بين رامة والغميم  
أرجو للحواضن كابن ليلي؟      أحلت إذن على بطن عقيم

وكان الشريف يذكر ابن ليلي كلما ضجر في أسفاره، فكأنه كان يراه ملك  
البيداء.

أيها السادة:

ليس الذي يهمني في هذا المقام هو النص على وفاء الشريف، وإنما الذي  
يهمني هو تعليل ذلك الوفاء، فالشاعرية التي كانت تتفجر في صدر الشريف  
هي التي جعلت الدنيا أمام عينيه منادح للأطراب والأشجان، فإذا كان من  
الشعراء من يتكلف أسباب الحنين فيتفجع لغروب الشمس، أو يتوجع  
لسقوط الأوراق في الخريف، فإن الرضي يجد من نوائبه الوجدانية ينبوع  
للحزن لا تنضب ولا تغيض.

والحزن أيها السادة طيف أسود، ولكنه محبوب، والشعراء هم الذين  
جعلوا وصف الحزن من الشرائع الإنسانية، والحزن لا يكون دائماً صفة سلبية  
كما يتوهم بعض الناس، فهو حين يسمو يكون دليلاً على عافية القلب وسلامة  
الروح، ولا يحزن حق الحزن إلا الأصحاء.

إن الحزن العنيف هو الشاهد على قوة شعورنا بما نفقد، وهو الدليل على  
أننا نحاول العظام فنطلب الخلود لكل ما تصطفي أرواحنا في عالم المحسوس  
والمعقول.

وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت، لا، وإنما

(١) العداد بالكسر: احتياج وجع اللديغ بعد ستة، والسليم: الملدوغ، سمي بذلك  
تفاؤلاً، وغب الداء: تحرك وهاج.

كان يصل أحبابه بالذكرى والحنين، فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس، فطريق الحج على طوله في تلك العهود كان يمثل للشريف أمماً كثيرة من عوالم الأحياء والأموات، ولعل ظهور الخيل لم تعرف فتى أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء، والفرح والترح يفيضان من ينبوع واحد، لو تعلمون.

ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن يبكي موتاهم فيجيب: والشجى يبعث الشجى، والدنيا عند الحزين كلها قبر مالك<sup>(١)</sup>.

أليس من العجيب أن يسأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول:

|  |  |
|--|--|
| ألا مخبر فيما يقول جلية                | يزيل بها الشك المريب يقين              |
| أسائله عن غائب كيف حاله                | ومن نزل الغبراء كيف يكون               |
| وما كنت أخشى من زماني أنني             | أرق على ضرائفه وألمين                  |
| إلى أن رماني بالتي لا تسوى لها         | فأعقب من بعد الرنين أنين               |
| وإن أحق المجهشيين بعبرة <sup>(٢)</sup> | ووجد قرين بان عنه قرين                 |
| وما تنفع المرء الشمال وحيدة            | إذا فارقتها بالمتون يمسين              |
| تجرم عام لم أنل منك نظرة               | وحان ولم يقدر لقاءك حين <sup>(٣)</sup> |
| أمر بقبر قد طواك جديده                 | فألس حتى ما أكساد أبير <sup>(٤)</sup>  |
| وتنفض بالوجد الأليم أضلع               | وترفض بالدمع الغزير شؤون               |

ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالتائحة المستأجرة، وهل كانت التائحة المستأجرة تعني حقاً ما دعيت للبكاء عليه؟ إنها تبكي

(١) إشارة إلى أبيات متمم بن نويرة.

(٢) في الديوان: (لعبرة).

(٣) تجرم: مضى.

(٤) أبلس يبلس: سكت على ما في نفسه.

ودائعها في التراب فهي نائحة تكلى مفطوزة الفؤاد.

ويظهر جانب المروءة من وفاء الشريف حين نتذكر بعض المواقف التي تجلت فيها شجاعته، فقد اتفق لرجل من عظماء بغداد أن يتألب الجمهور عليه لبعض الأسباب، وكان لذلك الرجل كثير من الأصدقاء والأشياء، فلما مات خاف أصدقاؤه وأشياعه عواقب التفجع عليه فلم يمش في جنازته غير ثلاثة منهم الشريف وفي هذا الحادث البشع يقول:

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| لمعري لقد ماطلت لو دفع الردى   | مطال وقد عاتبت لو سمع الدهر    |
| أق كل يوم أنت غاد مشيع         | حييًّا إلى دار يقال لها القبر  |
| لئن كان لي في كل ما أنا تارك   | وراء الثرى أجر لقد عظم الأجر   |
| سقيت أبا بكر على البعد والنوى  | ولا بل هام الشامتين بك القطر   |
| أخي ما أقل التابعيك إلى الثرى  | وإخوانك الأذنون من قبلها كثر   |
| لقد كانت النكراء منك خليفة     | ولا عرف حتى يتقى قبله النكر    |
| ألا إنما الماضون منا هم الأولي | أراحو وحطوا والبواقي هم السفر  |
| تبعه أبصارنا وهو ذاهب          | كما مال القرن الشمس أوجب البدر |
| عليك سلام الله فات بك الردى    | ولم يبق عين للقاء ولا أثر      |

ومن هذا الباب جزع الشريف على أصدقاء لم ترفعهم مواهبهم ولا مقاماتهم لمرتبة النص على أسمائهم في الديوان، وهم أناس كانوا في صدر الشريف معارف وكانوا في زمانهم نكرات، وهؤلاء الأصدقاء المجهولون لا يعرف أقدارهم غير الشعراء، وهل من العدل أن يغلق باب الصدقة فلا يُفتح إلا لمن ظفروا بالشهرة وبعد الصبوت؟ أليس من حق الشاعر أن يقول: إن أخلص من ودَّعوني يوم الفرق هو كلبي!

ما هذه الخطرسة التي نعتصم بها فلا نهب معاني المودة لغير المشهورين؟ وهل كان المشهورون أصدق من نعرف حتى نقف عليهم لواعج الشوق والحين؟

كم رجل خامل لذكرٍ، صغير الشأن، يقبل عليك بنفس تَوَاقَة وقلب حنان!

كم امرأة أمية لا تعرف غير شئون البيت، ثم تمد زوجها بأرواح من القوة والفتوة لا تقدر على مثلها المتخرجات في السوربون!

إن الصداقة لها منابع غير منابع العرقان، والرجل العالم لا يصادق إلا حين يرجع إلى الفطرة الأولى، فطرة الإنسان الحساس.

فلا تلوموا الشريف إن رأيتموه يرثي أناسًا لم يسمح مقامه الاجتماعي بذكر أسمائهم في الديوان، فتلك وثبة فطرية لا تصدر إلا عن كرام الرجال.

وإن وقفات كهذه لأشرف من وقفاته وهو يرثي رجلًا من بني أمية أو رجلًا من بني العباس، لأن في بكاء العادلين من الخصوم لونا من الأثرة وحب الإعلان، أما بكاء المغمورين المجهولين فهو فيض من الطبع الصادق والإحساس الأمين.

ومثل الشريف في هذا الباب مثل الفنان الذي ينحت التماثيل، فهو دائما يوهم الجمهور أنه يصنع تماثلاً لامرأة مجهولة أو رجل مجهول، هو يخدع الناس حين يوهمهم أنه لا يهتم بغير تمثيل المعني، ولو أبيع له أن يفصح لقال إنه لا ينظر إلى النموذج، وإنما يستوحي صورة هي بعض ما في ضميره من دفائن الكنوز.

وقد اهتديت إلى هذا المعنى لطول ما عاشرت المثَّالين، فقد صحبت الميسو بلانشو وهو يضع تمثال العارية، وصح عندي أن في التمثال شمائل لم تكن في النموذج، فأدركت أن المثَّال يستعين النموذج على تذكر ما كان فُتِنَ به في عالم العيان.

فالشريف يجسم معاني الأخوة وهو يبكي أصدقاءه المجهولين، وهو أيضًا يشرع للناس مذاهب الوفاء، وللشعر في صدر ذلك الرجل جوهر لا يملك مثله إلا من اصطفاهم الله للتعبير عن حقائق الوجود.

أيها السادة:

إنكم في غنى عن التذكير بما في آداب المجتمع من أوهام وأغاليط فلا تضيق صدوركم حين يطوي الشريف أسماء فريق من الذين سكب على قبورهم شآبيب الدمع السخين، وإنما أرجوكم أن تتمثلوا ديوان شعره شبيها بمصانع الرسامين والنحاتين في القديم والحديث، فليس يعلم إلا الله من الذين يعينهم فنان مثل أحمد راسم أو فنان مثل محمود سعيد، كما لا يعلم إلا الله من الذين كان يعينهم البحري وهو يفتتح قصائد المديح بالنسيب.

إن الشاعر كالغابة الشجراء، لا يعرف مجاهلها غير الأيقاظ من الأدلاء، وقد دلتكم على قلب الشاعر الذي اسمه الشريف؛ لأنه أقدم صديق عرفته في بغداد، وإني لأرجو أن يعذرنى حين يراني نمت عليه، فما أذكر أننا تعاهدنا على كتفان هذه الأحاسيس.

وإليكم شواهد من شعره في بكاء المغمورين، قال من قصيدة:

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| مالي أودع كل يوم ظاعنًا   | لو كنت أمل للوداع لقاء    |
| وأروح أذكر ما أكون لعهدده | فكأنني استودعته الأحشاء   |
| فرغت يدي منه وقد رجعت به  | أيدي النوائب والخطوب ملاء |

داء يمرض فلا أدوي الداء  
جررتهم فتكلمت بهم أحياء  
فرقتهم فدفتهم أعضاء

أحبابي الأذنين كم ألقى بكم  
أحيا أحكام الممات وغيركم  
إلا يكن جسدي أصيب فيأني

وقال في قصيدة ثانية:

مضى غير رعديد الجنان ولا نكس  
عليك ورد الضوء من مطلع الشمس  
فليس يلاقيني ليومك ما يُنسي

أقول وقد قالوا مضى لسبيله  
كأن حداد الليل زاد سواده  
أرى كل رزء دون رزئك قدره

وقال قصيدة ثالثة، وهي في رجل كان له شخصية، ولا نعرف السبب في

طبي اسمه عن الناس:

ومثل يومك لم يخطر على بالي  
قوارع ممن جوى هم ويلبال  
بعد الغلو إليها يرجع الغالي  
ما ينقصان على الأيام من حالي  
من الرجال فيا بعدًا لآمالي  
منه يدي زاد طول الوجد أشغالي  
ورحت أسحب عنه فضل أذيالي  
أو أنزع الصبر والسلوان من بالي

ما بعد يومك ما يسلو به السالي  
وكيف يسلو فؤاد ناهض جانبه  
يا قلب صبرًا فإن الصبر منزلة  
نقص الجديدين من عمري يزيد على  
مضى الذي كنت في الأيام آمله  
قد كان شغلي من الدنيا فمد فرغت  
تركته لذبول الريح مدرجة  
ما بالي اليوم لم ألق به كمدًا

أيها السادة:

هناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء، وهذا أغرب  
الجوانب، وهو يحتاج إلى تأمل ودرس، ولا نعرف بالضبط كيف نشأ هذا  
الإحساس عند الشريف، فقد كان المألوف في التقاليد العربية أن لا يُبكي من

النساء غير المعشوقات، وبكاء الأمهات والحلائل باب من النبل ولكنه في شعر العرب قليل، فقد لا يساوي واحداً من خمسين إذا أحصينا ما قيل في الرثاء، فكيف اتفق للشريف الرضي أن يكثر من تعزية الناس في أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندي غير تعليل واحد، هو أن الشريف الرضي كان (ابن أمه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يغضبون لأمهاتهم من الأطفال.

ونحن نعرف أن أيام البؤس في حياة الشريف مضت وهو في رعاية أمه الرءوم التي باعت أملاكها وحليها لتقيه وتقي أخاه ذل العوز والاحتياج.

والأم الرءوم لم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية، ويندر بين كتاب العرب من يقول حدثني أمي وأبأتني أختي وأخبرتني حليلتي، وإن كان في شعرائهم من يقبل النعال في أقدام الملاح.

وما أريد أن أطيل القول فيما أثر عن العرب والهنود من بغض البنات، فذلك معروف، وإنما أريد أن أقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات الشريف، وأنا أجزم بأنه كان يرى المرأة في صورة أمه، تلك الأم التي وقته مكاره الحياة في السنين العجاف يوم أودع أبوه غياهب الاعتقال.

والحق أن اللغة العربية كانت تحتاج إلى من يمجدون الأمهات والأخوات والبنات على نحو ما وقع في اللغات الأجنبية، فإن في المرأة عناصر من العطف والتضحية لا يدركها إلا ذوو الألباب، وصاحبنا الشريف قد وُفق في هذه الناحية كل التوفيق.

ورثاء الشريف لأمه يشهد بأنه كان يفهم قيمة هذا المذهب النبيل، فهو

يجعل موتها باباً لشهامة الأعداء إذ يقول:

كم عبرة موهتها بأنامي      وسترتها منجملاً بردائي  
أبدي التجلد للعدو ولو درى      بنملمي لقد اشفتى أعدائي

والتصريح بأن موت الأم باب إلى الشهامة هو أعظم تمجيد لكرائم النساء.

وهو يصرح بأن أمه كانت تقيه النوائب، وتنفق عليه وتواسيه، فيقول:  
فبأي كف أستجنُّ وأتقي      ومن الممول لي إذا ضاقت يدي"  
ومن المملول لي من الأدواء"  
ومن السذي إن ساورتني نكبة      كان المرقى لي من الأسواء"  
رزتان يزدادان طول تجدد      أبرد الزمان فناؤها وبقائي  
قد كنت أمل أن يكون أمامها      يومي وتشفق أن تكون ورائي

إلى أن يقول:

لو كان يبلغك الصفيح رسائلي"  
لسمعت طول تأوهي وتفجعي      أو كان يسمعك التراب ندائي  
كان ارتكاضي في حشاك مسيباً      وعلمت حسن رعايتي ووفائي  
ركض الغليل عليك في أحشائي

وهذا البيت يتضمن صورة حسية لا يصرح بها إلا شاعر يفهم الحقائق، فهو يرى حياته في بطن أمه ديناً واجب الأداء، وكذلك صح لهذا الشاعر الإنساني أن يعزي بعض الناس في بنت ماتت بعد بنت فيقول من قصيد طويل:

- (١) الأدواء: جمع داء.
- (٢) الممول: واهب المال.
- (٣) الأسواء: جمع سوء وهو الردى.
- (٤) الصفيح هنا: هو القبر وجمعه صفائح.

هذا العزاء وإن تحزن فلا عجب إن البكاء بقدر الحادث الجلل<sup>١</sup>

ولكن ما بالننا نحصر أسباب هذه العاطفة فيما تلقاه الشريف عن أمه الرءوم؟ ما الذي يمنع افتراض أن تكون هذه المعاني أُوحيَت إليه من التعرف إلى كرائم النساء؟ ما الذي يمنع من التصريح بأن أشراف الرجال لا تخلو حيواتهم من مودات شريفة نبيلة يضمرونها لبعض العقائل المصونات؟ ما الذي يمنع من القول بأن في بعض الأجنبيةات نفحات من الرفق نتسم بها أرواح الفردوس؟

وهل قضى علينا سوء الطالع أن لا تكون صلاتنا بالنساء إلا شبهات محوطها شبهات؟

إن تلك المعاني السود لا ينبغي أن تطيف بأخيلة الكرام من الرجال، فللرجل النبيل كل الحق في أن يشغل قلبه وذمته بشواغل المودة الصادقة لمن يعرف من أشراف النساء، وهذا باب من أنس الضمائر والقلوب عرفه الناس من قديم الزمان وإن جنبوا عن التصريح به فيما يكتبون وما ينظمون.

وصديقنا الشريف الرضي كان يفهم هذه المعاني، وأكاد أجزم بأنه كان يضمم الإعزاز لكثير من عقائل الكرخ وبغداد، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إنه كان يصادق كثيرًا من نساء البيداء، فإن لم تصدقوا ذلك فحدثوني كيف صح له أن يقول في رثاء سيدة غيبتها التراب:

على أي غرس آمن الدهر بعدما      رمى قادح الأيام في الغصن الرطب  
ذوى قبل أن تذوي الغصون وعهده      قريب بأيام الرييلة والخصب<sup>٢</sup>  
كفى أسفًا للقلب ما عشت أنتي      بكفي على عيني حثوت من الترب

(١) الجلل: العظيم، وهو أيضًا الحقيق، فهو من الأضداد.

(٢) الرييلة: على وزن سفينة: السمن والنعمة، والمراد بها وفرة الشجر.

جرت خطرة منها وفي القلب عطشة  
وقلت لجفني ردة مدمعاً على دم  
ومما يطيب النفس بعدك أنسي  
ألا لا جوى مسّ الفؤاد كذا الجوى  
خلا منك طرفي وامتلا منك خاطري  
رفعت لها رأسي عن البارد العذب  
وللقلب عالج فرح نذب على نذب  
على قرب" من ماء وردك أو قرب  
ولا ذنب عندي للزمان كذا الذنب  
كأنك من عيني نقلت إلى قلبي

إي والله، كذلك تسجل مواد الكرائم من النساء، ولو أفنينا الأعمال في  
تخليد مآثر الحرائر وفضلهن على أرباب العقول لما بلغنا بعض ما نريد.

أيها السادة:

إن المقام يضيق عن شرح ما عند الشريف من غرائب الوفاء، ويكفي في  
ختام هذه المحاضرة أن نشير إلى ما في شعره من رقة الحنين، فهو الذي يقول في  
رثاء بعض الأصدقاء:

أمسي كأن من القنا  
يا ثانيًا للنفس بل  
عضو عشت فيه المنية  
بأضلاعي قرعًا ووخزًا  
يا ثالث العينين عزا  
ة ما أجل وما أعزًا

وهو الذي يقول:

مصابك لم يدع قلبًا ضنينًا  
كان الناس بعدك في ظلام  
وكننت أفدت خلتك ولكن  
بغلتته ولا عينًا جهادًا  
أو الأيام ألبست الحدادا  
أفادي الزمان وما أفادا

(١) القرب بالتحريك: سير الليل لورد الغد، أو أن لا يكون بينك وبين الماء إلا ليلة.

(٢) عشت: عانت، من العيث وهو الإفساد.

(٣) الغلة بالضم: هي الظمأ الشديد والمراد بها اللوعة.

(٤) أفدت: استفدت.

فإن لم أبكه قسري تلاقىت مغارسها بكيست له ودادا

وهو الذي يقول في التوجع على من فقد من الأهل:

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع      وغالط العيش لا صبر ولا جزع  
وخادع القلب ولا يود الغليل به      إن كان قلب على الماضين ينخدع  
سائل بصحبي أنى وجهة سلكوا      عنا وأي الثنايا بعدنا طلعموا<sup>(١)</sup>  
غابوا فغاب عن الدنيا وماكنها      مرأى أنيق عن الدنيا ومستمع  
أبكيهم ويد الأيام داتبة      تدوف لي فضلة الكأس التي جرعو<sup>(٢)</sup>  
لا أمترني أنني مجر إلى أمد      جروا إليه قبيل اليوم أو نزعوا  
اعتادهم لا أرجى أن يعود لهم      إلي ماض ولا في فيهم طمع  
فما تسوهج أحشائي على نفر      كانوا عواري<sup>(٣)</sup> للأيام فارجموا  
ذوائب من لباب المجد ما فجعوا      بمثل أنفسهم يوماً لا فجعوا

هل تعلمون على نأي الديار بكم      أن الضمير إليكم شيق ولع<sup>(٤)</sup>  
لكم على الدهر من أكبادنا شعل      ممن الغليل ومن أماننا دفع  
لواعج أفصحت عنها الدموع وقد      كادت تجمها الأحشاء والضلع  
أنزفت دمعي حتى ما تركت له      غرباً يفيض على رزء إذا يقع<sup>(٥)</sup>  
ثم اضطرت إلى صبري فعذت به      وأعرب الصبر لما أعجم الجزع

ومن هذه الشواهد ترون أنه كان يخاطب الأحباب الذاهبين كما يخاطب الأحباب الغائبين، وذلك من قوة الإحساس.

(١) الثنايا: جمع ثنية وهي الطريق في الجبل.

(٢) داف الشراب: مزجه بشيء.

(٣) في الديوان: (عوادي) وهو تحريف.

(٤) شيق: مشتاق.

(٥) الغرب بالفتح: عرق في العين يسقى لا ينقطع.

## غراميات الشريف الرضي

أيها السادة:

لقد شاع في المشارق والمغرب أن الشريف الرضي كان من المغرمين، فقد كان القدماء يضربون الأمثال بقصائده الحجازيات، فيقولون ما معناه: لا تصقل نفس المتأدب إلا إن حفظ هاشميات الكميت، وخمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية وتشبيهات ابن المعتز، ومدائح البحري، وحجازيات الشريف الرضي<sup>(١)</sup>.

فالشريف كان معروفاً عند القدماء بصدق اللوعة والصبابة، وكانت أشعاره في الحب كثوساً يعاقرها المتيمون.

ولكن مرّت أجيال وأجيال والناس منصرفون عن ذلك الجانب المشرق من شعر الشريف؛ لأن الحياة الإسلامية قد شابتها أقداء التزمت الجمود، ولم يبقَ من رجال الدين من تؤثر عنه أطياب الفكاهة والظرف، أو تروى عنه غرائب الأحاديث.

وإني لأشعر بالتهيب وأنا أشرح هذا الجانب من عبقرية الشريف الرضي، ولكن يشجعني أي أتكلّم في بغداد التي وسع صدرها مئات المذاهب والآراء في الدين والاجتماع.

وأكاد أجزم بأن الشريف الرضي لو عاش في غير العراق لما استطاع أن يجمع بين الأدب والدين؛ لأن الجماهير الإسلامية في غير العراق لم تكن تسمح لرجل من أساتذة العلوم الدينية أن يطيل القول في فتنة الحدود وسحر العيون.

(١) لم يتسع الوقت لمراجعة هذا النص. وقد قرأته منذ أكثر من عشرين سنة في دائرة المعارف للبستاني ورأيت بعد ذلك في عدة مؤلفات.

وليس معنى هذا أن العراق خلا خلوةً تاماً من التنكر لأخلاق الظرفاء من رجال الدين، لا، ولكنه كان أرق وأظرف من مصر التي لم يعرف علماءؤها غير فناء الأعمار في التدريس والتأليف، والتي تسقط فيها هيبة العالم إن اتهمه حاسدوه بأنه أديب يحفظ بعض ما قيل في وصف الملاح.

كان الشريف الرضي يحب ويعشق، وقد اتسع عصره وبلده لسماع ما قال في الحب والعشق، ولكنه مع ذلك حبس عواطفه في قفص من حديد؛ لأن المجتمع العراقي على تسامحه لم يكن يبيح لمثله غير التجمل والتوقر والاستحياء، فكان الشريف يسقي منابت الظرف من مزاجه الرقيق بقراءة ما ينظم معاصروه من أشعار المجون، وهل نسيتم ما أشرنا إليه من اهتمامه بدراسة أشعار ابن حجاج؟

لقد فطر الشريف الرضي على رقة الإحساس، ولكنه منذ نشأته كان مسئولاً عن رعاية التقاليد، وهذا السجن الاجتماعي هو الذي أخرج من وجدانه ذلك الشاعر المجيد؛ لأن الشاعر لا ترهف إلا بقوة الاعتلاج، فلو كان الشريف رجلاً مطلق الحرية في تصرفاته الشخصية لكان من الممكن أن يصير ماجناً يشبه الألوفا ممن تنسموا أرواح دجلة والفرات، ولكن قسوة المجتمع صهرته صهراً عنيفاً فأخرجت منه وتراً حناناً يشدو فيجيد.

كان الشريف يستطيع أن يملأ الدنيا بالكلام عن التنسك والتقشف والزهد، وكان يستطيع أن يكون إماماً منقطع النظر في علوم اللغة والدين، وكان يستطيع أن يكون رجلاً تُقَبَّلُ يميناه؛ لالتماس البركات، ولكنه لو عرق فطرته لكان شيخاً تافهاً كألوفا المشايخ الذين سمح الدهر بأن يكونوا من أساتذة الأزهر الشريف، فلم يبق إلا أن يتسامح مع فطرته بعض التسامح فيعلن بعض ما في صدره من الغرام المدفون، ولكن كيف يعلن ذلك؟ سيظل الرجل في حرب بين المجد والحب.

هو في نفسه صالح لأن يكون من أقطاب الدولة.

ولكن ما هذه النوازع الدقاق التي تنزل به إلى الهوان في الحياة الغرامية؟

أيصح أن يصبح الفارس المغوار أسيرًا لعينين كحيلتين يشع فيهما سحر  
النعاس؟

أيمكن أن يكون المحارب الصوال فريسة للنحور العاجية التي تعجز عن  
حل العقود؟

ما هذه الصلات الطبيعية التي تجمع بين الأضداد فتقرن القلب القاسي  
بالقلب الرقيق؟

ما هذه الغرائب التي تقضي بأن لا يتم العشق إلا بين رجل وامرأة مختلفين  
في العرض والطول على نحو ما كنا نرى في شوارع باريس؟

إن الطبيعة تتقم من الأوضاع والتقاليد، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

إن الشريف قد تزدهيه الكبرياء فيقول:

|                               |  |
|-------------------------------|--|
| تضاجعني الحسناء والسيف دونها  | ضجيعان لي والسيف أدناها مني                  |
| إذا دنست البيضاء مني لحاجة    | أبى الأبيض <sup>(١)</sup> الماضي فأبعدها عنى |
| وإن نام لي في الجفن إنسان نظر | تيقظ عنى ناظر لي في الجفن <sup>(٢)</sup>     |
| أغررت فتاة الحيّ مما ألفتته   | أغلغله دون الشعار من الضنّ                   |
| وقالت هبوه ليلة الخوف ضمه     | فما عذره في ضمه ليلة الأمن                   |

وهذه قطعة نفيسة من حيث المعنى والخيال، فهل كانت من نفحات

(١) الأبيض: هنا السياف.

(٢) الجفن: الغمد، وفي البيت جناس.

الصدق؟ أستبعد ذلك، فالرجل لا يضاجع السيف في ليلة الوصل إلا وهو متكلف، ولا سيما إن صرح بأنه في أمان.

إنما الصدق أن يفصح عن ذات نفسه فيصرح بأنه يلقي الجمال بوجه متجههم وقلب رقيق، فيقول:

|                           |  |
|---------------------------|--|
| ومقبل كفي وددت لو أنه     | أومى إلى شفتي بالتقبيل                 |
| جاذبته فضل العتاب وبيننا  | كبر المملول وذلة المملول               |
| ولحظت عقد نطاقه فكأنما    | عقد الجمال بقرطوق <sup>(١)</sup> محلول |
| جدلان ينفض من فروج قميصه  | أعطاف غصن البانة المطلول               |
| من لي به والدار غير بعيدة | من داره والمال غير قليل                |

وهذه قطعة شرحنا ما تومئ إليه من الأسرار النفسية في كتاب "مدامع العشاق" منذ سنين، وهي شاهد على النزاع بين العقل والهوى، والهدى والضلال، إن صح أن الصدق في التعبير عن خوالج القلب إثم وإسراف.

الحق أن الشريف كان صورة للنزاع بين العقل والقلب: العقل الذي يوجب أن يكون الرجل من عبيد المجتمع؛ ليسود المجتمع، والقلب الذي يوجب أن يكون الرجل عند وحي الفطرة والإحساس، وقد صدق في التعبير عن هذه المعضلة النفسية حين قال:

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| ولقد أطلت إلى سلوك شفتي  | وجعلت هجرك والتجنب زادي   |
| أهون بما حملتني من الضنى | لو أن طيفك كان من غوادي   |
| لا يبعدن قلبي الذي خلفته | وقفا على الاتهام والإنجاد |
| إن الذي غمر الرقاد وساده | لم يدر كيف نباعلي وسادي   |
| لولا هواك لما ذلت وإنما  | عزي يعيرني بسذل فوادي     |

## العز يعير بذل الفؤاد؟!

تلكم هي القصة الموجزة لحياة الشريف، فهو في نزاع دائم بين عزة الجاه وذلة القلب، فإن لم يكفِ هذان الشاهدان فانظروا كيف يقول:

|   |  |
|---|--|
| يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى            | ألم الجوى من قلبي المصدوع                  |
| هيهات لا تتكلفن لي الهوى                  | فضح التطبع شيمة المطبوع                    |
| كم قد نصبت لك الحبايل طامعًا              | فنجسوت بعد تعرض لوقوع                      |
| وتركتني ظمآن أشرب غلتي                    | أسفًا على ذلك اللمى <sup>(١)</sup> الممنوع |
| قلبي وطرفي منك هذا في حى                  | قيظ <sup>(٢)</sup> وهذا في رياض ربيع       |
| كم ليلة جرعتة في طولها                    | غصص الملام ومؤلم التقرع                    |
| أبكي ويبسم والدجى ما بيننا                | حتى أضاء بثغره ودموعي                      |
| تفلي أنامله التراب تعلقًا                 | وأناملني في سنى المقروع                    |
| قمر إذا استخجلته بعتابه                   | لبس الغروب ولم يعد لطلوع                   |
| لو حيث يستمع السرار <sup>(٣)</sup> وقفتما | لعجبتما من عزه وخضوعي                      |
| أهون عليك إذا امتلأت من الكرى             | أني أبيت بليلة الملسوع                     |
| قد كنت أجزيك الصدود بمثله                 | لو أن قلبك كان بين ضلوعي                   |

وهذه أشعار من فيض القلب، والشريف في هذه الأشعار ليس هو ذلك الشيخ الجليل الذي أنشأ مدرسة سهاها "دار العلم" وأقام فيها مكتبة يتزود منها طلاب اللغة والدين، وإنما هو إنسان يرى الدنيا بأعين الشعراء الذين يدركون أسرار الوجود.

(١) اللمى: سمة الشفة.

(٢) القيظ: صميم الصيف.

(٣) السرار: بالكسر هو التاجي في السر.

أيها السادة:

إن النص على هذا المعنى ضروري في هذا البحث، فالشريف الرضي في غرامياته ليس من تلاميذ بغداد، وإنما هو من تلاميذ البيداء، وآية ذلك أن الأنفاس البغدادية لا نحسها عنده إلا في النادر القليل، فهو بعيد كل البعد عن أنفاس الشعراء الذين تمتعت آذانهم وعيونهم بضجيج بغداد ومواكب بغداد وتعليل هذا سهل.

فقد كان رجلاً يفهم أن من المفروض عليه أن لا يُعرف بغير التقى والعفاف، ولم تكن دنيا الناس في ذلك العهد تسمح لرجل مثله أن يخاطر بمركزه الأدبي والديني في سبيل الوجد والصبابة، وإنما كان يُقهر على ذلك قهراً بما يتوقد في صدره من الغرام المشبوب، وهو نفسه قد شعر بهذا الحرج حين قال في دفع من اتهموه بالخروج على أدب الأتقياء:

وأكذب بالتصون مدعيهم وأجسم قائلهم بالعفاف

وأريد أن أقول بصراحة: إن الشريف الرضي كان يحاول التخلص من مذاهب البغداديين في التشبيب؛ لأن أكثر الشعراء في تلك الأيام كانوا أسرفوا في العبت والمجون، وكان يرى من موجبات الكرامة أن يترفع في نسبه عما ألف أولئك الشعراء من التبذل والإسفاف، وقد أوغل في التحفظ حتى كاد يهجر الشعر الرقيق، فلم يتفق له إلا في الندرة أن يقول:

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| يا مقلقي قلقي علي   | ك أظنه ذنبي اليكا    |
| أنت الشقيق فلو جنيت | ت لما أخذت علي يديكا |
| أمسيت ثالث ناظري    | فكيف أقذني ناظريكا   |
| وكفناك أني لست أع   | قد خنصري إلا عليكا   |

أو يقول:

يا ليلة كرم الزما  
كان اتفاق بيننا  
واسأروح المهجور من  
فاقتص للحق سب<sup>(١)</sup> الما  
حتى إذا نسمت ربا  
يرد السوار لها فأحـ

ن بهالو أن الليل باق  
جار على غير اتفاق  
زفرات هم واشتياق  
ضي بل نـزود للـواق  
ح الصبح نؤذن بسالفراق  
سميت القلائد بالعناق

أو يقول:

كم مقام خضنا حشاه إلى اللهو  
ومزجنا خمر الرضا بين الرشـ  
قم نبادر مرمى الزمان بين  
واغتمها قبل الفراق فما تعـ  
نحن غصنا ضمنا عاطف الوجـ

جميعا والليل ملقى الرواق  
ف برغم المدام تحت العناق  
فسهام الخطوب في الأفواق<sup>(٢)</sup>  
لم يوما متى يكون التلاقي  
د جميعا في الحب ضم النطاق

والأبيات الأخيرة من قصيدة طويلة نص الديوان على أنها في معنى سئل  
القول فيه، فكأنه يتهيب الحديث عن ليالي الوصل، ومن الشعراء من تجسهم  
تقاليد المجتمع فلا يتحدثون عن أهواء النفس إلا بطريق التلميح.

صدقوني أيها السادة إذا حدثتكم أي تعبت في البحث عن صور بغداد في  
غراميات الشريف الرضي، فلم أجد غير أطياف، كأن يقول:  
أنا الفداء لظبي ما اعترضت له إلا وهتك شوقاً لي أسـ

(١) الحقب جمع حقة بالكسر وهي المدة من الزمان. وأرجو القارئ أن يتأمل جمال هذا البيت.

(٢) الأفواق: جمع فوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم.

لا حظنه والنوى تدمى ملاحظه<sup>(١)</sup> ما انفك من نفس للوجد يكتمه  
 يعارض من رشاش الدمع يطره أهوى إليّ يدًا عقد العناق بها  
 تحت الضلوع ومن دمع يوفره وقال تذكر هذا بعد فرقتنا  
 والبسين يعدلسه والحب يعذره فقلت ما كنت أنساه فأذكره

فهذه قطعة تذكر بابن المعتز، أشعر خلفاء بغداد.

والحق أيها السادة أن الشريف الرضي لم يكن يتكلم اللغة البغدادية إلا حين يأسره الغضب أو الحزن:

كأن يقول في الهجاء:

مواقف نسيرانهم قرة<sup>(٢)</sup> وسربال طاهيهم أبيض  
 إذا حركوا للمساعي أبوا وإن أنزلوا دار ضميم رصوا

وكان يقول في وصف مغنٍّ دميم:  
 تقذى بمنظره العيون إذا بدا  
 أبذاك نستشفي ومن نعماته  
 أم كيف يطربنا غناء مشوّه  
 نزوي الوجوه تفاديًا من صوته

وتقيء عند غنائه الأسماع  
 تولد الآلام والأوجاع؟!  
 أبدًا نهال بوجهه ونراع؟!  
 حتى كأن سماعه إسماع<sup>(٣)</sup>

وكان يقول:

أيا للمجد ممن قوم لكلام  
 ألاحر على عرض يغار

(١) الملاحظ بفتح الميم: العيون، وهي كذلك في قول الشاعر:

يرمون بالخطب الطوال ونارة وحسي الملاحظ خيفة الرقباء

(٢) قرة: بفتح القاف باردة.

(٣) الإسماع: الشتم والتشنيع.

وأذكاهم إذا نطقوا حمار  
وعندي الدّين<sup>(١)</sup> منها والنفار  
دواخنها السواطع والأوار<sup>(٢)</sup>

فأشجعهم إذا فزعوا جبان  
لبونكم<sup>(٣)</sup> تدر لأبعديكم  
لغير ضوء ناركم وعندي

وكان يقول في التحزن للأموات:

بعمد نزع إلى نزوع<sup>(٤)</sup>  
ما عشت مكتومة النجيع  
وقارع الخطب عن قريب<sup>(٥)</sup>  
دمعي ولم أستذب ضلوعي  
إني إذن فارغ الدموع

رجعت في إثرهم برغمي  
أبقى الجوى جرحه بقلبي  
كم غابن الموت عن كريم  
بانوا فلم أنتزح عليهم  
وأسفح الدمع للأعادي

قلت: إن الشريف لم يكن تلميذ بغداد وإنما كان تلميذ البيداء، ولكن هذا القول لا يخلو من اعتساف، فقد كانت للشريف لفتات إلى معالم العراق، كأن يصرخ:

ودون المطايا مُرْبِخ وزرود<sup>(٦)</sup>  
ليهنك من مرمى عليك بعيد  
رمال النقا من عالج لشديد<sup>(٧)</sup>

أقول وقد جاز الرفاق بندي النقا  
أنطلب يا قلبي العراق من الحمى  
وإن حديث النفس بالشيء دونه

(١) الدّين: بكسر الذال، ولعله لغة في الذّان وهو العيب.

(٢) اللبون: الناقة ذات اللبن.

(٣) الأوار بالضم: اللهب.

(٤) النزاع: الشوق، والنزوع: اليأس.

(٥) القريع: السيد.

(٦) مُرْبِخ: بضم أوله وسكون ثانيه وكسر الباء رمل من رمال زرود، وزرود: رمال بين الشعبية والخزمية بطريق الحاج من الكوفة.

(٧) عالج: رمال بين فيد القريات.

لها مبدئ من بعدنا ومعيند  
 رمته المرامي أعين وخذود  
 دخان ولا من نارهن وقود  
 طوال الليالي نحوكم ليزيد  
 رويدًا وقال القلب: أين تريد؟  
 وأنت على قرب المزار عميد<sup>(١)</sup>؟  
 غداة، جزعنا الرمل<sup>(٢)</sup> قلت: أعود  
 وأعلام خَبَّتْ؟ إنني لجليد<sup>(٣)</sup>

تسرى اليوم في بغداد أنديسة الهوى  
 فمن واصف شوقًا ومن مشتك حشا  
 تلفت حتى لم يبين من بلادكم  
 وإن التفات القلب من بعد طوفه  
 ولما تدانى البين قال لي الهوى:  
 أنطمع أن تسلي<sup>(٤)</sup> على البعد والنوى  
 ولو قال لي الغادون: ما أنت مشته  
 أصبر والوعساء بيني وبينكم

فهذه القطعة تمثل أصدق الشوق إلى العراق، وتشهد بأنه كان مشغول القلب بأحبابه في العراق.

وهو أيضًا الذي يقول:

سقامي، وما يغني الأطباء في الحب  
 ورد ذماء<sup>(٥)</sup> النفس بالبارد العذب  
 ولو علموا جسوا النوايض من قلبي

دعوا لي أطباء العراق لينظروا  
 أشاروا بريح المنديل للبدن والشذا  
 يطيلون جس النابضين ضلالة

والذي يقول:

طلّيح تجافاه الرجسال ظليح<sup>(٦)</sup>

ألا إن ليلى بالعراق كأنه

(١) عميد: أصيب عموده، فهو عميد ومعمود.

(٢) يقال سلا يسلو، من باب نصر، وسلي يسلي، من باب رضي.

(٣) جزعنا الرمل: اجتزناه.

(٤) الوعساء: موضع بين الثعلبية والحزيمية على جادة الحاج، وهي شقائق رمل متصلة، وخَبَّتْ: بفتح فسكون علم لصحراء بين مكة والمدينة.

(٥) الذماء: بالفتح هو بقية النفس.

(٦) الطليح: هو البعير نال منه الإعياء، والظليح والظالع: هو البعير يغمز في مشيه.

مقيم يعاطيني الهموم وناظري معني بأعجاز النجوم ولوع

والذي يقول:

سقى الله دهرًا حبانًا السودا دمتدها فشكرنا العراقا

والذي يقول في رجوعه من الحج يتشوف إلى قباب بغداد:

عسى الله أن يأوى لشُعْبُتٍ<sup>(١)</sup> تناهبوا هباب<sup>(٢)</sup> المطايا نصها وانجذابها  
وجاسوا بأيديها على علل السرى حرار أماعيز الطريق ولاهبها<sup>(٣)</sup>  
فيرمي بها بغداد كل مكبر إذ ما رأى جدرانها وقبابها  
فكم دعوة أرسلتها عند كربة إليه فكان الطول<sup>(٤)</sup> منه جوابها

فالشريف لم يكن ينكر بغداد ولا العراق، ولكنه مع ذلك لم يكن مقصور الهوى على بغداد والعراق، فقد كانت له صبايات بالبيداء؛ صبايات غنمها واكتوى بنارها في طريقه إلى الحج، وهو قد حج مرات ورأى الأطباء الحوالي والعواطل بالبيداء، وربما كان الحج هو السبب الأول في تفتح عبقرية الشريف فقد كانت تمر أشهر وهو يراود الخيال فوق ظهر جمل أو سرة جواد.

ونحن نعرف فضل هذه الأسفار على الشعراء، فالشعر يحتاج إلى غناء، وهو لا يتيسر في كل وقت لمن يعيشون في الحواضر فوق مهاوي المشكلات السياسية، والمعضلات الاجتماعية، وإنما يحتاج الشعر إلى فراغ من هموم العقل؛ ليستطيع الشاعر أن يعاقر الغناء.

(١) الهباب بالكسر: النشاط، والنص: أقصى ما عند الناقة من السير.

(٢) الشعث جمع أشعث: وهو من غبرة السفر.

(٣) الحرار جمع الحرة: وهي الأرض ذات الحجارة السود، والأماعيز جمع أمعوز بالضم: وهي الأرض الصلبة، واللاب جمع اللابة واللوبة بالضم: وهي الأرض ذات الحجارة.

(٤) الطول بالفتح: الجود.

وكذلك يمكن القول بأن الشريف لم يدرك كيف يكون اعتلاج الشوق إلا وهو يسامر الخيال في الصحراء، وقد نظر فرأى ثروة الأدب العربي لم تتكون إلا من أصول الأخيلة البدوية؛ أخيلة الأعراب الذين اتسع وقتهم للغناء، فمضى يتحدث عن مواطن ومعالم ومنازل لا يمكن أن تتسع لها جميعاً مسالك الطريق إلى الحجاز، وبذلك تحول الحب في قلبه إلى معركة وجدانية لا تعرف الرسوم والحدود، وإنما تتميز بما ترى القلوب من شواظ وأقباس.

وكان للشريف في ذلك المذهب نجاة من فضول الباغين والعادين، فهو يحنُّ إلى ديار لا يراها البغداديون إلا إذا استنجدوا طيف الخيال، وهو يذكر أسماء كان لها في أذهان الناس صور قدسية؛ لأن الشعراء الأوائل كانوا خلعوا عليها أفواجا من السحر الحلال.

كان طريق الحج فرصة للتعرف إلى طوائف من الحسن المكنون، وكان موسم الحج فرصة للتعرف إلى ألوان من الجمال تفرقت في بلاد الله ثم التقت في ساحات الحجيج، فكان صاحبنا يطالع كتاب الحسن بعناية وإمعان، وكان كتاب الحسن في موسم الحج مختلف السطور والخطوط، فكانت فيه سطور شامية، وسطور مصرية وتركية، وسطور مغربية وأندلسية. وكانت فيه كلمات بالحروف اليمينية والجاوية والهندية، وكان الشريف من أقدر الناس على فهم الرموز من خطوط الجمال.

وهنا يبدأ الخطر على ذلك القلب الحساس.

من هنا نعرف كيف كان الشريف كثير الأسى والحنين، فالذي يشهد مواكب الحسن من مختلف الشعوب في موسم لا يدوم غير أسابيع لا يستطيع تزويد العين والقلب بغير الحشرات، وهل تسمح طبيعة المجتمع لأمير الحج أن يقضي ليلة فاجرة أو عفيفة مع امرأة حسناء، وكيف وهو مقتول الوقت

بشرح آداب السعي والرمي والطواف.

الواقع أن تلك المآزق هي التي أوقدت صدر الشريف، فقد كان حاله شبيهاً بحال من يقضي أسبوعين يزور فيهما المعرض الدولي في باريس، فيرى من غرائب الجمال ما يعشي الأبصار والقلوب، ثم يعود وهو آثم الضمير طاهر الثياب.

إن اللغة العربية لا تعرف من الذين سجلوا مواسم الحج بقوة وعنف غير شاعرين: الأول صديقنا عمر بن أبي ربيعة، عطر الحب ذكراه! والثاني أستاذنا الشريف الرضي، نضر الله مثواه!

أما عمر بن أبي ربيعة فقد كان مطمئن البال؛ لأنه كان حجازياً يشاهد من مواسم الحج ما يشاء؛ ولأنه كان خلع العذار فلم يعد يبالي أين يقع هواه؛ ولأنه كان اشتهر بالحب حتى كان ظريفات النساء لا يرين تمام الحج إلا بمشاهدة وجهه الجميل.

أما الشريف الرضي فإنسان آخر، هو رجل يجيء إلى الحج نائباً عن خليفة المسلمين، هو رجل مسئول لا يليق به اللهو ولا المزاح، ومعه من أهل العراق رجال لا تخفى عليهم مآثم العيون، ولعل فيهم من ينافسه أو يعاديه، فهو ينظر إلى الجمال المثور فوق بساط الريح بقلب فاتك وطرف عفيف، وقد يتفق أحياناً أن تعفّ العيون وتفتك القلوب !!

أيها السادة:

لا تحسبوني أتفلسف على حساب الشريف، فقد قضيت سنين وأنا أحاول فهم هذه الدقائق الوجدانية، وأكاد أجزم بأن الشريف لم يكن يعرف السكون، ولو نزل إلى مغارات الكهوف؛ لأن لذكريات العيون والنحور والحدود ضجيجاً يوقظ الأموات ويصم الأحياء، وهو قد رأى من الوجوه الوسيمة،

وسمع من الأصوات الرخيمة، ما يسوق العقلاء إلى حظيرة المجانين.

وهل كان يمكن أن تتوفر تلك الثروة الشعرية لرجل يلهو ويلعب؟

هل كان يمكن أن يشهد الشريف غرائب صنع الله في مواكب الحجيج وهو في عنفوان الشباب، ثم لا يحفظ في لوحة الذكريات ألف سورة من سور الصبابة والجمال؟

معاذ الهوى والأدب أن يكون الشريف الرضي عابثاً في الغرام، وهل في الغرام عبث؟ وهل كان اللعب بالحب إلا كاللعب بالجمر المتوهج؟

إن العبث في الحب ممكن، ولكنه مستحيل على رجل يعيش بالبيداء، أو يمر بالبيداء، فلاهل البيداء ومن يجاور البيداء عيون أسحر وأفتك من عيون الأطباء، وإني لأعجب كيف يعيش إنسان في العراق ثم لا يعشق وهو يرى عيون المها في كل مكان وفي كل حين؟

ولكن الشريف صعب عليه أن يجعل العراق مرجع هواه؛ لأن سياسة المجتمع كانت ترفض ذلك؛ ولأن الرجل كان في ذاته شعوبي الهوى، فكان في صدره سهام من مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب والهند وفارس والعراق، كان صورة للفؤاد الممزق الذي تعاورته سهام العيون.

أيها السادة:

لا تلومني في هذا اللف والدوران، فأنا أحاول أمراً يصعب إليه الوصول، أحاول التصريح بأن الأسماء التي وردت في شعر الشريف لم تكن لها في ذهنه مسميات، أريد أن أصرح بأنه كان يسلك المذاهب الرمزية حين قال:  
ولم نر كالعيون طباسيوف      أرقن دمًا وما رمن الجفونا  
عوائد من نذكر آل ليلي      كأن لها على قلبي ديونا

فآل ليلى لم يكونوا بالفعل آل ليلى، ولعلهم كانوا آل جميلة أو آل ظمياء!.

وذو الأثل في قوله:

تذكرت أياماً بذى الأثل بعدما      تقضي أواني في الصبا وأوانها  
يطيب أنفاس الرياح ترابها      ويخضل من دمع النسائم بانها

لم يكن بالفعل ذا الأثل، ولعله كان محلة من محلات بغداد.

وكذلك يمكن القول في (أراك الحمى):

يا أراك الحمى تراني أراكا      أي قلب جنى عليه جناكا  
أعطش الله كل فرع بنعما      ن من الماطر الروي وسقاكا  
أي نور لناظري إذا ما      مرّ يوم وناظري لا يراكا  
لا يرى السوء من رآك مدى الدهم      ر وحيًا الإله من حياكا  
ورعى كل ناشق لك دلت      ته صبا طلة على رياكا

أو ما تحدث به عن رامة إذ يقول:

وجبت في طفل العيشة نفحة      جبت برامة صحبتي وركابي<sup>(١)</sup>  
متلملين على الرحال كأنها      مروا ببعض منازل الأحباب  
في ساعة لما التفت إلى الصبا      بعدت مسافته على الطلاب  
وتارجت منها ذلاذل ريطتى<sup>(٢)</sup>      حتى تعارف طيبها أصحابي  
فكأنها استعقبت فارة تاجر<sup>(٣)</sup>      وبعثت فضلتها إلى أنسابي

(١) الطفل: بالتحريك هو الشمس قرب الغروب، ورامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة.

(٢) الریطة: ملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، والذلاذل: الأطراف.

(٣) فارة التاجر: هي فارة مسك.

أشكو إليك ومن هواك شكايتي  
يا ما طلي بالدين وهو محبب  
ويهون عندك أن أبشك ما بي<sup>(١)</sup>  
من لي بدائم وعدك الكذاب

فهل تظنون أن (رامنة) وردت في هذا الشعر وهي حتمًا رامنة؟ أم تحسبونها بقعة خيالية طافت بخيال الشريف؟

وكذلك يمكن القول بتزوير المواضع في هذا القصيد.

خليلي هل لي لو ظفرت بنية  
وهل أنا في الركب اليانين دالج  
وفي سرعان الريح لي لو علمتما  
وفي ذلك السرب الذي تربيانه  
شهي اللمي عاط إلى الركب جيده  
وكم فيه من حو اللثات كأنما  
علقناك يا ظبي الصريم طماعة<sup>(٢)</sup>  
أنبل نائلًا أو لا فتن بتظرة  
وإني إذا اصطكت رقاب مطيكم  
أخالف بين الراحتين على الحشا  
أحن وتجزيني على الشوق قسوة  
وما زادني ذكر الأجابة عن كرى

إلى الجزع من وادي الأراك سبيل  
وأيدي المطايا بالرجال تميل  
شفاء ولو أن النسيم عليل  
أحم<sup>(٣)</sup> غضيض الناظرين كحيل  
ختول لأيدي القانصين مطول  
جرى ضرب ما بينها وشمول<sup>(٤)</sup>  
أعندك من نيل لنا فتيل  
فإني بالأول الغداة قتيل  
وثور حاد بالرفاق عجول<sup>(٥)</sup>  
وأنظر أني ملتم فأميل  
ألا غال ما بيني وبينك غول  
ولكن لسلي بالعراق طويل

(١) في الديوان (أن أبيت كما بي).

(٢) أحم: أسود العينين.

(٣) حو: جمع حواء وهي السمراء، والضرب بالتحريك: العسل، والشمول: الخمر تبرد هاريج الشمال.

(٤) الصريم: الرمل المنقطع.

(٥) ثور: هتف.

وقد يتفق له في قصيدة واحدة أن يشير إلى عدة معالم فيقول:

يا منشط الشيخ والحوذان من يمن  
تري الغريم الذي طال اللزوم له  
إن الخليّ غداة الجزع عيده  
لولا طباء معاطيل سنحن لنا<sup>(١)</sup>  
قد كاد ينجو بنجد من عزيمته  
ماء النغيب ولو مقدار مضمضة<sup>(٢)</sup>  
ونشقة من نسيم البان فاح بها  
أسقى دموعي إذا ما بات في سدف  
هيهات بابل من نجد لقد بعدت  
حييت فيك غزاً لا يميني  
في الحيّ مؤلّ من بعدي فيقضي  
إلى ضمير معنى اللب مفتون  
ما كان يذهل عن عقل وعن دين  
فعارضته عيون الربرب العين  
شفاء وجدي وغير الماء يشفيني  
جنح من الليل تجري في العرائن<sup>(٣)</sup>  
صربر أثل بدارياً<sup>(٤)</sup> يغنيني  
عن المطى مرامى ذلك البين<sup>(٥)</sup>

فالشريف في أمثال هذه الأشعار لا يعني بالضبط ما يقول، فهو يذكر مواضع ومنازل لا يعنيها بالذات، وإنما يجعلها حجازاً بينه وبين الواشين ممن يسوءهم أن يصرح بمواقع هواه في الكرخ وبغداد.

أما السادة:

لا تظنوا الشريف كان من المخادعين، لا، وإنما كان من المتجملين فقد كان على جانب من الشجاعة حتى صح له أن يصرح بأن الحسن يسببه في الجنسين فيقول:

(١) المنشط: المنبت، والشيخ والحوذان: نباتان.

(٢) معاطيل: غير حوال، أي وحشيات.

(٣) العرائن: جمع عرنين بالكسر وهو الأنف.

(٤) دارياً: اسم موضع.

(٥) البين: بكسر الباء الناحية والفصل بين الأرضين.

هَجَرَتْ سَنَوِي لِحَظِ الْبَعِيدِ الْمَجَانِبِ  
فَنَزَّهَتْ عَنْهَا بَعْدَ وَجْدِ تَرَائِبِي

وَأَغْيَدَ مَحْسُودَ عَلِي نُورِ وَجْهِهِ  
وَعِيدَاءَ قَيْدَتْ لِلْعِنَاقِ مَلَكَتْهَا

ويقول:

وَرَفَّتْ عَلَيْهِ قُلُوبُ الْأُمَمِ  
لِعَارِضِهِ كَيْفَ لَمْ يَضْطَرِّمْ  
لَقَدْ جَادَ عَنْكَ الْخِيَالُ الْمَلَمَّ  
تَلَاقَى الْجَمَالَ عَلَيْهَا وَتَمَّ  
جَرَى السِّدْمَعُ دَلَّ عَلَيْهِ وَنَمَّ  
وَيَرْغَمُ مَنْ قَوْمَهَا مِنْ رَغَمِ  
وَمَجْرَى السِّدْمُوعِ وَشَكْوَى الْأَلَمِ  
وَوَقَعَ الظُّبَا وَصَلِيلَ اللَّجْمِ

وَيَا أَهْيَفَا رَمَقْتَهُ الْعَيْوُونَ  
تَضَرَّمْ خَدَاهُ حَتَّى عَجَبْتِ  
لَسِنَّ لَمْ تَجِدِ طَائِعًا بِالنَّوَالِ  
وَمِثْلِكَ ظَالِمَةَ الْمُقَاتِلِينَ  
لَهَا فِي الْحِشَا حَافِزٌ كُلَّمَا  
أَقْبُولُ لَهَا وَالْقَنَاسَا شَرَّعَ  
لَنَا دُونَ خَدْرِكَ نَجْوَى السَّرْفِيرِ  
وَإِلَّا فَنُفِرَّ صَدُورَ الْقَنَاسَا

ويقول:

وَأَنْ تَمْلِكَ الْبَيْضَ الْحَسَانَ عَقَالِي  
بِقَلْبِي فَلَا اجْتِازَ الْغَرَامَ بِيَالِي<sup>(١)</sup>  
تَرْنَحُ فِي ثُوبِ الصَّبَا وَغَزَالِ  
وَلَمَّا افْتَرَقْنَا كُنْتَ آخِرَ سَالِي  
حَبِيبِي فِيهَا بَعْدَ طَوْلِ مَطَالِ  
زَمَانًا فَكَانَتْ لَيْلَةً بَلِيَالِي  
بِأَهْلِي عَلَى عِزِّ الْقَبِيلِ وَمَالِي

وَقَدْ كُنْتَ آبَسَى أَنْ أَزَلَ لَصَبُوهُ  
خَيْصًا مِنَ الْأَشْجَانِ لَا يُوَضِعُ الْهُوَى  
إِلَى أَنْ تَرَأَى السَّرْبَ بَيْنَ غَزَالَةِ  
فَلَمَّا التَّقِينَا كُنْتَ أَوْلَ وَاجِدِ<sup>(٢)</sup>  
وَلَيْلَةً وَصَلَ بَاتٍ مَنَجَزَ وَعَدَهُ  
شَفِيتُ بِهَا قَلْبًا أَطِيلَ غَلِيلَهُ  
فِيَا زَائِرًا لَوْ أَسْتَطِيعُ فِدَيْتَهُ

ولكن هذه الشجاعة لها حدود يعرفها جيدًا من يرشح نفسه لإمارة الحج

(١) يوضع الهوى: من الإيضاع وهو الإسراع.

(٢) الواجد: المشتاق.

ونقابة الأشراف ومناصب القضاء ثم إمارة المؤمنين.

ومن أجل هذا كان تصويره للجوانب الحسية من الجمال تصويرًا قليل التهاويل، لا رفث فيه ولا فسوق، فلم يستطع أن يكون خليفة الشاعر الذي قيل فيه: ما عَصِيَ الله بشعر أكثر مما عَصِيَ بشعر عمر بن أبي ربيعة، ولم يتحدث أحد بأنه قرأ غراميات الشريف فدعته نفسه إلى مراجعة الضلال، وإنما يستطيع ألوف من الناس أن يقولوا: إن شعر الشريف حبيب إليهم الغرام النبيل، وساقهم إلى تمجيد مواسم العيون في كرائم الأحاسيس.

لا تنتظروا من الشريف أن يهيجكم بالأوصاف الحسية؛ فما كان يملك ذلك وكرمكم يتسع للصفح عنه، وقد عرفتم كيف كان مركزه في المجتمع، بل اعذروه إن اكتفى بالأوصاف التي ردها الشعراء فقال:

|                       |  |
|-----------------------|--|
| لقين قلوبنا بجنود حرب | تطاعن بالدمالج والبرينا <sup>(١)</sup> |
| جلون لنا لآلى واضحات  | أضأن بها الذوائب والقرونا              |
| عهدنا الدر مسكنه أجاج | فكيف تبدل الثغب المعينا <sup>(٢)</sup> |

أو قال:

|                           |                                      |
|---------------------------|--------------------------------------|
| عطون بأعناق الظباء وأشرقت | وجوه عليها نضرة ونعيم <sup>(٣)</sup> |
| أمطن سجوقًا عن حدود نقية  | صفا بشر منها ورق أديم <sup>(٤)</sup> |

(١) الدمالج جمع دملج على وزن جندب: وهو المعضد، والبرين: الخلاخيل مفردها برة على وزن ثبة.

(٢) الثغب بالفتح: هو بقية الماء في بطن الوادي، والمعين: الجاري.

(٣) عطون من العطو بالفتح: وهو تناول ورفع الرأس واليدين، وعطا الظبي: تناول إلى الشجر ليتناول منه.

(٤) السجوف جمع سَجَف، بالفتح والكسر: وهو الستر، والأديم: الجلد.

ودر على لبائهن نظسيم<sup>(١)</sup>  
 بواديّ غيل بينهن عميم<sup>(٢)</sup>  
 وقد رق جلباب الظلام نسيم<sup>(٣)</sup>  
 وعهدي بهاتيك الطلول قديم  
 فقلت: جوى لو تعلمون قديم  
 ضناً بها؟ إني إذن للثيم  
 فكيف ودمع الناظرين كريم

شفوف على أجسادهن رقيقة  
 يجدن خلاخيل النضار وملؤها  
 تَأَطَّرَ أَغْصَانُ الْأَرَاكِ أَمَالِهَا  
 غرامِي جَدِيدٌ بِالسُّدْيَارِ وَأَهْلُهَا  
 يَقُولُونَ: مَا أَبْقَيْتَ لِلْعَيْنِ عِبْرَةً؟  
 أَيَسْمَحُ جَفْنِي بِالدَّمُوعِ وَأَغْتَدِي  
 وَلَوْ بَخَلْتِ عَيْنِي إِذْنٌ لَعَتَبْتَهَا

وقال:

غزيراً مرّاً على الركب  
 وعاد بالقلب إلى السرب  
 لا يحسن العدل على القلب  
 واعجبي منه ومن عجبي<sup>(١)</sup>  
 وبلى على بعدك من قرب  
 لعب الصبا بالغصن الرطب  
 وربما نفاقش في الحب  
 معذب القلب بلا ذنب<sup>(٢)</sup>  
 من دل عينيك على قلبي!

هل ناشدني بعقيق الحمى  
 أفلتت من قانسفه غمرة  
 وأظمأ القلب إلى مالك  
 يعجب من عجبي به في الهوى  
 أقرب بالود وينأى به  
 منعم يعطف منه الصبا  
 بسلاة النعمة في طبعه  
 أما اتقى الله على ضعفه  
 يا ما ظلّالي بسديون الهوى

وفي الأبيات الأخيرة بيت عجيب، وهو

- (١) اللبات جمع اللبة بالفتح: وهي موضع القلادة من الصدر.
- (٢) البوادي: المنسوبات إلى البادية، والغيل بالفتح: الساق الريان. والعميم: الممتلئ.
- (٣) التَأَطَّرَ: التثني.
- (٤) العُجْبُ: بفتح العين التعجب، والعُجْبُ: بالضم التيه والازدهاء.
- (٥) معذب: بصيغة الفاعل.

بسلافة النعمة في طبعه وربما ناقش في الحب

وقلما يتنبه الشريف إلى أمثال هذه المعاني، فهو قليل التحليل لأهواء الملاح ولكنه في هذا البيت تنبه إلى البلادة، التي نراها أحياناً في الجمال المترف، ففي بعض منازل النعيم ألوان من الجمال تشبه في مداركها جمال التماثيل، والذكاء في أهل الجمال قليل الوجود، ولكن هذه أثره نفسانية.

فالشعراء يحبون أن تضج الدنيا لهم حين يظهرون، وهم ينسون أن الجمال لو أعلن شعوره بهم في جميع الأحيان لانقلبت الدنيا إلى مسارح من العبث والمجون!

## وصف السود الملاح

أيها السادة:

حدثتكم منذ أشهر أن ابن سكرة كان أولع بجارية سوداء، فقال فيها ألوف الأبيات، وحدثتكم أن الشريف الرضي تأثر بذلك الشاعر في وصف السود الملاح، وفي هذا المساء يتضح لكم أن الشريف وقف عند حده في الوصف، فلم يتعدّ الكلام عن اللون إذ قال على لسان من سأله مدح جارية سوداء:

وذنب من لام ظلماً غير مغتفر  
بعض معترف لا ذل معتذر  
فكيف يختلف اللونان في نظري؟  
في عارضي أن تكون البيض من وطري  
علاقة تسمت الظلماء بالقمر  
صبيغ الليالي على الأجياد والعدر  
إن تفقد العين يرض القلب بالأثر  
والصبح أفصح للساوي على غرر  
وما له في الضحى إن ضل من عذر  
ما بيض الدهر والأيام من شعري  
من كان مثل سواد القلب والبصر

لاموا ولو وجدوا وجدني لقد عذروا  
لما تمالوا على عنلي أجبتهم  
أهوى السواد برأسي ثم أمقته  
تأبى طلائع بيض ذر شارقها  
إني علقنت سواد اللون بعدكم  
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقت  
جعلته لسواد الرأس تذكرة  
والليل أستر للخالي ببلذته  
وللفتى في ظلام الليل معذرة  
لا أجمع الحب للبيض الحسان إلى  
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري

فما هذا الكلام؟ وما هذا المنطق؟! إن الشريف في هذه القصيدة يعثب الأبطال! فهل من الحق أن الرجل يعشق السوداء؛ لأن سوادها يذكره بسواد الناصية؟ وهل من الحق أن الرجل يبغض البيضاء؛ لأن بياضها يذكره بياض الشيب؟

نترك هذا، وننظر قوله من كلمة ثانية:

أحبك يا لون الشباب لأنني  
سواد يود البدر لو كان رقعة  
لبغض عندي الصبح ما كان مشرقا  
سكنت سواد القلب إذ كنت شبيهه  
وما كان سهم الطرف لولا سواده  
إذا كنت تهوى الظبي ألمى فلا تعب  
رأيتكما في القلب والعين توأما  
بجلدته أو شق في وجهه فما  
وجب عندي الليل ما كان مظلما  
فلم أدر من عز من القلب منكما  
ليلخ حبات القلوب إذا رمى  
جنوني على الظبي الذي كله لمى

فماذا ترون في هذه الأبيات، هل غرست في قلوبكم الميل إلى السواد في الملاح؟

ولنسايره مرة ثالثة فننظر كيف يقول:

أذات الطوق لم أقرضك قلبي  
كفاك حليَّ جيدك أن تحلى  
سكنت القلب حيث خلقت منه  
أحبك إن لونك لون قلبي  
عديني وامطلي وعدي فحسبي  
نظرتك نظيرة لما التقينا  
كأنى قد نظرت سواد قلبي  
على ضئى به ليضيع ديني  
بأطواق النضار أو اللجين  
فأنت من الحشا والناظرين  
وإن ألبيت لونا غير لوني  
وصالاً أن أراك وأن ترينني  
على وجلين من هجر وبين  
بوجهك ظاهراً لسواد عيني

الحق أن أشعار الشريف في النساء السود كلها لعب في لعب، وقد جاء في الديوان أنه سئل أن يقول في السواد، كما قال ابن الرومي فقال: والسكوت كان أولى وأوجب؛ لأن الشريف لم يكن يستطيع أن يجاري ابن الرومي في هذا الميدان، وكيف وابن الرومي شاعر فاجر لا يضيره أن يذكر الخصائص الأصيلة في المليحة السوداء؟ وهل كان يكفي أن يقال: إن السواد أفضل من البياض، كما فعل الشريف، وكان من الغافلين؟!

إن قصيدة ابن الرومي في محبوبته السوداء قصيدة فريدة في الشعر العربي، وما كان يجوز للشريف أن يتورط في معارضته؛ لأن الفصل في هذه القضية ما كان يمكن لشاعر يتقنع بالحياء، ومركز الشريف في المجتمع لم يكن يسمح له بأن يخلع قناع الحياء.

الواقع أن الشريف لم يكن يستطيع أن يفضل لوناً على لون، أو جنساً على جنس؛ لأن هذا التفضيل لا يتيسر إلا لجماعة من الشعراء سيصيرون فيما يقال من حطب الجحيم.

والشريف فيما ترجح كان رجلاً طيباً يصف الجمال بالسماح!

## عفاف الشريف

أيها السادة:

رأيتم ما كان يحيط بشاعرنا من المحرجات، ورأيتم أنه حرم نفسه أعظم لذة يتغنى بها المشبيون، فلم يصف مراتع الأنس، وملاعب الطيش، ولم يتحدث عن أسرار الهوى في الكرخ أو بغداد.

وقد آن أن تعرفوا بوضوح أن شاعرنا لم يكن له بد من الحديث عن العفاف؛ العفاف المطبوع أو العفاف المصنوع، ومن المؤكد عندي أن الشريف كان من المتجملين، ولم يكن من المنافقين؛ فهو قد عشق بالفعل.

وكيف لا يعشق والعراق بفطرته مفطور على قلب القلوب؟ ألم تروا كيف يتلاعب جوه من صحو إلى غيم ومن برد إلى قيظ؟

ألم تروا كيف تطيش أنهاره فيغلب عليها العوج ويصعب عليها الاستواء؟

ألم تروا إلى أهله كيف يغضبون وبتسمون في لحظة واحدة؟

ألم تلاحظوا أن العراق تفرد بمزية غريبة هي الإسراف؟

ففيه ظهر أعظم النساك، وفيه نبغ أكابر الفساق.

إن الطبيعة المزدوجة هي الشاهد على قلب القلوب؛ والقلوب لا تتقلب إلا بقوة الإحساس؛ والإحساس القوي هو منبع العشق، والعشق على جموحه هو أساس النظام في حياة الرجال.

وكان من حظ الشريف أن يكون صورة طريفة لذلك الازدواج فلم يكن من النساك ولا من الفساق، وإنما كان قلبه مسرحاً لتقلب الأجواء العراقية فكان فاسق النظر عنيف الخطرات؛ خطرات القلب والروح.

ولم يكن عفاف الشريف باباً من عفاف الضعفاء أصحاب الحب العذري، فالعذريون في حقيقة الأمر كانوا مرضى لا يحسنون صيال الفحول، أما الشريف فكان رجلاً قوياً؛ وكانت فحولته تدعوه إلى التفكير في شريف المصاهرات، وهو قد تزوج بالفعل وأنجب، فلم يبق إلا أن يكون عفافه باباً من التصون ليسلم من السنة السفهاء، والتصون هو ذاته قوة؛ لأن كبح النفس يحتاج إلى نضال، وقد ناضل صاحبنا في سبيل شرفه فلم يمت إلا وهو مرموق الجلال.

أيها السادة :

لا تحسبوني أتفلسف، فأنا في هذه المحاضرات من خدام الحقائق وحوالي عيون وأرصاد تصدني عن شطط الخيال.

وقد تأملت ما قال الشريف في العفاف مرات ومرات قبل أن أدون الكلام الذي تسمعون، وصح عندي أن غراميات ذلك الرجل كانت عراقاً في عراق.

هو عفيف، ولكن حديثه عن عفافه يشعرنا بأنه كان يجاهد هواه جهاد المستميت، وانظروا كيف يقول:

|   |                                |
|---|--------------------------------|
| تقضى أواني في الصبا وأوانها             | تذكرت أياماً بذني الأئبل بعدما |
| ويخضل من دمع الغمام بانها               | يطيب أنفاس الرياح ترابها       |
| إلى السدار خلى عبرة العين شأنها         | ولما عطفست الناظرين بلفتة      |
| إلى بدويات تشني لداها                   | ليالي تشيني عواطف صبوتي        |
| لآل على جيداء واه جمانها <sup>(١)</sup> | ولا لذة إلا الحديث كأنه        |
| وإن سيء منه بكرها وعوانها               | عفاف كما شاء الإله يسرني       |

(١) جيداء: وصف من الجيد بالتحريك وهو دقة العنق مع طول، والجمان: على وزن غراب اللؤلؤ واحده جمانة.

فما رأيكم في هذه الأبيات؟ أعلنوا رأيكم بصراحة، فليس بيني وبينكم حجاب، ألا ترونها جميعاً قوية، إلا هذه الشطرة.

عفاف كما شاء الإله يسرني

وإنما أستضعف هذه الشطرة لأنني أعتقد أن مشيئة الله أقحمت إقحاماً في هذه الأبيات مراعاة لأهواء الجهلاء!

وهذه الأبيات :

يشكو الحبيب إليّ شدة شوقه  
وإذا هممت بمن أحب أمالي  
لله ما أغضت عليه جوانحي  
وأنا المشوق وما يبين جنائي  
حصر يعوق وعفة تنهائي<sup>(١)</sup>  
والشوق تحت حجاب قلبي عان<sup>(٢)</sup>

فهل ترون فيها إلا اعتلاجاً في اعتلاج؟ هل ترون إلا رجلاً يخشى ثورة المجتمع على من يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية؟

وهذه الأبيات:

ولما أبى الأظعان إلفراقنا  
رجعت ودمعي جازع من تجلدي  
وأنقل محمول على العين دمعها  
فمن كان هذا الوجد يعمر قلبه  
ومن لعبت بيض الثغور بعقله  
وللبين وعد ليس فيه كذاب<sup>(٣)</sup>  
يروم نزالاً للجوى فيهاب  
إذا بان أحباب وعزّ إياب  
فقلبي من داء الغرام خراب  
فغندي أحر الباردين رُضاب<sup>(٤)</sup>

(١) الحصر: بالتحريك هو العي في المنطق.

(٢) عان: أسير.

(٣) كذاب: بكسر الكاف وفتح الذال.

(٤) الرضاب: بضم الراء هو الريق.

يعف عن الفحشاء ذيلي كأنها عليه نطاق دونها وحجاب  
إذا لم أنل من بلدة ما أريده فما سرتني أن البلاد رحاب

فهل ترون هذه الأبيات إلا صورة من صور النضال بين المجد والحب؟

إن الشاعر يصرح باللوعة، ثم يثور على هواه فيعلن أن قلبه من داء الغرام خراب؛ ليصح له أن يقول: إن المجد غاية مناه، وليس من الكثير على مثله أن يدوس الهوى في سبيل المجد، فتلك ثورة نفسية عرفها أحرار الرجال، ولكن من الواجب أن نتذكر هذا لنعرف أن صاحبنا لم يؤثر العفاف وهو طائع، وإنما اختار العفاف؛ لأنه أصلح الصفات لبلوغه من المجد ما يشتهي، وللمجد شهوة أقوى وأفحل من شهوة الجمال.

ثم اسمعوا الأبيات الآتية فهي أغرب:

وأبقت لي الأيام حزمًا وفطنة ووقرن جأشي بالأمر الغرائب  
توزع لحمي في عواجم جمّة ويان على جنبىّ وسم التجارب<sup>(١)</sup>  
وأرض بها بعث الصباة والصبأ وناهض قلبي الهم من كل جانب  
وزور من الأضغان نحوي كأنها يلاقيهم شخصى لقاء المحارب<sup>(٢)</sup>  
أناسيهم بغضاءهم غير غافل وأسألهم معروفيهم غير راغب  
وإني لأطويهم على عظم دائهم وأقعد منهم بين رام وجالب  
ألا رب مجد قد ضرحت قذاته<sup>(٣)</sup> وكان على الأيام جم الشوائب  
وسر كتمت الناس حتى كتمه ضلوعي ولم أطلع عليه مآربي  
وأغيد محسود على نور وجهه هجرت سوى لحظ البعيد المجانب

(١) العواجم: جمع عاجم وهو الذي يعجم العود، أي: يعضه ليختبر صلاحيته لعمل

الرماح، والوسم: في الأصل الكي، ومنه الميسم وهو المكواة.

(٢) الزور: بفتح الزاي هم الزائرون.

(٣) سرح القذاة: منعها ونحائها.

وغيداء قيدت للعناق ملكتها  
وما عفة الإنسان إلا غباوة  
فنزعت عنها بعد وجد تراثبي  
إذا لم يكافح داء وجد مغالب

ألا ترون قوة النفس في هذا الشعر الغريب؟ ألا تشهدون عثير المعركة بين العقل والقلب؟

إن الرجل يصرح بأن العفة ضرب من الغباوة والجهل، ولا يرى لها أية قيمة إلا إن كانت باباً من الكفاح، الكفاح ضد أدواء المغالب.

والشاعر بهذه الوثبة الشعرية يؤرخ قلبه أعظم تأريخ، فهو يدرك نور الوجوه - ولبعض الوجوه أنوار - ويدرك حلاوة العناق - وفي بعض العناق نشوة تزلزل الجبال - ولكنه بجانب ذلك يتذكر مطالبه العالية في ساحات المجد، والمجد فيه نور، وفيه رضاب، وفيه عناق، وفيه كل ما تشتهي أنفس الفحول، وهل يشقي الناس أنفسهم في سبيل المجد إلا إذا رأوه أروع وأفتن وأملح وأعذب من جميع ما تغريهم به بوارق الحسن الفتان!

ولكن هذا الجبار المتمرد على الحب قد يتفق له أن يرق فيقول:

يقرب عيني أن أرى لك منزلاً  
بنعمان يزكو تربه ويطيب<sup>(١)</sup>  
وأرضاً بنوار الأقاحي صقيلة  
تردد فيها شمأل وجنوب  
وأبي حبيب غيب النأي شخصه  
وحال زمان دونه وخطوب  
تطاولت الأعلام بيني وبينه  
وأصبح نائي الدار وهو قريب  
لك الله من مطلولة القلب بالهوى  
قتيلة شوق والحبيب قريب

(١) يرى القارئ في الصفحات التالية من هذا الجزء أن الشريف دعا على نعمان بالعطش، وهو الآن يعطف عليه، وهذا يؤيد ما قلناه من أن النص على هذه المنازل قد لا يدل على أنه يعينها بالذات - ونعمان اسم لعدة مواضع. أشهرها نعمان الأراك وهو بين مكة والطائف.

أقل سلامي إن رأيتك خيفة  
وأطرق والعينان يومض لحظها  
يقولون مشغوف الفؤاد مروّع  
وما علموا أناعلى غير رية  
عفا في من دون التقيّة زاجر  
عشقت وما لي - يعلم الله - حاجة  
وما لي بالمياء بالشعر طائل  
أحبك حبًا لو جزيت ببعضه  
وفي القلب داء في يدك دواؤه

وأعرض كما لا يقال مرئب  
إليك وما بين الضلوع وجيب<sup>(١)</sup>  
ومشغوفة تدعى به فتجيب<sup>(٢)</sup>  
بقاء الليالي نغتدي ونثوب  
وصونك من دون الرقيب رقيب  
سوى نظري والعاشقون ضروب  
سوى أن أشعاري عليك نسيب<sup>(٣)</sup>  
أطاعك مني قائد وجنّيب  
الأرب داء لا يبراه طيب

وهذه قطعة تصافح القلوب، ولكن ماذا صنع صاحبنا الشريف؟

لقد ترفق بمحبوبته فمنحها شطرًا من الفضل إذ جعل تصونها أعنف الرقباء، وهذا معنى إنساني نبيل، وهل ينكر منصف أن من النساء من يجاهدن الهوى كما يجاهده أعفاء الرجال؟! هل ينكر منصف أن هناك نساء نعاشرهن طوال السنين وفي قلوبنا وجد مشبوب ثم نكتفي منهن بحلاوة الأنس وبشاشة الحديث.

لا تقولوا: إن الشريف يتكلف العفاف، فإن حاله يختلف عن حال أبي نواس، وأمثال أبي نواس ممن لا يرون الوجوه الصُّباح إلا في المواخير، فإن التبذل في وصف ليالي الأنس يقبل من شاعر لا يرى وجه الدنيا إلا في سرايب الخانات، أما الشعراء الذين تسمح لهم مقاماتهم في المجتمع بأن

(١) كلمة (ما) في هذا الشطر اسم موصول.

(٢) في الديوان (تدعو به فيجيب).

(٣) لمياء: اسم امرأة. من اللمي وهو سمرة الشفتين. والعرب يحبون سمرة الشفاة. وما أحسبهم على ضلال.

يكونوا على صلوات مع كرائم العائلات فلهم شأن آخر؛ لأنهم يدخلون بيوتاً لها قدسية المحارِب.

وليس من التزيد أن أقول: إني عرفت هذا النوع من الحياة فرأيتُه أغرب الألوان في عالم الشعر والخيال، وله لذة أنضر وأعمق من لذة العبث والمجون، ولكن أين من يدرك كرائم المعاني.

ثم اسمعوا أيضًا كيف يقول:

|  |   |
|--|---|
| وَأصْبَى إِلَى لُثْمِ الْخُدُودِ النَّوَاضِرِ          | وَلله قَلْبِي مَا أَرْقُ عَلَى الْهَوَى                       |
| وَيَصْدَفُ <sup>(١)</sup> عَمَا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ | يَجْنُ إِلَى مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحَلِي <sup>(٢)</sup> |
| صُرُوفِ النَّوَى دُونَ الْخَلِيطِ الْمَجَاوِرِ         | وَلَمَّا غَدَوْنَا لِلْوُدَاعِ وَتَقَرَّرْتَ                  |
| وَمَنْ خَدَعَ الشُّوقَ السَّفِينَةَ بِعَاذِرِ          | عَيْنِ <sup>(٣)</sup> مَنْ الْقَلْبَ الْعَقِيفَ بِعَازِلِ     |
| لَسَدِينَا وَلَا أُمَّ الصَّفَاءِ بِعَاقِرِ            | عَشِيَّةٍ لَا عَرَسَ الْوَفَاءِ بِمَرْمَلِ                    |
| رَضِي غَيْرَ رَاضٍ بِالْخِيَالِ الْمَزَاوِرِ           | وَمَنْ لَمْ يَنْبَلْ أَطْمَاعَهُ مِنْ حَبِيْبِهِ              |
| لَسَقِيَا حَمِيٍّ مِنْ بَعْدِ بَيْنِكَ دَائِرِ         | وَكَنتِ أَنْوَدَ السَّمْعِ إِلَّا أَقْلَهُ                    |
| إِلَيْهِ مَرَابِيعَ السَّحَابِ الْمَوَاطِرِ            | وَإِنِّي لَا أَرْضَى إِذَا مَا تَحْمَلْتِ                     |

فهل رأيتم أدق من هذا الوصف؟، وهل رأيتم أظرف من هذا العاشق المنافق؟ ما هو الفرق بين ما يضمن الخمار، وما يضمن الإزار، يا مولانا الشريف؟

الفرق بعيد جدًا، فالخنين إلى ما يضمن الخمار هو من النوازع التي يتفرد بها أصحاب الأذواق الرقاق، أما التطلع إلى ما يضمن الإزار فهو من شهوات

(١) في الديوان (يصدق) وهو تحريف.

(٢) الخُمْرُ: جمع خمار بكسر الخاء. والحلي: جمع حلية.

(٣) عنى يعني: من باب ضرب.

الأذواق الغلاظ.

ثم انظروا صورة النزاع بين العقل والقلب، انظروا كيف يتلى الرجل بقوتين: قوة العاذر من الشوق السفيه! وقوة العاذل من القلب العفيف.

لقد سمعتم بها سماء القدماء خيال البحري، ولعلكم قرأتم تفصيل ذلك في كتاب "مدامع العشاق" ولكن ألا ترون أن الشريف بلغ الغاية في وصف تفاهة الفرح بالطيف حين قال:

ومن لم ينل أطاعه من حبيبه      رضي غير راض بالخيال المزاور  
تأملوا عبارة: رضي غير راض.

وبعد هذه القطعة أبيت أرى إمتاع أسماعكم بها، فهي عندي من وثبات الخيال:

كليني إلى ليل كأن نجومه      تغازل طرفي عن عيون الجاذر  
أمرُّ بدار منك مشجوجة<sup>(١)</sup> الثرى      بمجرى نسيم الأنسات الغرائر  
تمر عليها الريح وهي كأنها      تلفت في أعطاف تلك المقاصر

ألا ترون يا أدباء بغداد كيف يزعم شاعركم أن للطبيعة أحاسيس؟

ألا ترون كيف يدعي أن الرياح تمر بتلك الدار فتتلفت إلى ما فيها من مقاصير؟

ليت الوقت يسمح بإسماعكم فقرات من "كتاب التصوف الإسلامي" لتروا بقوة المنطق أن الشريف لم يكن عابثاً، وإنما كان يحس ما سيقوله أنصار القول بوحدة الوجود بعد مئات السنين. وهل يعقل أن تمر الريح بالوادي

(١) مشجوجة: مجروحة.

الجديب، كما تمر بالوادي الخصيب؟ هل يعقل أن تمر النسبات بوجوه أهل  
البلادة كما تمر بوجوه أرباب القلوب؟

وهل اختلت الموازين في الدنيا حتى نصدق أن الأرض التي تدوسها  
البهائم كالأرض التي تتخطر عليها أقدام الأطباء؟

نترك هذه الفلسفة الوجدانية، ونتقل إلى قول الشريف:

|   |   |
|---|---|
| يا وقفة بوراء الليل أعهد لها              | كانت نتيجة صبر عاقر الوطر                     |
| والوجد يغصبني قلباً أضن به                | والدمع يمنع عيني لذة النظر                    |
| طرقتهم والمطايا يستراب بها                | والليل برمقني بالأنجم الزهر                   |
| أصانع الكلب أن يبدي عقيرته <sup>(١)</sup> | والحي منى إذا أغفوا على غرر <sup>(٢)</sup>    |
| وفي الخباء الذي هام القواد به             | نجلاء من أعين الغزلان لا البقر <sup>(٣)</sup> |
| أبرزتها فتخاصرنا مباعدة                   | عن الخيام نعفي الخطوب بالأزر                  |
| ثم انثيت ولم أدنس سوى عبق                 | على جنوبي لريا بردها العطر <sup>(٤)</sup>     |

وفي هذه القطعة ألفاظ طريفة كعبارة: عاقر الوطر، ونعوذ بالله من الوطر  
العاقر، ونسأله السلامة من عقم الأماني! وفيها أيضاً سياسة يحسنها المحبون،  
وهي مصانعة الكلاب، ولا بد لكل عاشق من مصانعة الكلاب!

ولكنني أحب أن أنوه بتلك المحاضرة، فما يليق أن يعيش صاحبنا عيش  
المحروم في جميع الأحوال، وهل يتفق العفاف مع المخاصرة؟ تلك إحدى  
المعضلات!

(١) العقيرة: يراد بها الصوت.

(٢) الغرر بالتحريك: هو التعرض للهلاك.

(٣) في الديوان (والبقر).

(٤) الريا: الرائحة العطرة.

إن العفاف هنا ليس صورة للعفاف الذي يمضغه أدياء الدين، وإنما هو عفاف الشاعر الذي يرى ما دون الرذيلة مباحًا من مباح، ويكفي لغفر ذنوبه أن يمتعنا بهذا البيت:

ثم انثيت ولم أدنس سوى عبق      على جنوبي لربا بردها العطر

الله أكبر ما هذا الفسق يا أظرف الفاسقين!

ثم ماذا؟ ثم يقول في مخاطبة الظباء:

أنا من علمت الغداة نقيّة      أزري وضامنة العفاف مآزري  
فاعرفن كيف شمائلي وضرائبي      وانظرن كيف مناقبي ومآثري  
كمعاقد الجبل الأشم معاقدني      ومجاور البيت الحرام مجاوري

وكان يمكن أن نعيب عليه النص على المآزر في هذا الكلام النفيس، ولكن ماذا يصنع والناس في سرهم وجهرهم يطوفون حول ذلك الجمر المدفون؟!

وحسبه من الشرف أن يقول: "ومجاور البيت الحرام مجاوري"

فهذا كلام لا يقوله إلا الفتيان الشرفاء، وفيه صور لا تخفى على اللبيب ثم يقول:

وكم ليلة بتنا على غير ريبة      علينا عيون للنهي ومسامع  
نفض حديثاً عن ختام مودة      معاقلها أحشاؤنا والأضالع  
يكاد غريب الليل عنه حديثنا      يطير ارتياحاً وهو في الوكر واقع  
خلونا فكانت عفة لا تعفف      وقد رفعت في الحي عنا الموانع  
سلوا مضجعي عني وعنهما فإتنا      رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

فإلى من توجه هذا الكلام أيها الفاجر العفيف:

وما رأيك إذا خبرناك أننا سألتنا تلك المضاجع فأنبأتنا أن أكاذيبك الطريفة

لن تمنع من دخولك الجنة مع الصادقين!

أيها السادة:

تذكروا أن الشريف شاعر، وللشعراء أضيال أفضل من الهداية وأكاذيب  
أشرف من الصدق، وعبث ماجن هو في جوهره أنضر وأطيب من الجدد  
الرزين.

## حجازيات الشريف

أيها السادة:

سمعتم فيما سلف أن الشريف الرضي تفتحت عبقريته بفضل طريق الحج، وموسم الحج، ورأيتم أقباسًا من جذوات وجدته المشبوب، ونريد اليوم أن نتكلم بالتفصيل عن قصائده الحجازيات.

ولي مع تلك الحجازيات تاريخ، فقد أقيمت عنها محاضرة في نادي الموظفين بالقاهرة منذ سنين، ثم كتبت بعد ذلك فصولًا مطولة في جريدة البلاغ، وقد حاولت إحضار تلك الفصول من القاهرة؛ ولكنني لم أستطع، فأنا أكتبها للمرة الثالثة، وذلك عناء أَتَقَبَّلُهُ في سبيل الشاعر البكاء الذي خلد مواسم العيون والقلوب.

أيها السادة:

إن أسلافنا لم يخطئوا حين جعلوا حجازيات الشريف من فرائد الشعر العربي، فهي قصائد تفردت بغرائب من الأحاسيس، والشريف في هذه القصائد من فحول الابتكار والابتداع، فهو لا يكرر ما سبق إليه الشعراء، وإنما تتفجر عبقريته عن معانٍ طريفة تشوّق الأذواق والعقول.

والشريف في الحجازيات كأبي نواس في الخمریات، فإن أبا نواس ألحَّ إلحاحًا شديدًا في وصف الصهباء، وكانت لجاجته في وصفها خليقة بأن تقذف به في مهاوي الإسفاف؛ ولكنه تماسك وظل دائمًا من المبدعين.

وكذلك الشريف، فهو لم يكتفِ في وصف موسم الحج بقصيدة أو قصيدتين أو ثلاث قصائد أو سبع قصائد، وإنما قال وأعاد، ثم قال وأعاد حتى بلغت قصائده في الجنين إلى موسم الحج نحو الأربعين.

وأنتم تدركون أيها السادة خطر هذا الإسراف، فقد كان كفيلاً بأن يسوقه إلى مدارج الابتذال؛ ولكن الشاعر ظل قوياً، وظلت معانيه جديدة على الزمان، فهو في حجازياته قادر على أن يبهر بيرون وجوت وميسيه، ومن إليهم من الشعراء الذي جعلوا الحب شريعة إنسانية لها من الشعر فرقان وإنجيل.

وإني لأخشى أيها السادة أن أكون بهذه الإشارة ظلمت الشريف، فالشعراء العشاق في فرنسا وإنجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا عاشوا في بلاد لا تدعي أنها تحرس الدين والتقاليد في الأندية الأدبية.

أعني: أنهم نظموا قصائد الحب في بيئات يغلب عليها المرح، ويصرّفها الفتون، فالشاعر كانت تسوقه المغريات إلى التشبيب، والملاح اللائي يدرن الأندية الأدبية إدارة الكئوس كنّ يطلبن بالقول أو بوحى الملاحظ أن تكون لهن سيرة كالجداول المعطرة في قصائد الشعراء، فلم يكن من المستغرب ولا المستبعد أن تتسع مذاهب القول في وصف الوسامة والجمال.

أما الشريف فكان ينظم الحجازيات في مواطن لا يجوز فيها رفث ولا فسوق، وينشدها بين أقوام يصطحبون ويغتمون بالتسييح والتكبير والتهيل.

فأنصفوا الحق أيها السادة، واعترفوا بأن الحجازيات ما كانت تصدر عن شاعر يعيش في بيئة مثقلة بالتحرج، والتعفف، والتنسك، إلا إن كانت جذوات صدره أقوى وأعنف من أن تطفئها شآبيب التحنف بين زمزم والخطيم.

أنتم اليوم في عصر يسمونه (القرن العشرين) ويزعمون أنه حرر المشاعر والقلوب من رباق التقاليد، فهل فيكم شاعر يملك من الجرأة ما كان يملك الشريف منذ نحو ألف سنة، يوم كانت قالة السوء تصرف رجلاً مثله عن ولاية المظالم، وإمارة الحج، ونقابة الأشراف؟

هل يستطيع طلعت حرب وهو رجل حر الذهن، والعقل أن يضيف إلى الشريط السينمائي، شريط الحج، منظرًا يمثل موقعة غرامية في سفح عرفات؟

إنه لو فعل؛ لقامت قيامة المتزمتين في مصر، والمغرب، والشام، واليمن، والحجاز، والعراق، ولقال القائلون: إنها دسيسة يراد بها انتهاك المناسك، والغض من هيبة الإسلام.

تصوروا أيها السادة أن وصف الحسن الذي ينثر أيام الصيف على الشواطئ المصرية يضيف الشاعر أو الكاتب إلى عصبة الماجنين، وإن صح لأحد شعرائنا أن يقول في شاطئ الإسكندرية:

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| رعاه الحب من شط جميل     | خفيف الروح مصقول أنيق      |
| بهي الرمل محسبه سجعوفاً  | مطرزة بحبات العقيق         |
| أطوف به فيغلبني خشوعي    | كأنني طففت بالبيت العتيق   |
| أيأ حرم الظبا أنرت روعي  | بمكشاة من الحسن الرفيق     |
| يراك الأكمهون حمى مباحاً | يذكرهم بأسواق الرقيق       |
| ولو كشفت غشاوتهم لقالوا  | صبايا الخلد تسبح في الرجيق |

إنه لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان مثال الجرأة، والشجاعة حين استطاع أن يؤرخ هواه في أيام الحج بقصائده الحجازيات، وهذه الجرأة كانت من فيض الشاعرية، فإن الشاعر الحق أشجع الناس، وأقدرهم على الاستهانة بالمكانه، والحتوف.

قد تقولون: إن عمر بن ربيعة سبقه إلى هذه الجرأة.

ونجيب: بأن الفرق بعيد بين الشاعرين:

فعمر بن أبي ربيعة نشأ في صدر الإسلام يوم كان ديناً سمحاً لا تثقله

الأوهام التي أثقلته فيما بعد، حين حمل أوزار الواغليين الذين نقلوا إليه أوضاع التزمت والجمود، فيما ورثوا عن أصولهم في الشرق أو في الغرب، من بلادات المتزهدين، وغباوات المتقشفين، ورقاعات المتنسكين، كان عمر بن أبي ربيعة يعيش بين أمراء وخلفاء كانوا في حقيقة الأمر من أشرف الفتيان، وكان الناسكون لعهد رجالاتهم لا ينكرون حقوق الأفتدة والقلوب.

أما الشريف فعاش في الصدر الثاني من القرن الرابع بعد أن حمل الإسلام ما حمل من عسير التقاليد، وبعد أن كانت بغداد قد عرفت ألواناً من التزهّد، والتقشف تجعل الغزل في مواسم الحج ضرباً من اللهو والفجور، مع استثناء الطرفاء من الصوفيين العراقيين الذين أطفنا بأخبارهم في كتاب (التصوف الإسلامي).

ذلك فرق بين العصرين: عصر صديقنا عمر، وعصر أستاذنا الشريف.

وهنا فرق بين الرجلين: فعمر بن أبي ربيعة كان في يأس من المجد السياسي، فلم يكن ينتظر أبداً أن يكون له مجال في سياسة الدولة الإسلامية التي استبدت بها الأمويون؛ وكذلك أقبل على دنياه ينهب منها ما تسمح به مواسم الحج من التطلع إلى الحدود النواضر، والعيون الفواتك، ويخلق لنفسه آفاقاً من السيطرة الوجدانية تعوّض ما فاته من السيطرة السياسية، والإنسان حيوان لثيم يهيمه أن يسيطر في أي ميدان.

أما الشريف فكان له حال غير تلك الحال، كان الشريف علويّاً، والعلويون كانت لهم مطامع سياسية توارثوها من جيلٍ إلى جيل.

والذي يراجع ما فصلناه في كتاب (المدائح النبوية) يعرف أن أولئك القوم كانوا بلغوا غاية الغايات في رياضة أبنائهم، وأحفادهم، وأسباطهم على الإيمان بأنهم مظلومون، وأن الدنيا لا تصلح إلا إن رجع إليهم الأمر في قيادة

المسلمين، وقد وصلوا في ذلك إلى غاية لا تُحتمل ولا تُطاق؛ فكانوا يتصورون أن الدنيا - إن لم يسوسوها - ستظل ظلمات من فوقها ظلمات.

وكان الشريف الرضى يرى نفسه أهلاً للخلافة الإسلامية، وساعده على ذلك مركز أبيه في المجتمع، وتشرفه بالانتساب إلى علي بن أبي طالب، وكان لعلي بن أبي طالب سلطة روحية هائلة في تلك العهود، ويكفي أن نحدثكم أن الخليفة القادر أذاع في الناس أنه رأى في منامه نهر الصليق قد اتسع حتى صار عرض دجلة دفعات، وأنه سار على حافته؛ فرأى عليه قنطرة عظيمة؛ فأراد أن يعبر فانبثق النهر من حوله فرأى شخصاً يناديه أتريد أنه تعبر؟!!

فقال: نعم؛ فمد يده حتى وصلت إليه وأخذه فعبر به وهاله الفعل؛ فسأل من يكون هذا المتفضل بنجاته؟!!

فقال صاحب اليد الكريمة: علي بن أبي طالب، هذا الأمر صائر إليك، ويطول عمرك فيه، فأحسن إلى ولدي وشيعتي.

وهذه الرؤيا الصحيحة أو المخترعة تشهد بأن العلويين في ذلك العهد كان ينصب لهم ميزان، وكان الخلفاء العباسيون يرون من السياسة أن يداروهم بالثناء على جدّهم أمير المؤمنين.

وكانت الظروف تسمح ببعض السماح بأن يتطلع الشريف إلى الخلافة، فقد كان له في ذات نفسه خصائص ترشحه لذلك المنصب: كان من أسباط الرسول، وكان متفوقاً في العلوم النقلية والعقلية، وكان جميل الوجه جداً، بحيث استطاع بعض أساتذته أن يقول: إنه لم تستبح النظر إلى وجهه إلا بعد أن اخضر شارب، ونبت عارضاه، والجمال كان من الصفات الماثورة عن الرجل الذي أعز العرب في بقاع الأرض، وخلد لغتهم على وجه الزمان، الرجل الذي اسمه أحمد عليه السلام، وحشرنا في زمرة أصفياه يوم يقوم الحساب.

كان ذلك أيها السادة حال الشريف، فتصنّروا كيف جاز لرجل له مثل تلك الأمانى أن يفضح نفسه بين الناس؛ فيصرح بأنه من عبيد النحور والحدود والعيون؟

إن ذلك لا يقع إلا في حالين اثنين: حال الشعر، وحال الجنون.

وما أعتقد أن الشريف كان من المجانين، فلم يبقَ إلا أن يكون من الشعراء.

وما أدعوكم إلى الخروج على تقاليد المجتمع؛ لتعربدوا في معاقرة الحسن عربدة الشريف، لا، وإنما أرجوكم أن ترحموه وتعطفوا عليه، فهو من سلالة قَلَّ فيها الشعر جدًّا، حتى صار من كنايات العرب أن يقال: فلان من نسل الرسول؛ ويعنون أنه لا يصلح للانتساب إلى الشعراء.

وما كان من الحق أن ينسلخ أسباط الرسول من الشاعرية، وإنما السبب في ذلك أن القبائل التي كانت ترشح نفسها للملك لم تكن ترى الشعر مما يليق بالملوك والخلفاء، وذلك باب من القول فصلته في كتاب (النثر الفني) فلا أعود إليه في هذا المساء، ويكفي أن تذكروا أن الشاعرية لا تزكو إلا إن عاش الشاعر عيش البلبل ينتقل كيف يشاء بين أماليد الأفانين، والتأهب للملك يوجب أن يصير الرجل من عبيد المجتمع؛ فيعيش كرئيس الجمهورية الفرنسية لا يلقي أية كلمة في أي محفل إلا بعد استئذان.

وأريد أيها السادة أن أقول: إن الشريف الرضي لم يكن يصلح لغير الشعر، وأخشى أن أقول: إن إمارته للحج لم تكن إلا منحة يتفضل بها عليه الخلفاء العباسيون؛ ليكون الفتى الذي اسمه الشريف الرضي خليفة للشيخ الذي اسمه أبو أحمد الموسوي.

ولكن شاعرنا جمع بين المزيّتين، فكان أميرًا للحجّ، أميرًا فقيهاً يقدم إلى الحجّيج العراقي ما يبصره بالمشاعر والمناسك، وكان شاعرًا يتلهف على الحسن تلهف الظامئ إلى الورد المنوع.

فإن اختال علينا أهل الأدب والذوق من اللاتينيين، والسكسونيين، والجرمانيين بأن عندهم قسيسين ورهبانًا يدركون أسرار الأدب الرفيع، فستقول إن عندنا "شيخًا" يؤدي الفرائض، والنوافل، ويقرأ الأوراد، وهو مع ذلك شاعر حساس يفوق جوت وبيرون ولا مرتين.

فإن سألوا: ومن هو ذلك الشيخ الشاعر؟

قلنا هو الشيخ الذي ذهب لأداء فريضة الحجّ فبهرتة الصباحة فقال:

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| نظرتك نظرة بالخيف كانت   | جلاء العين مني بل قذاها    |
| ولم يك غير موقفنا فطارت  | بكل قبيلة منا نواها        |
| فواها كيف تجمعنا الليالي | وأها من تفرقنا وآها!!      |
| وأقسم بالوقوف على ألال   | ومن شهد الجمار ومن رماها   |
| وأركان العتيق وبانيهها   | وزمزم والمقام ومن سقاها    |
| لأنت النفس خالصة فإن لم  | تكوينها فأنت إذن مناها     |
| نظرت ببطن مكة أم خشف     | تبغم وهي ناشدة طلاها       |
| وأعجبني ملامح منك فيها   | فقلت أخوا القرينة أم تراها |
| فلولا أنسي رجل حرام      | ضممت قرونها ولثمت فاهها    |

تلکم إحدى طلائع الحجازيات، فلتتناولها بشيء من التحليل ولنبدأ بهذين البيتين:

|                          |                       |
|--------------------------|-----------------------|
| ولم يك غير موقفنا فطارت  | بكل قبيلة منا نواها   |
| فواها كيف تجمعنا الليالي | وأها من تفرقنا وآها!! |

فذلكم شاعر يطوف بالبيت فتقع عينه على غرائب الحسن، ثم يكشف الواقع غشاوة هواه، إذ يعرف أنها لحظة لن تعود، ومن الذي يضمن للشاعر أن يسمح الزمان اللعوب بأن يرد إليه هوى قلبه بعد عام أو عامين؟

وهل يمكن أن تسمح ظروف العيش لإنسانة هاجرت في سبيل الحج من الأندلس أو المغرب أو مصر أو الشام أن تعود لتلك المواقف مرة ثانية؟

من الذي يضمن لك حين تقع عينك على وجه جميل في بلد غريب أن تجود الأيام برؤيته مرة ثانية، ولو في عرض الطريق؟ وهل تعرف المقادير قلب الشاعر فتعطف على جواه؟

إن الشريف يؤلف المقاطع من قلبه الممزق وهو يقول:

فواها كيف تجمعنا الليالي وأهنا من تفرقنا وآها!!

وإن حاله لشبيه بحال صديق أعرفه بعض المعرفة، ولعله يلبس إهابي،

وربما كانت معرفتي بذلك الصديق هي السر في اهتمامي بحجازيات الشريف،

وكان ذلك الصديق رأى فتاة ألمانية بقطار المترو في باريس؛ فدعاها إلى معاينة

الحديث ساعة أو ساعتين؛ فاعتذرت بأنها على سفر ثم قالت وهي تواسيه: On

se verra peut être!

وقد ركب صديقنا المترو ألف مرة، وحج باريس مرات، ولم يسمح الزمن

بأن تقع عينه مرة ثانية على تلك العيون فوا حرَّ قلباه!

واتفق لذلك الصديق أن يدعو فريق من أصفياؤه إلى زيارة نورمنديا في

موسم الأزهار؛ أزهار التفاح، فزارها وهو باسم، وهاله أن يرى أزهار التفاح

فوق الأشجار. وفوق الحدود، فأقسم ليزورن نورمنديا في كل عام مرة؛ ولكن

الزيارة الأولى لبساتين التفاح كانت في الوقت الذي فرغ فيه من دراسته

بالسوربون، فكانت أيامه بتلك البساتين أول العهد وآخر العهد، وقد رجع إلى فرنسا بعد ذلك؛ ولكنه وا أسفاه كان يصل بعد (مايو) شهر الأزهار والرياحين، وقد علمت أن شواغله في دنياه لن تسمح له أبدًا برؤية نورمنديا في شهر مايو، إلا أن يصبح من تقاليد الحكومات أن ترسل البعثات؛ لتثقيف الذوق والوجدان!

يكفي هذا في الطواف حول هذين البيتين، ونترك لأذواقكم درس الحسن في بقية القطعة، وننتقل إلى الأبيات الآتية وقد قالها في مدينة الرسول في المحرم سنة ٣٩٤:

|                                   |                           |
|-----------------------------------|---------------------------|
| وما كنت أدري الحب حتى تعرضت       | عيون ظباء بالمدينة عين    |
| فوالله ما أدري الغداة رميننا      | عن النبع أم عن أعين وجفون |
| بكل حثًا منارمئة نابل             | قوي على الأحشاء غير أمين  |
| جلون الحداق النجل وهي مقامنا      | ووارين أجيادًا وسودقرون   |
| ولولا العيون النجل ما قادنا الهوى | لكل لبان واضح وجبين       |
| يلجلجن قضبان البشام عشية          | على ثغب من ريقهن معين     |
| تسرى بردًا يسدي إلى القلب برده    | فينقع من قبل المذاق بحين  |
| تمسكت لما خالط اللب لحظها         | وقد جن منه القلب أي جنون  |
| وما كان إلا وقفة ثم لم تدع        | دواعي النوى منهن غير ظنون |
| نصت المطايا أبتغي رشد مذهبي       | فأقلعن عني والغوايبة دوني |

فما رأيكم في هذه الأبيات؟ قد تقولون: إن فيها معاني مألوفة، وهو كذلك؛ ولكن هل تغيب عنكم قوة إحساسه بالمألوف من تلك المعاني؟!

أرجوكم أن ترجعوا إلى الفصل الذي أنشأناه عن المبتذل والطريف في الجزء الأول من كتاب النثر الفني؛ لتعرفوا بوضوح كيف يكون المعنى مألوفًا ثم يكون صاحبه أشعر الناس؛ لأنه أحسنه أقوى إحساس.

ومن الذي ينكر قوة الشاعرية في هذا البيت؟!  
 يلجلجن قضبان البشام عشية على ثغب من ريقهن معين  
 من الذي ينكر أن كلمة (يلجلجن) على ثقلها وقعت أجمل موقع في هذا  
 البيت؟!

ومن الذي ينكر طرافة الخيال في هذا البيت؟  
 ترى بردًا يعدي إلى القلب برده فينقع من قبل المذاق بحين  
 والمهم عندي هو النص على عبقرية السحر في هذا البيت:  
 وما كان إلا وقفة ثم لم تدع دواعي النوى منهن غير ظنون  
 المهم أن تتصوروا مبلغ إحساسه بالوحشة لفقد الجمال، وأن تذكروا كيف  
 يتشوق ويلتاع.

وهذه الأبيات:

|                                |                              |
|--------------------------------|------------------------------|
| غزالاً رمى قلبي وراح سليما     | تذكرت بين المأزمين إلى منى   |
| فإني ألقى غيبهن أليما          | لئن كنت أستحي مواقع نبليه    |
| فما عاد مأجورًا وعاد أثيما     | أصاب حرامًا ينشد الأجر حسبه  |
| ولكن أسقامًا أصببن سقيما       | فلو كان قلبي بارئًا ما ألتته |
| نكاسًا إذا ما عاد عاد مقيما    | إذا بل من داء أعادت له المها |
| وهيهات داء الحب كان قديما      | يظنونني استطرفت داء من الهوى |
| وأخفق قناص يكون رحيمًا         | قنصت بجمع شادنا فرحمته       |
| غزالاً على قلبي الغداة كريبًا؟ | أأغدو مهينًا بالجائبل ساعة   |
| سرت عنك إلا عبقة ونسيما        | ترأت لنا بالخيف نفح لطيمة    |
| ذوات يسار ما قضين غريبًا       | ولم أر مثل الماطلات عشية     |

وهذا أبيات هادئة النفس؛ ولكن ما رأيكم في هذا البيت؟  
 أصاب حرامًا ينشد الأجر حسبة فما عاد مأجورًا وعاد أثيمًا  
 إن الشريف كان يتوهم أنه كحمام الحرم لا يطرد ولا يصاد، وكان يجهل أن  
 الحرم يباح فيه صيد القلوب!... وهذا البيت.  
 قنصت بجمع شادنا فرحمته وأخفق قناص يكون رحيمًا  
 فهو يمثل الحسرة اللاذعة التي يحسها من يرحم الجمال، فيضيع منه  
 الجمال.

وهذا البيت:

ولم أر مثل الماطلات عشية ذوات يسار ما قضين غريبا

وهو يمثل لؤم الملاح؛ فهن يملكن الوفاء، ثم لا يقدمن غير الصدود.

وفي منطق الشريف أن المليحة يقبح منها المظل؛ لأنها موسرة بالحسن  
 والصباحة، والشاعر لا يطلب غير الأنس بالحسن؛ والصباحة والجود لا يتلف  
 المحاسن كما يتلف الأموال!

وما رأيكم في هذه القصيدة التي سارت في المشرقين والمغربين، وعارضها  
 جمهور من الشعراء:

|  |                            |
|--|----------------------------|
| يا ظيية البان ترعى في خمائله               | ليهنك اليوم أن القلب مرعاك |
| الماء عندك مبذول لشاربه                    | وليس يرويك إلا مدمع الباكي |
| هبت لنا من رياح الغور <sup>(١)</sup> رائحة | بعد الرقاد عرفناها بربناك  |
| ثم اثنيننا إذا ما هزنا طرب                 | على الرحال تعلقنا بذكراك   |
| سهم أصاب وراميه بنذي سلم                   | من بالعراق لقد أبعدت مرمك  |

(١) الغور: اسم لعدة مواضع.

وعَدُّ لعينيك عندي ما وفيت به  
 حكّت لحاظك ما في الريم من مُلح<sup>(١)</sup>  
 كأن طرفك يوم الجزع يجبرنا  
 أنت التعميم لقلبي والعذاب له  
 عندي رسائل شوق لست أذكرها  
 سقى منى وليالي الخيف ما شربت  
 إذا يلتقي كل ذي دين وماطله  
 لما غدا السرب يعطو<sup>(٢)</sup> بين أرحلنا  
 هامت بك العين لم تتبع سواك هوى  
 حتى دنا السرب ما أحيت من كمد  
 يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا  
 وحبذا وقفة والركب مغتفل  
 لو كانت اللمة السوداء من عددي

يا قرب ما كذبت عيني عيناك  
 يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي  
 بما طوي عنك من أساء قتلاك  
 فما أَمَرَكَ في قلبي وأحلاك  
 لولا الرقيب لقد بلغتها فاك  
 من الغمام وحيها وحياك  
 منا ويمتصع المشكو والشاكي  
 ما كان فيه غريم القلب إلّاك  
 مَنْ عَلَّمَ العين أن القلب يهواك حتى  
 قتلى هواك ولا فاديت أسراك  
 ونظفة غمست فيها ثناياك  
 على ثرى وخذت فيه مطاياك<sup>(٣)</sup>  
 يوم الغميم<sup>(٤)</sup> لما أفلت أشراكي

فماذا ترون في هذه القصيدة العصماء؟ خبروني ماذا ترون فإنها تسمو على كل تحليل؟

أيكون السحر في أن يصبح القلب مرعى تلك الغزالة؟ أيكون السحر في أن لا يروها الماء المبذول وإنما يروها الدمع المسفوح؟! أم يكون في أن يعرف العاشق مهب الريح بما تحمل عنها من نفحات؟! وما هو ذلك السهم الذي يبعد مرماه فيصيب وهو بذني سلم أحشاء من في العراق؟

(١) جمع مُلحة: بضم الميم وهي ما يستملح ويستطاب.

(٢) يعطو: من العطو وهو تناول ورفع الرأس واليدين.

(٣) مغتفل: من الغفلة والمراد بها الإغفاء. والوخد: سير.

(٤) الغميم: موضع.



وحين قال:

كأن طرفك يوم الجزع يجبرنا بما طوي عنك من أسماء قتلاك

فهو يرى للعيون أعمالاً يجهلها أهل العيون، والأمر والله كذلك؛ ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

ويقول:

حكّت لحاظك ما في الريم من مُلح يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي

فيرينا أن الحلاوة في عيون النساء أمتع من الحلاوة في عيون الأطباء.

والحق في هذه لقضية أن عيون الغزلان في غاية من الروعة؛ ولكنها محرومة من صفة أساسية في عيون الملاح وهي الإفصاح، أو ما يعبر عنه الفرنسيون بكلمة Regrad tissreex فعين الطيبة تروعك؛ ولكنها لا تتحدثك، أما عين المرأة فتروعك وتفضي إليك في لحظة واحدة بألف حديث وحديث، ولعل الشريف قصد إلى ذلك حين قال:

فكان الفضل للحاكي

وانظروا كيف سجل مناسك الحج بهذين البيتين:

سقى منى وليالي الخيف ما شربت من الغمام وحياها وحياك  
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله منا ويجتمع المشكؤ والشاكي

فهل رأيتم أظرف من هذا الكلام؟! وهل تدركون ما فيه من دقيق الإشارات؟!!

اغفروا لي هذه الهفوة، فما أتهمكم بالجهل، والعياذ بالذوق، وإنما أريد أن أهجم على الشريف فأقول: إنه كان يتخذ أيام الحج مواعيد غرام، وأخشى أن أقول: إنه لم يكن يفارق مناسك الحج إلا على ميعاد.

وهذا يفسر حرصه على إماراة الحج بالأصالة عن نفسه أو بالنيابة عن أبيه، ولا تستكثروا أن يحج الرجل؛ ليرى امرأة يهواها، أو أن تحج المرأة؛ لترى رجلاً تهواه، فقد كنا ننظم المواعيد في القطار بين ليون وباريس، مواعيد لعام أو عامين، ثم نفي فنلتقي بعد عام أو عامين، وللقلوب غرائب لا تدرکہا العقول.

وما الذي يمنع من مجاراة أبي عمرو بن العلاء في الحكم بين الأعشى ولييد؟!

أتذكرون ما قال أبو عمرو بن العلاء؟!

إنه قال: لييد رجل صالح، والأعشى رجل شاعر.

وكذلك أحكّم بأن الشريف رجل شاعر وليس برجل صالح.

وهل قلّ الصالحون في الدنيا حتى نشرفهم بالشريف؟!

إن الأغبياء يعدون بالألوف، وألوف الألوف، وإماراة الحج تولاها مئات ممن يحسنون التسييح والتهليل، فليكن فيهم رجل واحد يفهم أن الحج معرض من معارض الجمال في أمة قامت تقاليدھا على الاستهانة بالجمال.

لتكن حجازيات الشريف هي الشاهد على أن ماضينا لم يكن كتلة من الجمود، وإنما كان ماضي أمة حية تدرك دقائق الأحاسيس تأملوا هذه الصورة:  
لما غدا السرب يعطوبين أرحلنا      ما كان فيه غريم القلب إلاك  
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى      من علم العين أن القلب يهواك

ثم انظروا كيف يضل المرء بين الحسان وليس له فيهن إلا محبوبة واحدة، وذلك أظرف أنواع الضلال؟

وتأملوا قوله:

وجذا وقفة والركب مغتفل على ثرى وخذت فيه مطاياك

فهذا البيت يشهد بأن شاعرنا كان ينتهب الفرص التي يغفو فيها الركب ليمتص القلب اليقظ بما يوحي الهوى من انتهاب القبلات.

وما رأيكم في هذه الأبيات:

|  |   |
|--|---|
| أيهما الرائح المغذ <sup>(١)</sup> تحمل   | حاجة للمعذب المشتاق                     |
| أقر عني السلام أهلي المصل <sup>(٢)</sup> | فبلاغ السلام بعض التلاقي <sup>(٣)</sup> |
| وإذا ما مررت بالخيف فاشهد                | أن قلبي إليه بالأشواق                   |
| وإذا ما سئلت عني فقل نض                  | وهوى ما أظنه اليوم باقي                 |
| ضاع قلبي فانشده لي بين جمع               | ومني عند بعض تلك الحداق                 |
| وابك عني فظالما كنت من قبل               | أعير الدموع للعشاق                      |

ما رأيكم في إحساس من يحكم بأن بلاغ السلام بعض التلاقي؟

ما رأيكم فيمن يشعر بالأنس حين يمر بخاطر من يهواه؟

والشاعر واثق بأن هناك قلباً تسأل عنه حين يغيب، وما أسعد من يشعر بأن في الدنيا قلباً تسأل عنه حين يغيب! وشاعرنا لا تفارقه السيطرة العلوية، فهو يحب أن يبكيه الأحباب، فيوصي الرسول بأن يحدثهم أنه أصبح في حكم الفنانين، عساه يظفر منهم بزفرة أو شهقة أو أنين.

وما هذا البيت:

(١) المغذ: المسرع.

(٢) في الديوان (وبلاغ السلام بعد التلاقي) والصواب ما أثبتناه.

(٣) المصل: اسم موضع.

ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومنى عند بعض تلك الحداق

أتعرفون كيف تضيع القلوب؟ وكيف ينشدها الناشدون؟ أتחסون المعنى  
الملفوف في هذه الكلمة "عند بعض تلك الحداق"؟ أتفهمون من هذا أن  
الرجل كان له في الحجاز هوى خاص؟

وهذا البيت:

وابك عني فطالما كنت من قبل أعير الدموع للعشاق

أنت كنت تعير الدموع للعشاق؟

ليت العباس بن الأحنف كان رآك قبل أن يقول:

نزف البكاء دموع عيناك فاستعر عينا لغيرك دمعها مدرار  
من ذا يعيرك عينه تبكي بها؟ أرايت عينا للدموع تعار؟

لقد بكى العشاق عنك، وبكوا ثم بكوا، فإن لم تصدق فأنصت من عالم  
الغيب؛ لترى كيف يسمع أهل العراق أبياتك هذه مرات في كل يوم من  
حنجرة أم كلثوم.

وهذه الأبيات:

حيّ بين النقا وبين المصلّى وقفات الركائب الأنضاء<sup>(١)</sup>  
ورواح الحجيج ليلة جمع وبجمع مجامع الأهواء  
وتذكر عني مناخ مطيبي بأعالي منى ومرسى خبائي<sup>(٢)</sup>  
وتعمد ذكري إذا كنت بالخيف لظبي من بعض الظباء  
قل له: هل تراك تذكر ما كان بياب القبيبة الحمراء

(١) الأنضاء: المهازل.

(٢) مرسى: من أرسى إذا أقام ومنه: ﴿مجرأها ومرساها﴾.

قل لي: صاحبي غداة التقينا  
 كنت خبرتني بأنك في الوجـ  
 ما ترى النفر والتحمل للبين  
 لم يقلها حتى اثبتت لمابي  
 نتشاكى حر القلوب الظماء  
 د عقيسدي وأن داءك دائمي  
 فماذا انتظارنا للبقاء<sup>(١)</sup>  
 أتلقى جمعي بفضل رادئي

إن الشاعر يحس معنى الحياة في وقفات الركائب الأنضاء؛ لأن السفر لا ينضي الركائب إلا بعد أن تصل بالعاشق إلى هواه، فهو يطرب لوقفاتها في قرار واطمئنان.

والشاعر يوصي رفيقه بأن يتذكر عنه مناخ مطاياها، وتلك لفته شعرية لا يدركها إلا الأقلون.

وكما حدثنا عن بعض تلك الحداق يحدث عن بعض تلك الظباء فيقول:  
 وتعمد ذكري إذا كنت بالخيف      لظبي من بعض تلك الظباء  
 قل له: هل تراك تذكر ما كا      ن بباب القبيصة الحمراء؟

وعبارة "ما كان" عبارة لطيفة يوشىها الذوق، وهي أبرع من عبارة ابن المعتز إذ يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره      فظنّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر

لأن ابن المعتز أحاط عبارته بالشبهات، أما الأبيات الأخيرة فهي تشعركم بأن الشريف لم يكن يودع مناسك الحج بالتلبية والتكبير، وإنما كان يودعها بزفرة من المتاع على ما يفارق من حدود وعيون.

(١) النفر: هو تفرق الحاج عن منى.

أيها السادة:

ما رأيكم في هذا القصيد المرقص:  
 مَنْ مَعِيدِي أَيَا  
 وَلِيَالِي بِجَمْعِ  
 وَظَبْيَاءَ حَالِيَاتِ  
 رَائِحَاتِ فِي جَلَابِيبِ  
 رَامِيَاتِ بِالْعَيُونِ النَّجْمِ  
 أَلْعَقْرِ الْقَلْبِ رَاحُوا  
 كَيْفَ أَوْدَعْتِ فِئَادِي  
 أَيَا الْقَوَانِصِ مَا  
 فَاتَكَ السَّرْبِ وَمَازُو  
 يَا وَقَوْفًا مَا وَقَفْنَ  
 مَوْقَفًا يَجْمَعُ فِتْيَا  
 نَتَشَاكِي مَاعَانَا  
 نَظَرِي يَشْغَلُ مَنَا  
 كَمِ نَأَى بِالنَّفْرِ عَنَا  
 آهِ مَنْ جِيدَ إِلَى السِّدَا  
 وَغَرَامِ غَيْرِ مَاضِ  
 فُسْقَى بَطْنِ مَنَى وَالْخِ  
 وَزَمَانَنَا نَائِمِ الْعَدَا

مَيِّ بِجَزَعِ السَّمَرَاتِ<sup>(١)</sup>  
 وَمَنَى وَالْجَمْرَاتِ  
 كَظَبْيَاءَ عَاطَلَاتِ  
 السِّدَا مَخْتَمِرَاتِ<sup>(٢)</sup>  
 لَ قَبْلِ الْحَصِيَاتِ  
 أَمْ لَعَقْرِ الْبِدْنَاتِ  
 أَعَيْنَا غَسِيرِ ثَقِيَّاتِ  
 أَحْسَنْتِ صَيْدِ الظُّبْيَاتِ  
 دَتِ غَيْرِ الْحَسْرَاتِ  
 فِي ظِلَالِ السَّلَامَاتِ<sup>(٣)</sup>  
 نِ الْمَسْوِي وَالْفَتِيَّاتِ  
 بِكَلَامِ الْعَنْبَرَاتِ  
 كَلَّ عَيْنِ بِقِنْدَاةِ  
 مِّنْ غَزَالٍ وَمَهْرَاةِ!  
 رَكَّاسِ اللَّفْتَاتِ!  
 بَلَقِيَاءَ غَسِيرَاتِ  
 يَفِ صَوْبِ الْغَادِيَّاتِ  
 لَ مَأْمُونِ الْوَشَاةِ

(١) السَّمَرَاتُ: بضم الميم جمع سَمْرَةٌ وهو اسم موضع. والسَّمْرُ: في الأصل ضرب من الشجر.

(٢) المَخْتَمِرَاتُ: لا بسات الخمار.

(٣) السَّلَامَاتُ: جمع سَلَمَةٌ بالتحريك وهي ضرب من الشجر.

في ليــــــــالٍ كــــــــالــــــــلآلئ  
غرســــــــت عنــــــــدي غــــــــرس  
فــــــــالغــــــــواني مــــــــمــــــــمــــــــزات  
الشــــــــوق مــــــــمــــــــرور الجــــــــنــــــــاة  
أبــــــــن راقٍ لغــــــــرامــــــــي  
وطبــــــــيب لــــــــشــــــــكاتي

ما رأيكم فيمن يرى أن يسمي هذه القصيدة "أنشودة الحجيج"؟

لا تعجبوا من هذا الاقتراح! فمواسم الحج تحتاج إلى ضروب من الأناشيد، ومواسم الحج في شوق إلى من يرجعها إلى عهدها الأول، يوم كانت أقدم ما عرف الناس من المعارض الدولية، مواسم الحج تحتاج إلى شاعر كالشريف؛ يفرق بين عقر البدنات وعقر القلوب، وتحتاج إلى شاعر يعلم الناس أدب الصيد فيقول:

أبــــــــها القــــــــانــــــــص مــــــــا  
فــــــــاتك الــــــــســــــــرب ومــــــــازو  
أحــــــــسنت صــــــــيد الطبــــــــيات  
دت غــــــــير الحــــــــسرات

وتتشوف إلى من تلهف على أيامها فيقول:

أه مــــــــن جــــــــيد إلى الــــــــدا  
وغــــــــرام غــــــــير مــــــــاض  
ر كــــــــثير الــــــــلــــــــفتــــــــات  
بــــــــلقــــــــاء غــــــــير آت

وأعظم الحسرات أن تتشوف إلى أنس لن يعود، ويرحم الله أرباب القلوب!

وهذه القصيدة التي تسجل لوعة القلب إلى ما شهد في طريق الحج من

سباب الفتون:

خذي نــــــــفسي يا ربيــــــــح من جــــــــانــــــــب الحمــــــــى  
فإن بــــــــذاك الحمــــــــى إلــــــــقــــــــا عهــــــــدته  
فلاقي بها لــــــــيلاً نــــــــسيم ربا نــــــــجد  
وبالرغم من أن يطول به عهــــــــدي  
ولولا تــــــــداوى القلب من ألم الجوى  
بذكر تــــــــلاقينا قضيت من الوجود

وإنا صاحبيّ اليوم عوجًا لتسألنا  
 عن الحي بالجزءاء جزءاء مالك  
 كأن بعيني بعدهم عائر القذى"  
 شممت بنجد شبيحة حاجرية  
 ذكرت بها ربا الحبيب على النوى  
 وإني لمجلوب لي الشوق كلما  
 تعرّض رسل الشوق والركب هاجد  
 فقللت لأصحابي ألا تنزافروا  
 وما شرب العشاق إلا بقيتي

والقصيدة واضحة لا تحتاج إلى من يدل على ما فيها من محاسن؛ ولكن لا بد من النص على هذه العبارة: "هل ارتبعوا واخضر وادبهم بعدي؟"

فإنها تصور فهمه لمعاني السعادة في البوادي، وقد يكون في الارتباع والاختضار إشارة إلى ما يتخوفه من أن يأنس الأحباب بغير هواه بعد الفراق، ثم انظروا إحساسه بالفروسية في الحب إذ يقول:

تعرض رسل الشوق والركب هاجد  
 وما شرب العشاق إلا بقيتي  
 فتوقظني من بين نوامهم وحدي  
 ولا وَرَدُوا في الحب إلا على وِزِي

وحدثوني عن شعوركم بهذا المعنى الطريف؟

فذلكم شاعر يرى أن أطياف الشوق تعرفه بين الركب بسياه، ويعتقد أن العشاق لا يَرِدُونَ في الحب إلا على ورده، ولا يشربون إلا بقاياها، والعشاق كالأنبياء لا تجود الدنيا بهم كل يوم؛ وإنما تسمح بهم من جيل إلى أجيال.

(١) الرُّكَيْب: مصغر ركب، وتخدئ: تسرع.

(٢) العائر: كل ما أعل العين، وفي الديوان (عائر) بالغين المعجمة وهو تحريف.

وما رأيكم في هذه الأبيات:

تحمّل جيراننا عن منى  
وهل نافع قول ذي غلة  
تنادوا بأن التنائي غدا  
فلله ما جمع المأزما  
يضاع فينشد قعب<sup>(١)</sup> الغبوق  
وغيداء من ماطلات الديون  
ترجع<sup>(٢)</sup> كما التفتت ظبية  
نظرت وهيئات من ناظريك  
وباربعها والهوى ضلة  
وقالوا التقا بيننا موعد  
وقد بعد الركب لا يبعدوا  
لك السوء من طالع يا غدا  
ن وجمع لقلبي والمسجد  
وقلبي يضاع ولا ينشد  
لهما بالحمى زمن أغيد  
بذي البان عن لها المورد  
ظباء تهامة يا منجد  
ترى العين ما لا تنال اليد

ألا ترون هذه الحسرة الدامية؟ ألا تحسون اللوعة في هذا البيت؟

تنادوا بأن التنائي غدا لك السوء من طالع يا غدا!

بأوجع من لوعة المفارق الذي لا يعرف متى يعود؟ أي لوعة ألم وأوجع  
من لوعة من يودع ناسا لا يدري أيلقاهم مرة ثانية، أم يكون أنسه بهم آخر  
العهد في دنياه؟

وهذا البيت:

وربعها والهوى ضلة ترى العين ما لا تنال اليد

وهل في الدنيا أفظع وأشنع من أن ترى العين ما لا تنال اليد؟

إن هذا أصل الشقاق والنزاع بين طوائف الإنسان والحيوان، وكل شقاء

(١) القعب: بفتح فسكون هو القدح الضخم.

(٢) ترجع: ترجع.

في عالم الذوق والوجدان يرجع إلى أصل واحد: هو أن ترى ولا تملك.

وهل يعرف أحد حقيقة اللوعة في قلب الشاعر الذي يرى امرأة جميلة وهو يعرف أن لن تنالها يده، وأنها مع ذلك قد تكون ملكا لرجل سخي لا يدرك أسرار الجمال؟

ترك هذا الشطط وانتقل إلى هذه الأبيات:

|                                  |                               |
|----------------------------------|-------------------------------|
| ألا يا ليالي الخيف هل يرجع الهوى | إليكن لي لا جازكن ندى القطر   |
| فيا دين قلبي من ثلاث على منى     | مضين، ولم يبقين غير جوى الذكر |
| ورامين وهناب الجمار وإنما        | رموا بين أحشاء المحبين بالجمر |
| رموا لا يبالون الحشا وتروحووا    | خليين والرامي يصيب ولا يدري   |
| وقالوا: غدا ميعادنا النفر عن منى | وما سرتني أن اللقاء مع النفر  |
| ويا بؤس القرب الذي لا نذوقه      | سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر  |
| فيا صاحبي إن تعط صبرا فإني       | نزعت يدي اليوم من طاعة الصبر  |
| وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه     | فميعاد دمع العين منقلب السفر  |

وهذا شعر واضح؛ ولكن لا بد من التذكير ببعض المحاسن؛ كأن ننص على الخيال في هذا البيت:

ورامين وهناب الجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر

وما هو بخيال، وإنما هو حقيقة تراها العيون، ومن الذي ينكر أنه يتمنى أن يكون شيطانا ترجمه بعض الأنامل الرقاق؟ فهل يستكثر على الشريف أن يقول: إن بعض الراميات لا ترمي بالجمار، وإنما ترمي الأحشاء بالجمر المشبوب؟

ما هذه البدعة الطريفة التي تفرد بها الحج الإسلامي؟ ما هذا التلطف الظريف الذي شرعه الإسلام، وهو يوجب على المرأة المليحة أن تمد معصمها

لترمي الجمار؟

أما خطر ببال أحد الفقهاء أن يتصور أن المعصم الجميل قد يكون أفتن،  
وأخطر من الشيطان الذي يرجمه الحجاج؟!!

ليت الدهر يسمح بأن نرى مرة كيف ينعم صديقنا الشيطان، وهو يتلقى  
الرميات من أيدي الملاح! إن حظه لو تعلمون عظيم!

وهذا البيت:

رموا لا يبالون الحشاشا وتروحووا      خلين والرامي يصيب ولا يدري

والمهم هو النص على أن الرامي قد يصيب وهو لا يدري، ذلك منطوق  
الشريف! والأغرب منه أن ننص على أن الرامي قد يقصد هدفا واحدا فيصيب  
هدفين!

وهذا البيت:

ويا بؤس القرب الذي لا نذوقه      سوى ساعة ثم الجعاد مدى الدهر

فذلك هو المعنى الأصيل الذي يدور حوله الشريف في سائر الحجازيات.

وهذه الأبيات وقد قالها عند دخول الحجيج إلى مدينة السلام في شهر  
صفر سنة ٣٩٥:

عارضابي ركب الحجاز أسائله      متى عهدته بسكان سلع<sup>(١)</sup>

(١) معارضة الراكب: هي السير حيال الراكب، وطلع: بفتح أوله وسكون ثانيه جبل أو  
موضع بقرب المدينة تتصل به قصة وجدانية، فقد سمع يزيد بن عبد الملك جاريتة  
تغني هذه الأبيات:

لعمرك إنني لأحب سلعا      لرؤيتها ومن بجوار سلع

نقرر بقربه عينني وإني      لأخشى أن تكون تريد فجمعني

واستملا حديث من سكن الخيف      ولا نكتبناه إلا بسدمعي  
فاتني أن أرى الدير بطرفي      فلعلي أرى الدير بسمعي

هل ترون! ألاتحسون لوعة المشرات إلى أن فاس الظباء  
بالحجاز؟!

ذلكم شاعر فاته أن يحج فلم يبق أمامه إلا أن يتنسم أرواح القادمين ليرى  
الدير بأذنيه، وقد فاته أن يراها بعينه، والعاشق يستببح كل شيء حتى الأنس  
بالخيال، وهو والله مظلوم فقد ينشد القدح الضائع، ولا ينشد الفؤاد  
المفقود.... وهذه الأبيات:

|                     |                       |
|---------------------|-----------------------|
| إني علقت على منى    | لميساء يقتلني لماها   |
| راحت مع الغزلان قد  | لعبت بقلبي ما كفاها   |
| تبغني الثواب فمهجتي | هذين القريحة من رماها |
| وقف الهوى بي عندها  | وسرت بقلبي مقلتهاها   |
| بردت علي كأنها      | ظل الغمامة عارضهاها   |
| شمس أقبل جيدها      | يوم النوى وأجل فاهها  |
| وأذود قلبها ظامئها  | لو قيل وردك ما عداها  |
| ولو استطاع لقد جرى  | مجرى الوشاح على حشاها |
| يا يوم مفترق الرفا  | ق ترى تعود لملتقاها   |
| قالست سيطرك الخيا   | ل من العقيق على نواها |
| فعدي بطيفك مقلّة    | إن غبت تطمع في كراهها |

حلفت برب مكة والمصلى  
لأنت على الثنائي فاعلمييه  
ثم رأها تتنفس الصعداء فقال: لم تتنفسين! والله لو أردته لقلعته حجرا حجرا.  
فقلت: وما أصنع به؟! إنها أردت ساكنيه!

إني شربت من الهوى  
 يا سرحنة بالقاع لم  
 ممنوعة لا ظلهما  
 أكذا تذب عليكمو  
 أين الوجوه أحبها  
 أمسي لها متفقددا  
 واهما ولو أن يلو  
 حمراء صرف ساقياها  
 يبلل بغير دمي ثراها  
 يدنو إلي ولا جناها  
 نفسي وما بلغت منهاها؟  
 وأود لو أني فداها  
 في العائدين ولا أراها  
 م اللائمون لقلت آها

ما رأيكم في هذا الشعر المرقص؟! وما هي التعبيرات التي تفصح عما فيه من فتون؟ ما رأيكم في العذوبة التي تتموج بين ألفاظه، ومعانيه كما يتموج البريق في الشيا العذاب؟!!

حدثوني عند أي بيت نقف لنحدد غرائب البيان؟!!

انظروا هذا البيت:

إني علقـت على منى لياء يقتلني لماها

تجدوا المعنى قديما مبذولا تناهيه مئات! شعراء، ولكن ألا توافقون على أن الشريف أداه تأدية رشيقة حتى كاد يصبح من المبتكرات؟!!

وهذا البيت:

راحت مع الغزلان قد لعبت بقلبي ما كفاها

وهو أيضا معنى قديم؛ ولكن هل تدركون الصورة الشعرية التي تتمثل في قوله:

لعبت بقلبي ما كفاها

وهو يريد أنها لم ترح مع الغزلان إلا بعد أن شبعت لعبًا بذلك القلب الخفاق،  
وهل تشبع الظباء من اللعب بالقلوب؟!

وهذا البيت:

وقف الهوى بي عندها      وسرت بقلبي مقلتهاها

فقد يمكن رجوع صدره إلى قول دعبل:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي      متأخر عنه ولا متقدم

ولكن من الذي يجهل قيمته اللطف في هذه الشطرة "... وسرت بقلبي  
مقلتهاها"؟

وهذا البيت:

بردت عليّ كأنما      ظل الغمامة عارضهاها

والبرد كلمة لها في التشبيب مدلول خاص، وهي تشبه الكلمة الفرنسية

fraisheur

وهذا البيت:

شمس أقبل جيدها      يوم النوى وأجل فاهها

هو أيضًا معنى قديم؛ ولكن لا يكذب من يقول: إنه من مبتكرات  
الشريف.

وهذا البيت:

وأذود قلبًا ظامئنا      لوقيل وردك ما عداها

وما أحسبكم تطالبونني بالتنبيه على ما في هذا البيت البارع من جمال، فإني

أخشى أن تفسده الشروح، وانظروا كيف عَقَّبَ عليه بهذا البيت:  
ولو استطاع لقد جرى مجرى الوشاح على حشاها

وأحب أيها السادة أن تتأملوا الحسن في هذه الأبيات:

|                     |                       |
|---------------------|-----------------------|
| ياسر حجة بالقضاع لم | يلل بغير دمي ثراها    |
| ممنوعة لا ظلها      | يدنوا إلي ولا جناها   |
| أكذا تذبوب عليكم و  | نفي وما بلغت مناها    |
| أبن الوجوه أحبها    | وأود لو أني فسداها    |
| أمسي لها متفقدًا    | في العائدين ولا أراها |
| وأهسا ولو أن يلو    | م اللائمون لقلت آها   |

أتدركون قيمة العذوبة في هذا القصيد؟

اعتذر مرة ثانية، وثالثة، ورابعة عن الارتباب في أذواقكم، فمثلي لا يسيء  
الظن بأذواق أهل العراق، وإنما أعجب حين أرى من يتهمني بالتعصب  
للشريف، ويطالبني بكشف ما عنده من عيوب، وأنا، والله مستعد لكشف  
عيوب الشريف؛ ولكن متى؟ بعد أن يعرف الناس محاسن الشريف.

أليس من العجب العاجب أن لا يعرف هذه القصيدة مغنٍ في تونس أو  
مراكش أو الجزائر أو صنعاء أو مكة أو المدينة أو دمشق أو بيروت أو القاهرة  
أو بغداد، وما إلى أولئك من الحواضر العربية.

لو كانت هذه القصيدة العذبة مما نظم ميسيه أو بيرون أو جوت لكانت  
على جميع الألسنة في بلاد الفرنسيين، والإنجليز، والألمان؛ ولكنها وأسفاه من  
نظم شاعر يجهله أكثر العرب، وينكره بعض أهله في العراق.

أنا لا أقول بأن الشريف ابتكر جميع معانيه، فلأكثرها أصول عند أسلافه

بأقوى، وأعنف ما تتصورون من الإحساس، وقد دعوتكم من قبل إلى مراجعة كتاب "النثر الفنى" لتروا كلمة الحق، والصدق في المبتذل، والطريف، ولتعرفوا أنى في إنصاف هذا الشاعر لم أكن من العابثين.

وهل أستطيع مرة ثالثة أن أدلكم على الحسن في هذين البيتين:

أبـن الـوجـوه أـجـهـا      وأود لـو أنى فـداها  
أمـسـي لـها مـتـفـقـدا      في العائـدين ولا أراها

إن المعنى فيها مأخوذ من قول بعض الشعراء:

ما أقيح الناس في عيني وأسمجهم      إذا نظرت فلم أبصرك في الناس!

ولكن الصورة مختلفة كل الاختلاف.

وأنا أيها السادة أقدر منكم على تجريح الشعراء؛ لأنى قضيت عشرين سنة أو تزيد في تعقب الألفاظ الثرية، والأخيلة الشعرية، وأستطيع أن أهجم على شاعر مثل المتنبي فأثبت أن معانيه كلها من الحديث المعاد؛ ولكنى لو فعلت لكنت من الظالمين؛ لأنى أعرف أن المتنبي أحسن معاني شعره أصدق إحساس، وأومن بأنه لم يكن يغير على معاني سواه، وإنما كان يفترع المعاني افتراعا، وإن أنس بها من قبله كثير من الشعراء.

وهل تظنوننى أجبن عن مصارحتكم بكلمة العدل في هذه القضية، وأنا الذي جبهت بها أساتذتي في السوربون في محضر جمهور يعد بالمئات؟

هل تظنوننى أجبن عن التصريح بأن النقاد القدماء كانوا يلعبون حين أتعبوا أنفسهم وأتعبوا قراءهم فيما سموه بالسراقات الشعرية؟

لقد آن لنا أن نقيم النقد على قواعد علم النفس، وأظننى وصلت في ذلك إلى بعض ما أريد.

ثم نتقل إلى هذه الأبيات:

يا رفيقي قفا نضويكما  
وانشدا قلبي فقد ضيعته  
عارضاً السرب فإن كان فتى  
إن من شاط<sup>(١)</sup> على الحاظها  
نجرح الأعين فينا والطل<sup>(٢)</sup>  
ثم كانت بقباء وقفة  
وحديث كان من لذاته  
غادروني جسدا تظهره  
حبذا منكم خيال طارق  
باخل بخل الذي أرسله  
سرحة أعجلها البين وما  
مارأت عيني منذ فارقتم

بين أعلام النقا والمنحنى  
باختياري بين جمع ومنى  
بالعيون النجل يقضي فأنا  
ضعف من شاط على طول القنا  
قاتل الله الطليو الأعينا  
ضمنت للشوق قلبا ضمنا<sup>(٣)</sup>  
أحد<sup>(٤)</sup> يصغي إلينا أذنا  
لهم الشكوى ويخيفه الضنى  
سرب بالحي ولم يلهم بنا  
سئل النيل وما جاد لنا  
لبس<sup>(٥)</sup> الظل ولا ذيق الجنى  
يا نزول الحي شيئا حسنا

وهذه أبيات تذكر ما فيها من روعة الخيال، ويكفي أن نقف عند هذا البيت:

وحديث كان من لذته      أحد يصغي إلينا أذنا

وليس من العجيب أن تصغي الجبال لأحاديث المحيين، فقد صح لأحد أن يقول:

(١) شاط: احترق وهلك.

(٢) الطلي: بالضم الأعناق أو أصولها، المفرد طلية أو طلاة.

(٣) ضمن: فعل ماض من الضمنة: بالضم وهي المرض.

(٤) أحد بضمين اسم جبل كانت به موقعة مشهورة جدا.

(٥) في الديوان (لبس) وهو تحريف.

وقف النجم وألقى باله  
ويح هذا النجم مما هاله  
ليعد الملح من قلبي وقلبك  
في ضمير الليل من حبي وحبك

على أن صباوات الشريف في مواسم الحج، وفي طريق الحج لم تكن كلها من الوجد العابر الذي يمر مرور الطيف ولا يبقى من نعيمه غير العقابيل، فقد حدثنا أنه طاف بمعاني الوصل إذ قال:

يا ليلة السفح ألا<sup>(١)</sup> عدت ثانية  
ماض من العيش لو يفدي بذلت له  
لم أقض منك لبانات ظفرت بها  
فليت عهدك إذ لم يبقى لي أبدا  
تعجبوا من تمنى القلب مؤلمه  
ردوا علي ليالي التي سلفت  
أقول للائم المهدي ملامته  
وظبية من ظباء الأنس عاطلة  
لو أنها بفناء البيت سانحة  
قدرت منها بلا رقبى ولا حذر  
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى  
وأمست الريح كالغبرى تجاذبنا

سقى زمانك هطال من الديم  
كرائم المال من خيل ومن نعم<sup>(٢)</sup>  
فهل لي اليوم إلا زفرة الندم  
لم يبق عندي عقابيل<sup>(٣)</sup> من السقم  
وما دروا أنه خلو من الألم  
لم أنسهن ولا بالعهد من قدم  
ذق الهوى وإن أسطعت الملام<sup>(٤)</sup> لم<sup>(٥)</sup>  
تستوقف العين بين الخمص والهضم<sup>(٦)</sup>  
لصدتها وابتدعت الصيد في الحرم  
على الذي نام عن ليلى ولم أنم  
يلفنا الشوق من فسرع إلى قدم  
على الكتيب فضول الربط واللمم<sup>(٧)</sup>

(١) ألا: كلمة تحضيض مثل هلا.

(٢) النعم: بالتحريك وقد تسكن عينه: الإبل والشاء، أو هو خاص بالإبل والجمع أنعام.

(٣) العقابيل: بقايا العلة والعداوة والعشوق؛ وما يخرج على الشفة غب الحمى، والشداك.

واحد الكل عقبولة وعقبول بضم العين. وهو ذو عقابيل! أي شير.

(٤) لم يثبت الفاء في جواب الشرط للضرورة.

(٥) الخمص: ضمور البطن، والهضم: بالتحريك لطف الكشح، والكشح ما بين الخاصرة

إلى الضلع الخلف.

(٦) الربط: الثياب، واللمم: جمع لمة بالكسر وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن؛ والمعنى

يضئنا البرق مجتازا على إضم<sup>(١)</sup>  
 مواقع اللثم في داج من الظلم  
 على الوفاء بها والرعي للذم  
 رويحة الفجر بين الضال والسلم<sup>(٢)</sup>  
 حتى تكلم عصفور على علم<sup>(٣)</sup>  
 غير العفاف وراء الغيب والكرم  
 كفأ تشير بقضبان من العنم<sup>(٤)</sup>  
 أرى الجنى بينات الوابل الرذم<sup>(٥)</sup>  
 وفي بواطنتنا بعد من التهم  
 ووقفه بيوت الحي من أمم<sup>(٦)</sup>  
 يعدي على حر قلبي بردها بضمي  
 وإن أبيت تقاضينا إلى حكم  
 وقد بذلت له دون الأنام دمي  
 إلا بكيت ليالينا بذني سلم  
 إلا ذكرت هوى أيامنا القدم  
 فإن قلبي لا يرضى بغيرهم

يشي بنا الطيب أحيانا وأونة  
 وبات بارق ذاك الثغر يوضح لي  
 وبيننا عفة بايعتها بيدي  
 يولع الطل بردينا وقد نسمت  
 وأكتم الصبح عنها وهي غافلة  
 فقمتم أنفض بردا ما تعلقه  
 والمستني وقد جد الوداع بنا  
 وألثمتني ثغرا ما عدلت به  
 ثم انثينا وقد رابت ظواهرنا  
 يا حبذا لمة بالرمل ثانية<sup>(٧)</sup>  
 وحبذا نهلة من فيك باردة  
 دين عليك فإن تقضيه أحي به  
 عجبت من باخل عني بريقته  
 ما ساعفتني الليالي بعد بينهم  
 ولا استجد فؤادي في الزمان هوى  
 لا تطلبن لي الأبدال بعدهم

أن الريح كانت تداعب العاشقين بمجازية الشعر والثياب.

(١) إضم: على وزن عنب جبل، والوادي الذي فيه المدينة النبوية يسمى أسفله ضم.

(٢) ولع الطل البرد: رقمه، والضال والسلم: مما تنبت البادية.

(٣) المراد بالعلم -بالتحريك- المكان المرتفع.

(٤) العنم بالتحريك: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.

(٥) المراد من أرى الجنى: عصير الفواكه ممزوجا بهاء الغيث، والوابل: المطر، والرذم:

المتدفق.

(٦) من أمم: -بالتحريك- أي من قرب.

(٧) اللمة: بالفتح هي المرة من اللام، أي المرور.

والحسرات في هذه القصيدة حسرات شاعر، وهي أقوى من حسرات André chénier على الجدائل المتموجة، والأقدام العارية.

وصورة الشاعر مع محبوبته فوق الرمل وبين وشاية الطيب والبرق، وفي هداية الثغر البراق وفي حراسة العفاف صورة جذابة جدا، وصورة التوديع الذي عاناه بعد ذلك أرق وأظرف وأسف الشاعر على تلك الليلة يذيب القلوب.

والفتوة في صدر الشريف هي التي أنطقته بهذه المعاني، فمن المؤكد أن الدنيا لعهدده لم تكن تخلو من أغبياء يصعب عليهم أن يدركوا كيف يصح العفاف لمن يبيتان ضجيعين، هو رجل خلق للشعر والخيال، ولم يخلق لمدارة المجتمع، ومن كان في مثل حاله لا يصلح للنجاح في المعترك السياسي؛ ولكنه يؤدي لوطنه، وقومه خدمات يعجز عنها السياسيون؛ لأنه يخلق ثقافة الذوق، ويروض النفوس على الأريحية، ويغرس فيها الشوق إلى حب الحياة.

ومن الواضح أن حجازيات الشريف لا تصلح دستورا للحجاج، فقد يجب أن تكون لهم شواغل غير التطلع إلى النحور، والمباسم، والعيون؛ ولكن هل يدعي الشاعر أنه يضع الشرائع للناس؟ وهل للشاعر شريعة واضحة الرسوم حتى يفكر في سن الشرائع؟

إن الشعراء كالأنهار يجلو لهم الاعوجاج، أما ترون نهر دجلة يمضي يمينا ثم يرجع يسرة؟ أما ترون نهر السين كيف يسير على غير هدى؟ ويفضل ذلك الاعوجاج حسنت مواقع المدائن التي تقوم على شواطئ الأنهار والبحار، ولو كان شاطئ البحر الذي تقوم عليه مدينة الإسكندرية يعرف الاعتدال؛ لكان من المستحيل أن تظفر الإسكندرية بذلك الموقع البديع الذي يمكن الناظر من أن يراها في الليل، وهي كالعقد على نحر المحيط، وشواطئ الإسكندرية لم

تجمل إلا بفضل ذلك الاعوجاج.

كنت أستطيع أن أناقش الشريف فيما ادعاه من العفاف، فأعيد الكلمة التي جاءت في الجزء الثاني من كتاب البدائع؛ كلمة أستاذنا الدكتور: منصور فهمي الذي يرى أن الشهوة قد تخرج من العيون.

ولكن ما رأيكم في أن الله - عز شأنه - لم يضع عقوبة للشهوة التي تخرج من العيون؟

أنكون أغير من الله؟

إن الشريف رجل شاعر، ولا يعيب شعره أن لا يكون من الصالحين.

كم كنت أتمنى أن أحاسب الشريف على ما ادعاه لنفسه من العفاف، ثم صدني عن ذلك شعوري بأنه لم يكن منافقا، وأنا رجل يرى الكفر أهون من النفاق.

أيها السادة:

لقد طال القول في حجازيات الشريف، وما نريد الاستقصاء، فلنختم البحث بقصيدته الياثية وقد قالها قبل أن يموت بأربع سنين، قالها عند توجه الناس إلى الحج في ذي القعدة من سنة ٤٠٠ وهو يتلهف على مواقع عينيه في أرض الحجيج.

تحلون من بعدي العقيق الياثيا  
ونجدا وكثبان اللوى والمطاليا  
فقولوا لديغ بيتغي اليوم راقيا  
وجدتم بنجد لي طيبا مداويا  
تراكم من استبدلتمو بجواريا

أقول لركب رائحين لعلكم  
خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى  
ومروا على أبيات حي برامة  
عدمت دوائني بالعراق فربما  
وقولوا لجيران على الخيف من منى

لواحظه تلك الظباء الجوازيبا<sup>(١)</sup>  
 به ورعى الروض الذي كنت راعيا  
 تذرب عليها قطعة من فؤاديا<sup>(٢)</sup>  
 حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا  
 فإني سأكسوك الدموع الجواريا  
 نسيتم وما استودعتم الود ناسيا  
 وموقفنا نرمي الجمار لياليا  
 حديث النوى حتى رمى بي المراميا  
 فيا راميا لامسك السوء راميا  
 حراما ولم أهبط من الأرض واديا  
 ولم ألق في اللاقين حيا بيانيا  
 بذئ البان لا يشرين إلى غواليا  
 وعشر وعشر نحوكم لي ورائيا  
 وأعلاق وجدي باقيات كما هيا  
 فلا بد أن يلقي بشيرا وناعيا  
 طلى قاصرا عن غابة السرب وانيا<sup>(٣)</sup>

ومن حل ذاك الشعب<sup>(٤)</sup> بعدي وراشقت  
 ومن ورد الماء الذي كنت واردا  
 فوا لهفتى كم لي على الحى شهقة  
 صفا العيش من بعدي لحي على النقايا  
 فيا جبل الريان إن تعمر منهمو  
 ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا  
 أنكرتمو تسليمتنا ليلة النقا  
 عشية جاراتي بعينه شادن  
 رمى مقتلي من بين سجفي غبيطة<sup>(٥)</sup>  
 فيا ليتني لم أعل نشزا إليكمو  
 ولم أدر ما جمع وما جمرتا منى  
 ويا ويح قلبي كيف زايدت في مها<sup>(٦)</sup>  
 ترحلت عنكم لي أمامي نظرة  
 ومن حذر لا أسأل الركب عنكمو  
 ومن يسأل الركبان عن كل غائب  
 وما مغزل أدماء تزجى بروضة

(١) الظباء الجوازي: التي يغنيها العشب عن الماء.

(٢) الشعب بالكسر: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن أرض أو ما انفرج بين الجبلين.

(٣) ارجع إلى تحليل هذه المعاني في كتاب (مدامع العشاق).

(٤) الغبيط: على وزن أمير هو المركب.

(٥) في الديوان (منى).

(٦) المغزل: ذات الغزال، والأدماء: وصف من الأدمة بالضم وهي لون مشرب سوادا أو بياضا، المذكر آدم على وزن أفعل، وبه سمي أبونا آدم، ولم يكن بالتأكيد من الظبا والطلّى بالفتح - ولد الظبي حين يولد والصغير من كل شيء. والواني: المتهمل من

لها بغيات خلفه تزعج الحشا  
 كجس العذارى يختبرن الملاميا  
 يحجور إليها بالبغمام فتنني  
 كما التفت المطلوب يخشى الأعدايا  
 بأروع من ظمياء<sup>(١)</sup> قلبا ومهجة  
 غداة سمعنا للتفرق داعيا  
 تودعنا ما بين شكوى وعبرة  
 وقد أصبح الركب العراقي غاديا  
 فلم أريوم النفر أكثر ضاحكا  
 ولم أريوم النفر أكثر باكيا

هذه أيها السادة أنشودة القلب الحزين، وبها نختم الحجازيات، وكنت أحب أن أتناولها بالنقد، والتحليل؛ ولكنني عرضت لها قبل ذلك في مؤلفاتي عدة مرات، وما أدري أين عرضت لها فقد كثرت مؤلفاتي وطالت، وربما كتم تعرفون عن مؤلفاتي أكثر مما أعرف فأرجعوا إلى ما كتبت في تحليل هذه القصيدة إن كنت تذكرون!

الضعف.

(١) يحجور: يرجع.

(٢) ظمياء: معشوقة الشاعر، وهو اسم اصطفاه الشريف وتلميذه مهيار، وبه سميت ظمياء وصيفة ليلي المريضة في العراق، شفهاها الله.

## بكاء الشباب

أيها السادة:

رايتم غراميات الشريف، وحجازيات الشريف، فلم يبق إلا أن تروا ما صنع في بكاء الشباب، وأنا أستعير هذا العنوان المفعج من كتاب (مدامع العشاق)؛ لأن الشريف بكى شبابه بكاء لم يتفق لشاعر قديم أو حديث، وما ظنكم بشاعر لم يعش أكثر من سبع وأربعين سنة ثم اتفق له أن يبكي شبابه في أكثر من سبع وأربعين قصيدة؟!

ما ظنكم بشاعر مؤجج الإحساس، مرهف الذوق، مفطور القلب، يبكي دنيا الحب بكاء الأطفال، ويخشع أمام ذكريات الشباب خشوع المؤمن أمام المحراب؟

ما ظنكم بشاعر لا يمسي، ولا يصبح، إلا وهو على موعد من عيون الطباء، ثم يروعه الشيب فجأة؛ فيفهم أن الدهر يؤذنه بالقاء السيف، وطى اللواء؟!

ما ظنكم بشاعر معروف ملاعب الهوى على شواطئ دجلة، وشواطئ الفرات وساقه القلب إلى معاقرّة العيون في شتيت البقاع وذاق أطايب الخلوات في مكة والمدينة، وبغداد، ثم ينظر فإذا هو مهدد بالرحيل عن فردوس الصبابة العاتية، والوجد المشبوب؟

ما ظنكم بشاب حاد الشباب عنيفه - كما عبر الدكتور طه حسين - وهو يصف بعض الشبان؟ ما ظنكم بشاب هذا حاله يتلفت فيرى دنيا العافية تهجره، وتجفوه بلا ذنب، ولا جريرة؛ فيوقن أن دنيا المحبين إلى زوال؟!

ما ظنكم بشاعر يؤمن بأن الله لم يخلق أجمل من الشباب، ولم يبدع أنضر من الحب، ثم ينظر مرتاعاً إلى مصيره في الشباب، ومصيره في الحب؟!

ما ظنكم بشاعر يعيش عزيزاً بين الملاح، ثم يعترف بالذل، والضميم حين يرى في فوديه طلائع البياض؟!

والبياض يعشق في كل موضع إلا في الرأس، البياض يعشق في الحدود، والصدور، والمعاصر، والمباسم؛ ولكنه في الشعر بغض ممجوج.

البياض في الزهر بشير الأنس والابتهاج؛ ولكنه في الشعر نذير الحزن والاكتاب.

ولن أنسى ما حييت تلك اللوعة التي سمعتها من المسيو ماسينيون في باريس سنة ١٩٢٩، وكنا نقرأ بعض الأشعار الغرامية؛ فتنهد وقال: لقد فارقت شبابي! فقلت: لا تجزع، فإن الشاعر العربي يقول:

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب      فقلت، وهل قبل الثلاثين ملعب؟  
لقد جل خطب الشيب أن كان كلما      بدت شيبة يعري من اللهو مركب

فتنهد مرة ثانية، وقال: إن الشاعر قال: الثلاثين، ولم يقل: الخمسين!

وسأعيش دهري كله أتحسر على مصاير من عرفت من الرجال في باريس؛ الرجال الذي رأيتهم يبالغون في التلطف مع النساء، وما أتعس الرجل الذي لا تبقى له الأيام من مزية غير التلطف، والترفق في معاملة الملاح!

أيها السادة:

أتحسبونني أبكي شبابي؟، وهل عرفت نعيم الشباب حتى أبكي الشباب؟

إنما أريد أن أهيئ قلوبكم إلى إحساس الفجيعة التي سيتوجع منها الشريف الفجيعة القاسية التي تصور سقوط السماء على الأرض، وغيض البحار، وزوال الجبال!!

أريد أن أصنع مثل الذي صنعت، وأنا أتكلّم عن عمر بن أبي ربيعة بالجامعة المصرية في أواخر سنة ١٩١٨، وكنت يومئذ طالبا لا يدري عواقب ما يصنع؛ فقد دعوت المستمعين إلى استقدام صباياتهم؛ ليدركوا ما تصنع الصباية بالشاعر اللعوب، واليوم، وأنا ألقى محاضرتي بكلية الحقوق في أوائل سنة ١٩٣٨ أدعوكم إلى استقدام صباياتكم؛ بل أدعوكم إلى استقدام أساكم، وشجاكم؛ لتدركوا ما يصنع الحزن على الشباب بشاعر كان وهاج الشباب.

ولست أدعوكم إلى انتهاب ما توحى الغواية، والفتون، وإن كنت أمتنى؛ أن يكون فيكم خلفاء لعمر بن أبي ربيعة، والشريف الرضي، فقد كان عمر على ضلاله رجلا شهها ينزه عن التزلف، ويرفع عن مدح الخلفاء، في زمن كان شعراؤه عبيد الخلفاء، وكان الشريف الرضي على غرامه الأثيم - إن كان في الغرام إثم - رجلا شهها يحسب له في مصاير الأمور ألف حساب، ولم يمت إلا وهو مهيب جليل.

فإن عجزتم عن اللحاق بهذين الشاعرين فلا أقل من أن تدركوا ما يهدد اللغة العربية من القحط؛ فحط العواطف، والقلوب، فإن اللغات لا ترقى بالثرثرة اللفظية التي يغرم بها النحويون، والفقهاء، وإنما ترقى اللغات بما يبدعون في وصف المشاعر، والأحاسيس؛ ولكم أن تذكروا كيف ارتقت الإنجليزية بأمثال شلي، وبيرون، وكيف ارتقت الفرنسية بأمثال ميسيه، ولامرتين؟

وهل عاشت العبرانية وقد تقوض ملكها منذ أزمان وأزمان إلا بفضل اللوعة المبتوثة في سفر أيوب؟

ولو أن اللغة العبرانية وقفت عند ما يحسن اليهود في الميادين الاقتصادية لأدركها الموت منذ مئات السنين؛ ولكنها مضت تشرح آلام اليهود، ومآثمهم،

ومآسيهم، وأحزانهم، وأشجانهم فعاشت على وجه الزمان.

إنما ألح في شرح هذا المعنى، وألح فرارا من شر المتزمتين، فقد يقولون:  
لقد رأت بغداد أديبا يزين اللهو والمجون.

وما أنا بلاه، ولا عابث، ولا ماجن، وإنما أنا رجل يبكي مصير لغته بين اللغات، ويؤذيه أن تصبح لغته جافة، جامدة، غبية، بليدة، لا تتكلم عن غير أسعار القطن، وأسعار الحبوب، ولا تروج إلا بحرب الهجاء في الجرائد والمجلات.

أريد أيها السادة أن تتعبوا قليلا في إنهاض لغتكم؛ وهي لن تنهض إلا يوم تصبح قيثاره تعبر عن المآسي الإنسانية، وأخطر المآسي هي مآسي القلوب، ولن تصلوا إلى هذه الغاية إلا يوم تدوسون النفاق بأقدامكم، كما داسه عمر الخيام الذي خلق للغة الفارسية ألوفا وملايين من الأنصار والمعجبين.

لست بلاه أيها السادة، ولست بياجن، ولا عابث، كما قد يتوهم من لا يفهمون، والذين قرءوا منكم كتاب (حب ابن أبي ربيعة) يذكرون أنني دعوت منذ سنين إلى التنبه إلى أثر المرأة في تلوين العواطف والأحاسيس؛ وهي دعوة أجد أثرها اليوم عند بعض الأدباء في مصر؛ ولكن أدباء مصر على علمهم وذكائهم لا يهتمون بأسرار القلوب، كما يهتمون بأهواء العقول.

فما الذي يمنع من إيجاد نهضة أدبية، وذوقية في العراق؟

ما الذي يمنع من أن تتذكروا ماضيكم الجميل يوم كان علماءكم أعلم الناس، وشعراؤكم أشعر الناس؟

ما الذي يمنع من أن تقوم المنافسة بين القاهرة وبغداد؟ المنافسة القوية التي يسمو بها الشعر، والفن، والخيال؟

أتروني أجدت الاعتذار عن نفسي؟

أنا أريد أن أنقلكم إلى الأجواء الروحية التي عاش فيها الشريف وهو يبكي صباه.

أنا أريد أن ندرك معا سرائر هذا الروح الحزين؛ لنعيش معه لحظات في فردوس الوجدان.

ويجب أن نتفق أولاً على أن الشاعر قد يزور عواطفه في بعض الأحيان؛ فتكون مدائحه مثلاً ضرباً من المجاملة أو الرياء، حتى الحب قد تزور فيه العواطف؛ فيكون الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان، وبعض المحبين يكون؛ ليخدروا فرائسهم فتعجز عن المقاومة، كما بلدغ الثعبان؛ ليخدر الفريسة، ثم يتلعتها بلا عناء.

إن تزوير العواطف مما يعرف الشعراء، ولا أستثني الشريف؛ ولكن هناك عاطفة لا تزوير فيها، ولا رياء، وهي سورة الحزن على الشباب.

لكم أن ترتابوا في صدق الشاعر حين يجب أو يبغض، وحين يمدح أو يعاتب؛ ولكن الارتباب في صدقه حين يبكي صباه أمر غير مقبول.

وأعيذكم أن تروا في هذا البكاء لونا من الضعف، لا؛ فهو من فيض القوة، وأظنتي حدثكم فيما سلف أن الحزن على ما نفقد هو الشاهد على قوة شعورنا بقيمة ما نفقد، والحزن عاطفة كاد يتفرد بها الإنسان من بين سائر الحيوان.

فبكاء الشريف على شبابه هو دليل القوة، والحيوية، وهو يصور إدراكه لمعاني السعادة في الحياة، ويرينا كيف كانت الدنيا في عينيه، وفي قلبه، وفي خياله، وفي رؤياه، فالقصائد التي سندرسها معا في هذا المساء هي عنوان

الصدق، وعنوان الحيونة، وهي من شعر العافية لا من شعر المرض، كما يتوهم بعض من لا يعقلون.

أيها السادة:

نزل الشيب ضيفا ثقيلا برأس الشريف، وهو في الثالثة والعشرين، والشيب في مثل تلك السن لا يخيف؛ ولكن شاعرنا تفجع فقال:

يا ذابلا صوح فينانه      قد آن للذابل أن يختلي<sup>(١)</sup>  
 حط برأسي يققا أبيض      كأنها حط به منصلا  
 قل لعذولي اليوم نم صامتا      فقد كفاني الشيب أن أعذلا  
 طبت به نفسا ومن لم يجد      إلا الردي أذعن واستقبلا

فهو يرى الشيب نذير الموت، وإن كان لا يزال في معية صباه، ويشير على العذول بالصمت والنوم، فالشيب أقوى زاجر، وأعنف عذول.

ثم يراجع نفسه فيرى الشيب نبت الحلم والسيادة:

رأت شعرات في عذارى طقة      كما انتر طفل الروض عن أول الوسمي  
 فقلت لها ما الشعر سال بعارضي      ولكنه نبت السيادة والحلم  
 يزيد به وجهي ضياء وبهجة      وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

ثم تنقله الأيام إلى سن السابعة والعشرين فيقول:

واها على عهد الشباب وطيبه      والغصن من ورق الشباب الناضر  
 سبع وعشرون اهتمرن شيبتي      وألن عودي للزمان الكاسر  
 كان المشيب وراء ظل قالص      لأخ الصبا وأممام عمر قاصر  
 تعشو إلى ضوء المشيب فتتهدي      وتضل في ليل الشباب الغابر

(١) الاختلاء: هو القلع والنزع.

لو يفتدى ذاك السواد فديته      بسواد عيني بل سواد ضمائري<sup>(١)</sup>  
أياض رأس واسوداد مطالب؟      صبرا على حكم الزمان الجائر!

فماذا ترون؟ هذا شاعر يرحب بالمشيب لو أنه ظفر بحقوق المشيب: وهي  
السيادة والملك؛ ولكنه يجمع بين النكبتين: بياض الرأس وسواد البخت!

وبعد أن جاوز الثلاثين بقليل وقع له حادث مزعج في الحجاز؛ فقد حلق  
شعره في منى، ثم تطلع إلى الشعر وهو مرمي على الأرض؛ فرأى الخصل  
البيض تختلط بالخصل السود؛ فتوقع أن يكون ذلك آخر العهد بغلبة السواد  
على البياض.

|  |   |
|--|---|
| لا يبعدن الله بـرد شـيبية                | ألقىته بمنى ورحت سليا                   |
| شعر صحبت به الشباب غرائقا <sup>(٢)</sup> | والعيش مخضر الجناب رطيا                 |
| بعد الثلاثين انقراض شيبية                | عجبا أميم لقد رأيت عجيبا                |
| قد كان لي قططا يزين لمتى                 | شروي <sup>(٣)</sup> السنان يزين الأنوبا |
| فالיום أطلب الهوى مستكلما                | حصرا وألقى الغايات مريا                 |
| لو كان يرجع ميت بتفجع                    | وجوى شققت على الشباب جيوبا              |
| ولئن حننت إلى منى من بعدها               | فلقد دفنت بها الغداة حيبا               |

ثم ينقله الدهر إلى السابعة والثلاثين فيقول:

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| راحت تعجب من شيب ألم به      | وعاذر شيبه التهام والأسف!    |
| ولا تزال هموم النفس طارقة    | رسل البياض إلى الفودين تختلف |
| إن الثلاثين والسبع التوين به | عن الصبا فهو مزور ومنعطف     |

(١) المراد من سواد الضمائر: سواد القلب، أو ما يسمونه حبة القلب، وهي في كلامهم  
سوداء.

(٢) الغرائق: الشاب الأبيض.

(٣) القطط: بالتحريك الشعر التصير الجعد، وشروي: مثل.

فما له صبوة يبكي بها طلل  
أين الذين رموا قلبي بسهمهم  
ولم يداووا لي القرف<sup>(١)</sup> الذين قربوا  
يشكو فراقهم القلب الذين جرحوا  
مني وتبكيهم العين التي طرفوا

ويطيب لشاعرنا أن يوازن بين جنيات الليالي، وعنده أن جناية الشيب  
أفزع من جناية الفراق:

قل لليالي قد ملكت فاسجحي  
من أي خطب من خطوبك أشتكي؟  
إن أشك فعلك من فراق أحبتي  
ضوء تشعشع في سواد ذوائبي  
بعث الشباب به على مقعة<sup>(٢)</sup> له  
لا تنكرن من الزمان غريبة  
ولغيرك الخلق الكريم الأسجح<sup>(٣)</sup>  
وعن أي ذنب من ذنوبك أصفح؟  
فلسوء فعلك في عذارى أقبج  
لا أستضيء به ولا أستصبح  
بيع العليم بأنه لا يبرج  
أن الخطوب قليها لا ينزح<sup>(٤)</sup>

وهو قد أشار مرة إلى بلواه بالشيب والعدل:

قل للعواذل مهلا فالمشيب غدا  
هيهات أحوج من شيبني إلى عدل  
يغدو عقالا لذي القلب الذي طمحا  
فالمشيب أعدل ممن لامنى ولحا

وتكرير هذا المعنى يشهد بأنه كان يعرف أن الجمهور لا ينظر إلى غرامياته  
بعين الارتياح، وهو يبادر بانتهاب اللذات ويراهما إمارة يتولاها الرجل  
بالشباب ويعزل عنها بالمشيب.

سواد الرأس سلم للتصابي  
وبين البيض والبيض الحروب<sup>(٥)</sup>

(١) القرف: قشر الجرح.

(٢) السجاجة: هي السهولة، واللين، والاعتدال.

(٣) المقعة: الحب.

(٤) القليب: البثر.

(٥) النساء البيض والشعرات البيض.

وولاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعزلك المشيب  
وهو لا يعجب من أن يعيش بعد فراق الأحباب؛ لأنه عاش بعد فراق  
الشباب:

غدا في الجيرة الغادين لبي جميعا ثم راجعني وثابا  
لئن فارقتها وبقيت حيا لقد فارقت بعدهم الشبابا

ويرجع إلى التفكير في النكبتين: بياض الرأس وسواد البخت، فيقول:  
صحبنا الدهر والأيام بيض ونحن نواضر سود الشعور  
فلما اسودت الدنيا برزنا لها بيض الذوائب بالقتير<sup>(١)</sup>

وتقهره البلية؛ بلية الشيب، على عرفان الحق، فيذكر أن الشيب قد يفسد  
ما بينه وبين الحسان من وثيق الصلات.  
يا قاتل الله الغواني لقد  
أعرضن عني حين ولي الصبا  
وشاعت البيضاء في مفرقي  
سيان عندي أبدت شبية  
ألقى بذل الشيب من بعدها  
تسرى جميم الشيب لها دوي  
كم جلدن بالأجياد لي والطلّي

سقينتي الطرق بعيد الجمام<sup>(٢)</sup>  
واختلج المهم بقايا العرام<sup>(٣)</sup>  
شعشعة الصبح وراء الظلام  
في الفود أو طبق غضب حسام<sup>(٤)</sup>  
من كنت ألقاه بدل الغلام  
يراجع العظم بعد الثغام<sup>(٥)</sup>  
فالיום يبخلن ببرد السلام!

(١) القتير: الشيب.

(٢) الطرق: الماء الذي خوضته الإبل، ومثله المطروق، والجمام: الماء الصافي.

(٣) العرام: القوة والفتك.

(٤) يريد أن وقع الشيب برأسه مثل وقع السيف.

(٥) الجميم: الكثير من كل شيء، ومثله الجمم، والعظم: على وزن زبرج، الليل المظلم، والثغام: على وزن سحاب نبت أبيض، ولون ثاغم: أبيض كالثغام.

وكنست إن أقبلت أسمعتني قعاقع الحلي وراء القرام<sup>(١)</sup>

ويرى تعبيره بالشيب لؤما وقلة أدب؛ لأنه لم يبتدع الشيب حتى يحاسب عليه.

تعيرني شيبى كأنى ابتدعته  
وإن وراء الشيب ما لا أجوزه  
وليس نهار الشيب عندي بمز مع  
رجوعا إلى ليل الشباب الغرائق<sup>(٢)</sup>

ويؤكد لمحبوبته أنه لم يفوف برد الشيب، وإنما فوفته الأيام.

لا تأخذيني بالمشيب فإنه  
لو أستطيع نضوت عنى برده  
كان الشباب دجنة فتمزقت  
ولئن تعجل بالوصول فخفه  
وإذا نظرت إلى الزمان رأيتنه

وتوجهه سخرية الغواني فيقول:

تشاهقن لما أن رأين بمفرقي  
وقلن عهدنا فوق عاتق ذا الفتى  
ولم أر عضا عيب منه صقله  
وقالوا غلام زين الشيب رأسه

بياضا كأن الشيب عندي من البدع  
رداء من الحرك الرقيق فما صنع  
وكان حبيبا للقلوب على الطبع<sup>(٣)</sup>  
فبعدا لرأس زاته الشيب والنزع<sup>(٤)</sup>

(١) القرام: على وزن كتاب ستر رقيق.

(٢) الغرائق: بضم الغين الشاب الأبيض الجميل.

(٣) التفويف: التلوين.

(٤) الطبع: بالتحريك هو الوسخ الشديد من الصدأ والشين والعيب.

(٥) النزع: بالتحريك هو انحسار الشعر من جانبي الجبهة.

تسلي الغواني عنه من بعد صبوة      وما أبعد النبت المهشيم من النجع<sup>(١)</sup>  
وكن يخرقن السجوف إذا بدا      فصرن يرقعن الخروق إذا طلع

ويرى دنياه كلها تذهب بذهاب الشباب؛ فلا حب ولا قتال، ويرى نفسه كالقوس بلا وتر، والثعبان بلا ناب، والغصن بلا ورق، والغمد بلا سيف، والخميلة بلا أزهار.

من شافعي وذئوبي عندها الكبر  
راحت تريح عليك الهم صاحبة  
رأت بياضك مسودا مطالعه  
وأبي ذنوب للون راق منظره  
وما عليك ونفسي فيك واحدة  
أنساك طول نهار الشيب آخره  
إن السواد على لذاته لعمى  
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة  
كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد  
وليس كل ظلام دام غيبيه  
أما تريني كصل تحت هضبته  
مسالما يأمن الأقران عدوته  
كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق

إن المشيب لذنب ليس يغتفر؟  
وعند قلبك من غي الهوى سكر  
ما فيه للحب لا عين ولا أثر  
إذا أراك خلاف الصبغة الأثر  
إذا تلون في ألوانه الشعر؟  
وكل ليل شباب عيبه القصر  
كما البياض على علاته بصر  
والسود مستوفزات للنوى غدر<sup>(٢)</sup>  
وأخلقتك حجول الشيب والغرر<sup>(٣)</sup>  
يسر خاطبه أن يطلع القمر  
بالرمل أطرق لا ناب ولا ظفر  
ملقى الحنية<sup>(٤)</sup> عرى منها الوتر  
والجفن أفرد عنه الصارم الذكر

(١) النجع: جمع نجعة بالضم وهي طلب الكلاً في موضعه.

(٢) مستوفزات للنوى: متطلعات للفراق.

(٣) البهيم: ما لا شبة فيه من الخيل، وأخلقته: أبلته، والحجول: جمع حجل وهو بياض في

قوائم الفرس، والغرر: جمع غرة وهي بياض في الجبهة.

(٤) الحنية: القوس.

إن أشهد القوم لا أعلم نجبيهم  
 كان الشباب الذي أنضيت مندله<sup>(١)</sup>  
 من بعد ما كنت أستسيب المها شغفا  
 لم أدر أن الصبا تبلى خيصرته<sup>(٢)</sup>  
 إن أمس لا يتقى زجري ولا غضبي  
 فقد أرد العفرنى<sup>(٣)</sup> عن أكيته  
 وأزجر الضيغم العادي فينزجر  
 وأمس تراعي الغزلان والبقر  
 عقب الخميلة لما صوح الزهر  
 ولأن منصات ذاك العود ينأطر<sup>(٤)</sup>  
 ولأنند الحى مملولا لي العمر

فما رأيكم في هذه القصيدة؟

إن جامع الديوان لم يذكر متى قالها الشريف؛ ولكن يظهر من روح الشاعر أنه قالها بعد الأربعين، ونراه مع ذلك يمتلك عزيمته أقوى امتلاك، وهل يستطيع رجل فان أن يقول هذا البيت:  
 راحت تريح عليك الهم صاحبة  
 وعند قلبك من غي الهوى سكر

ففي هذا البيت صور شعرية يدرك قيمتها من تستبيهم كرائم المعاني، والشاعر يؤكد لمحبوته أن قلبه لم يتلون، وإن كان شعره تلون:  
 وما عليك ونفسي فيك واحدة  
 إذا تلون في ألوانه الشعر

ويغالط نفسه فيزعم أن السواد عمى على ما فيه من لذات، وأن البياض بصر على ما فيه من علات، ويزعم أن الشعر الأبيض أوفى؛ لأنه لا يفارق الرأس، وأن الشعر الأسود غادر؛ لأنه يهجر وطنه في الرأس ثم لا يرجع:  
 إن السواد على لذاته لعمى  
 كما البياض على علاته بصر

(١) يجمع: يكتم.

(٢) المندل: على وزن مقعد هو الخف.

(٣) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان.

(٤) المنصات: المستوى، وينأطر: ينحني.

(٥) العفرنى: الأسد، واللبوة عفرنة.

البييض أوفى وأبقى لي مصاحبة والسود مستوفزات للنوى غدر

ويبالغ في تضليل نفسه فيزعم أنه كان كالجود البهيم يوم كان أسود  
الشعر؛ ثم عاد كالجواد الأغر المحجل منذ اختلط البياض بالسواد.

كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد وأخلقتك حجول الشيب والغرر

ثم يفيق فيقول:

وليس كل ظلام دام غيهبه يسر خاطبه أن يطلع القمر

ثم يقع الحزن على صدره وقوع الصواعق؛ صواعق الغدر التي تنفزع من  
هولها صدور الأوفياء، فيقول:

أما تريني كصل تحت هضبه بالرمل أطرق لانا ولا ظفر

وهذا بيت قليل الأمثال، وهو يصور جزع الشريف على صباه، وهل هناك  
صورة تحزن وتوجع كصورة الصل وهو يطرق بالرمل إطراق المساكين؛ لأن  
الشيخوخة أسقطت ما كان يملك من أنياب حداد؟

مسالما يامن الأقران عدوته ملقى الحية عرى متنها الوتر

وهل رأى الرءون أذل من القوس وهي ومعراة من الوتر؟

ثم ماذا؟ ثم يرى الشريف أنه أمسى:

كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق والجفن أفرده الصارم الذكر

فهل تحسون جزع الغصن حين يسقط عنه الورق؟ لقد أحسست هذا  
المعنى منذ أعوام قبل أن يقول بعض العلماء بإحساس النبات؟

وهل تحسون جزع الغمد على فراق السيف؟!

أرجو أن لا يطويكم الموت قبل أن تدركوا هذه المعاني؛ فما أحب لأحدكم

أن يلقي الله إلا وهو من الأذكاء.

ثم ماذا؟ ثم يبكي شاعرنا فيقول:

إن أشهد القوم لا أعلم نجيهمو      ماذا قضاوا ويجمجم دوني الخبر

وهذا البيت مزعج؛ وهو يردني إلى حادثة لن أنساها طول حياتي يوم رأيت أبناء عمي يطوون بعض الأخبار عن أبي فمضيت أتوجع في مقال نشرته بجريدة البلاغ، ثم وقعت مخاوفي مع الأسف القتال فمات أبي بعد أسابيع، رحمك الله يا أبي وطيب مثواك.

ثم ماذا؟ ثم يقول الشريف:

كان الشباب الذي أنضيت مندله      عقب الخميعة لما صوح الزهر

وأنتم تعرفون مصاير الخمائل بعد ذبول الأزهار، وهلاك الرياحين.

ثم ماذا؟ ثم يذكر الشاعر خلاصة حياته فيقول:

من بعد ما كنت أستسيب المها شغفا      أمست نراع بي الغزلان والبقر  
لم أدر أن الصبا تبلى خميصته      وأن منصات ذلك العود ينأطر  
إن أمس لا يتقى زجرى ولا غضبي      ولائد الحي عملولا لي العمر  
فقد أرد العفرنى عن أكيلته      وأزجر الضيغم العادي فينزجر

وليس في الدنيا ألم ولا أوجع من أن يصبح الرجل بلا حول ولا طول، بعد أن كان ينتهب طعام الأسود، وليس هذا كل ما عند الشريف في بكاء الشباب، فله وقات يحلل فيها مصاير الرجال، كأن يقول:

وطيف حبيب راع نوم خياله      وعرفني طول الليالي ملمه  
وما زارني إلا ليخجل طيبه      نسيم الصبا أو يفضح الليل ظلمه<sup>(١)</sup>

(١) الظلم: بالفتح بريق الأسنان.

وما كان لولا الوجد ينقاد سجمه  
 وإن زاد عندي أو تضاعف وسمه؟  
 ومخ الدجا رار<sup>(١)</sup> وقد دق عظمه  
 صدور القنا والنقع عال أحه  
 يرى كل يوم زائدا منه عدمه  
 إذا طال عمر أو فناء يعمه  
 برأسي لها نقع وبالقلب كلمه<sup>(٢)</sup>  
 أداري عدوا مارقا في سهمه  
 إذا حضر المقدار والموت خصمه  
 ومن حوله المقدار والموت أمه!<sup>(٣)</sup>  
 ويلتذ ما يغذى به وهو سمه  
 وورد من الأموال لا نستجمه

تطلع من أرجاء عيني دمعها  
 الأهل لحب فات أولاه رجعة  
 ليالي أسرى في أصحاح لذة  
 وأغدو على ريعان خيل تلفها  
 رأيت الفنى يهوى الثراء وعمره  
 عقيب شباب المرء شيب يخصه  
 طليعة شيب بعدها فيلق الردى  
 أغالط عن نفسي حمي وإنما  
 وليس يقوم المرء يوما بحجة  
 فوا عجبا للمرء والثناء خلفه  
 يسر بماضي يومه وهو حتفه  
 وورود من الأجال لا يستجمنا

فماذا ترون في هذه القطعة؟ ماذا ترون؟

حدثوني فإني أخشى أن تقولوا: إنها من الحديث المعاد، ففيها معان عرفها الشعراء قبل الشريف، وهذا حق، ولكن، تذكروا ما حدثتكم به في المحاضرة الماضية، تذكروا أني قلت لكم: إن أساس الابتكار هو الإحساس، فالعاشق الذي يخاطب هواه فيقول: "أحبك" لا يتهم بالمحاكاة والتزييف؛ بحجة أن هذه الجملة قالها قبله الناس منذ أجيال وأجيال، وكذلك كان شاعرنا، فهو يحس المعاني أصدق إحساس.

وقد فهمت من جملة حاله أنه كان يشكو مرضا يكتمه عن الأطباء،

(١) الرار: هو الذائب من المخ.

(٢) النقع: الغبار، والكلم: الجرح.

(٣) أمه: أمامه.

ولذلك شواهد كثيرة في شعره نكتمها عنكم؛ وبسبب ذلك المرض المكتوم، لم يعش نصف ما عاش أبوه، وقد حملته تلك العلة على بغض العيش، وهذه القطعة تمثل إحساسه بما كان يعانيه، وقد كان مع ذلك قليل البخت؛ فلم يجد من يتوجع على بلواه، ولو فكرتم لرأيتم أنه طاف حول المعاني التي فصلها ناظم "سفر أيوب" ولكن ناظم "سفر أيوب" وجد من ينصفه بعد مئات السنين، وجد الشاعر الفرنسي العظيم "لامرتين" الذي كتب عن "سفر أيوب" كتابا وجدانيا حملني وأنا طالب في باريس أن أبيع ساعتني وطائفة من ثيابي؛ لأشتري نسخة أنيقة من التوراة.

أراكم تستغربون هذا الحديث! لا بأس، فهو والله غريب، فمن أدب هذا الزمان أن ننسى ماضينا وأن نصرح بأن الأدب الحق لا يكون إلا عند اللاتينيين والسكسونيين والجرمان.

ارجعوا إلى هذه القطعة مرة أو مرتين أو مرات، ثم انظروا كيف بكى شاعرنا مصير الإنسانية؟ وكيف توجع لمصير الرجال؟

انظروا إلى هذين البيتين:

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| عقيب شباب المرء شيب بخصه  | إذا طال عمر أو فناء يعمه  |
| طلبة شيب بعدها فيلق الردى | برأسي له نفع وبالقلب كلمه |

انظروا إلى هذين البيتين ثم اسألوا أنفسكم كيف جمع مصاير الرجال في بيتين؟ وكيف لون هذه الصورة تلويها أخذًا تنفطر له القلوب القاسية وتنزع منه راجحات العقول.

وهذا البيت:

فوا عجا للمرء والداء خلفه      ومن حوله الأقدار والموت أمه!

فهو يصور الإنسان في حومة حرب مع الداء ومع الأقدار ومع الموت ثم...، ثم ماذا؟

ثم يتوجع الشاعر ويلتاع حين يرى مصيره بين العذاب وعند الملاح فيقول:

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| يا عدولي قد غضضت جماعي       | فاذهبها حيث شئتما بزمامي   |
| بعد لوثي عمامة الشيب أختا    | ل ببردي بطالة وعرام؟؟      |
| خفضت نزوة الشباب وحال        | الهم بين الحشا وبين الغرام |
| غالطوني عن المشيب وقالوا     | لا ترع، إنه جلاء الحسام    |
| أيها الصبح زل ذميما فما أظ   | لم يومي من بعد ذلك الظلام  |
| أرمضت شمسك المنيرة فودي      | فمن لي بظل ذلك الغمام      |
| قلت: ما أمن من على الرأس منه | صارم الجحد في يد الأيام    |
| إن ذنبني إلى الغواني بشيبي   | ذنب ذئب الغضا إلى الآرام   |
| كن ييكن قبله من وداعي        | فبكاهن بعده من سلامي       |

أترون كيف قال الشاعر "يا عدولي" والشعراء جميعا يقولون "يا خليلي" والبيت الأول مختلس برفق من قول مالك بن الربيع:

خذاني فجراني ببردي إليكما فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

ولكن هذا الاختلاس هو الشاهد على براعة الشريف؛ فقد نقل موقف الموت إلى موقف الشيب، وصح له أن يقول:

يا عدولي قد غضضت جماعي فاذهبها حيث شئتما بزمامي

وإلى أين يذهب العاذلان بزمام الشاعر الأشيب؟ إلى أين؟ إلى المساجد؟ وهو كذلك؛ ولكن الشاعر كان يتقرب إلى ربه وهو شاب بالتأمل في ملكوت النحور والشغور والحدود والعيون، واليوم يتقرب إلى ربه بالعظة والاعتبار

فيكبر ويسبح كلما رأى جنازة في الطريق!

ويرى الشاعر أنه لا مجال لبرد البطالة وبرد الفتك، بعد أن لبس عمامة الشيب، وكيف يفتك أو يصول بعد أن خدمت نزوة الشباب، وحال المهم بين حشاه وبين الغرام؟ ويذكر أنهم غالطوه فزعموا أن الشيب جلاء الحسام؛ فيصرخ كما صرخ من قبله مئات الشعراء:

أيها الصبح زل ذمياً فما أظلم      يومي من بعد ذلك الظلام  
أرمنت شمسك المنيرة فودي      فمن لي بظل ذلك الغمام؟

ثم يذكر ما أجاب به من غالطوه:  
قلت: ما أمن من على الرأس منه      صارم الجدى يد الأيام

ولكم أن تتأملوا عبارة "صارم الجدى" فهي من غرائب التعبيرات ثم يحدد مصيره فيقول:

إن ذنبي إلى الغواني بشيبي      ذنب ذئب الغضا إلى الآرام  
كن ييكن قلبه من وداعي      فكساهن بعده من سلامي

وهو يصور الشيب أفتح تصوير؛ يرى موقفه وهو أشيب موقف الذئب من الآرام، وكان موقفه وهو شاب موقف الذئب من الآرام أيضاً؛ ولكن الفرق بين الموقفين بعيد؛ فقد كانت الآرام في عهد شبابه تستهي أن يفترسها، ثم أصبحت وهو أشيب يؤذيها الافتراس؟

ثم ماذا؟ ثم يرى أن لا مفر من تحية الشيب؛ لأنه رسول الموت فيقول:  
الأحيى ضيف الشيب إن طروقه      رسول الردى قدامه ودليله  
لقد كان ييكني لشعري نزوله      فقد صار ييكني لعمري رحيله

ومعنى ذلك أنه كان ييكني أولاً لما حل بالشعر، فصار ييكني لما حل بالعمر،

فوا حر قلباه.

ثم يعود إلى تحليل تلك التحية في موطن آخر فيقول:

وطارق للشيب حينه سلام لا الراضي ولا الجاذل  
أجرى على عودي ثقاف الهوى جرى الثقافين على الذابل  
واعدني عقر مراحي له لا دردر الشيب من نازل  
فاليوم لا زور طربة نام رقيبى وصحا عاذلي

أترون كيف يرى الشاعر ما صنع الشيب في تثقيف هواه؛ ولكن أي تثقيف؟ لقد هذبه تهذيباً أليماً فاقتلع الأنابيب التي يتوقد بقوتها الصيال.

أترون هذا الميعاد "واعدني عقر مراحي له"؟ وهل هنا موعد أشأم من هذا الموعد؟

إنه موعد فاجع، الموعد الذي يعقر فيه ملح الشباب، فوا حر قلباه؟

ثم...؟ ثم ماذا؟

ثم يرى الشاعر لقاء الشيب أفضح من لقاء العدو فيقول:

ما لقائي من عدوي كلقائي من مشيبي  
موقد ناراً أضاءت فوق فودي عيوي  
وبياض هو عندى بيض من شر ذنوبي

وهذا حق، فنحن نحارب الأعداء بعزائم الشباب، فبأي سلاح نحارب يوم يودع الشباب؟

وفي موطن آخر يعالج الشاعر هذه المعضلة فيقول:

أشوقا وما زالت لهن قباب وذكر تصاب والمشيب نقاب

وغير الغواني للبياض صحاب  
ولا كل أيام الشباب عذاب  
كأن الذي بعد المشيب شباب  
أسف على رأسي وطار غراب

وغير التصابي للكبير تعلقة  
وما كل أيام الشباب مريرة  
أؤمل ما لا يبلغ العمر بعضه  
وطعم لبازي الشيب لا بد مهجتي

أيها السادة:

أخشى أن يطول القول إذا مضينا في استعراض حشرات الشاعر على  
صباه، وهو يبكي نصيبه من الغواني.

فلنتقل إلى موضع آخر وهو جزعه من الشيب بسبب ما سيضيع من  
حظوظه في المعالي، وكان الشاعر يدخر صباه؛ ليصيب به أعظم الأغراض من  
هموم الرجال، وانظروا كيف يقول:

وبي إلى الدار أطراب وأشجان  
للعين والقلب أمواه ونيران  
طول ادكاري لمن لي منه نسيان  
عن العميد ولا للقلب سلوان  
وفي ديسونهم مطل وليان  
حتى إذا عذبوني بالمتى خانوا  
بالدار دار وبالجيران جيران  
من الكلال ومر الليل عجلان  
إذا رضي بالهويني معشر هانوا  
والدار قاذفة بالزور مطعان  
فصنعة الدهر إعطاء وحرمان  
والعرض أملس والأخساب غران!  
لم يغن أن قيل إن الوجه حسان.

ورب دار أوليها مجانبة  
إذا تلفت في أطلالها ابتدرت  
كلم بقلبي أداويه ويقرفه  
لا للسوائم إقصار بلائمة  
على مواعيدهم خلف إذا وعدوا  
هم عرضوا بوفاء العهد آونة  
لا تخلدن إلى أرض تهون بها  
أقول المركب قد خوت ركائبهم  
مدوا علييها واستعجلوا طلبا  
نرجو الخلود وبقينا على ظعن  
إن قلص الدهر ما أضفناه من جدة  
كم من غلام ترى أظماره مزقا  
إذا الفتى كان في أفعاله شوه

لا نطلب الغاية القصوى فتحرمها  
فإن بعض طلاب الريح خسران  
والعزم في غير وقت العزم معجزة  
والازدياد بغير العقل نقصان

وهذه الأبيات من قصيد طويل، وهي تريكم أنه كان يدخر الشباب  
لعظائم الأعمال.

انظروا أيضا كيف يتوجع على ما ضاع من أمانيه في المعالي بسبب الشيب  
فيقول:

فؤادي بنجد والفتى حيث قلبه  
وما لي فيه صبوة غير أنني  
بلى، إن قلبي ربما التاح لوحة  
ألا هل ترد الريح يا جو ضارح  
وهل تنظر العين الطليحة نظرة  
وما وجد أدماء الإهاب مروعة  
ترود طلى أودت به غفلاتها  
بغوم على آثاره وقد اكتسى  
فلما أضاء الصبح لاح لعينها  
كوجدني وقد عرى الشباب جواده  
ولكنها الأيام أما قلبها  
إذا ما بدأن الأمر أفسدن عقبه  
فلله دري يوم أنفث<sup>(١)</sup> قوله  
ولله دري يوم أركب همّة  
وكم مهمه جاذبت بالسير عرضه  
وليل رأيت الصبح في أخرياتنه

أسير وما نجد إلى حبيب  
خلعت شباي فيه وهو رطيب  
فهل ماؤه للسواردين قريب  
نسيمك يحلولي لنا ويطيب  
إليك وما في الماقين غروب  
لأحشائها تحت الظلام وجيب  
وفي كل حي للمنون نصيب  
ظلام الدياتجي غائط وسهوب  
دم بين أيدي الضاريات صيب  
وغير لون العارضين مشيب  
فمكد وأما برقتها فخلوب  
وعفى على إحسانهن ذنوب  
لها في رءوس السامعين ديب  
إلى كل أرض أغتدي وأثوب  
وغالبتته بالعزم وهو غلوب  
كما أنسل من سر النجاد قضيب

(١) في الديوان (أنعت).

سريت به أوفى على كل ربوة  
وأزرق ماء قد سلبت جامه  
وهاجرة قللت بالسير حدها  
ويوم بلا ضوء يترجم نغمه  
حبست به قلبا جريا على الردى  
وطعنة رمح قد خرطت نجيعها  
وضربة سيف قد تركت مبينة  
نظرت إلى الدنيا بعين مريضة  
ومن كان في شغل المنى فقراغه  
فما لي طول الدهر أمشي كأنني  
إذا قلت قد علقت كفي بصاحب  
وليس سوى نجم علي رقيب  
يعوم الشوى في غمره ويغيب  
ولا ظل إلا ذابل ونجيب  
عن الروع والإصباح فيه مريب  
وقد رجفت تحت الصدور قلوب  
كما ماج فرغ في الإناء ذنوب<sup>(١)</sup>  
وحاملها عمر الزمان معيب  
ومالي من داء الرجال طيب  
مثال الأماني أو ردى وشعوب  
لفضلي في هذا الزمان غريب  
تعود عواد بيتنا وخطوب

وهذه أبيات تفيض بالإحساس وقوة الروح، وهي تشعركم بأن الشاعر كانت له من شبابه غايات أشرف من الأئس بالغواني.

إن شاعرنا أيها السادة، لم ييك شبابه وهو عابث، وإنما بكاه؛ لأنه كان الوسيلة إلى إدراك ما في الدنيا في صبوات وأمجاد، والصبوة والمجد معنيان من أشرف المعاني، والشاعر الحق هو الذي يدرك قيمة الصبوة وقيمة المجد.

كان شاعرنا إماما في الفتوة وفي الفروسية، فارحموه إن رأيتموه يبكي على شبابه بكاء الأطفال، فليس في الدنيا ما يستحق أن تسال في سبيله دموع الرجال غير الشباب.

قديما قيل: إن أبا العتاهية أشعر الناس؛ لأنه قال:

روائح الجنحة في الشباب

(١) الفرغ: مخرج الماء من الدلو، والذنوب: بالفتح هو البتر.

أيها السادة:

لقد طوفت بكم حول المناحة التي أقامها الشريف على صباحه، والآن أنظر فأراكم فريقين: فريق الشباب وفريق الكهول.

أما الكهول: فإني أرجو أن لا يصنعوا مثل صنيع الشريف؛ فيقتلوا عزائمهم بكثرة النوح على الشباب، فإن الله حكمة عالية حين قضى بأن لا يحمل نبيه الرسالة إلا بعد الأربعين، ليعرف من لم يكن يعرف أن شباب العزائم لا يتدئ إلا بعد الأربعين.

أما الشبان: الذين واطبوا على هذه المحاضرات من طلبة دار المعلمين العالية وطلبة كلية الحقوق وأدباء بغداد، فإن لي في سبيلهم مع الله كلمة، ولي في سبيل المجد معهم كلمة.

أما كلمتي مع الله تباركت أسأؤه؛ فهي دعوة أرجو أن تستجاب.

أدعو الله أن تعيشوا يا تلاميذي ويا حواري حتى تشيب نواصيكم.

أدعو الله أن يبيدكم جميعاً حتى تطول بلواكم بالشيب.

أدعو الله أن تعيشوا حتى يشيب أبناؤكم وأنتم أقوياء.

أدعو الله أن يمنحكم البركة في العمر، والبركة في العافية، فلا يدرككم الشيب إلا ولكم في بلادكم منازل عالية تحقق بعض آمال العراق.

أما كلمتي معكم في سبيل المجد فهي كلمة عنيفة، هي دعوتكم إلى إنفاق الشباب في سبيل المجد، لا في سبيل الحب؛ لأن أكثر الحب في زماننا متاع رخيص لا يذكر الأفتدة، ولا يوقظ القلوب.

تذكروا دائماً يا تلاميذي ويا حوري أن في مقدور الشاب النبيل أن يخلق

لنفسه غرائس من الخيال، تذكروا أن سهر الليل في تحقيق مشكلة فلسفية، أو معضلة علمية، ألد وأمتع من سهر الليل بين غانية وكأس.

وتذكروا يا تلاميذي ويا حوارى أن شهوة المجد أقوى من شهوة الحب، تذكروا أن عشق المعاني هو الذي يخلق العطاء، والمرأة نفسها لا تذكى قريحة الرجل فتصيره عظيماً إلا إن كانت عظيمة في الشئائل والخصال.

إنى أخاف عليك هذا الزمان، يا تلاميذي ويا حوارى، فإن لم يكن لكم بد من درس الوجود فادرسوه دراسة الرجال، وليكن موقفكم منه موقف الطبيب من العليل، وأنا لا أدعوكم إلى إغماض أعينكم، وإنما أدعوكم إلى التخلق بالقوة والجبروت فلا يدرككم الشيب إلا بعد أن تكونوا رفعتم قواعد الحياة العلمية والأدبية والاقتصادية في هذه البلاد.

وقد رأيتموني أعطف على الشريف وهو يبكي صباحاً؛ وإنما كان ذلك لأنى أؤمن بأن الشريف كان رجلاً سليماً وكانت مواهبه شبيهة بالمائدة الغربية الألوان؛ فكان شاعراً، وكان كاتباً، وكان نحوياً، وكان فقيهاً، وكان فارساً، وكان سياسياً، كان يجمع بين الحلاوة والمرارة، والجد والهزل، والقلب والعقل.

ومثل هذه الشخصية القوية لا ينظر إليها رجل مثلى بغير العطف والإعجاب.

فمن شاء منكم أن يقضى حق الشباب؛ فأنا حارسه وراعيه؛ ولكن على شرط أن يقيم البراهين على أنه رجل عظيم يضر وينفع، ويبرم وينقض، ولا يبيت إلا وهو مثقل بهموم الرجال.

تلاميذي الأعزاء:

احترسوا، ثم احترسوا، فما توغلت في هذه الدراسات الوجدانية؛

لأحولكم إلى قوم بكائين، وإنما قضى واجب الدرس أن نفهم شاعرنا حق الفهم؛ فننظر كيف كان يدرك ما في الوجود من ألوان.

وما جاز له لا يجوز لكم في كل حين.

وليتكم تغنمون لأنفسكم ما غنم لنفسه من القوة والجبروت، فقد طاب له أن يلهو ويلعب، ومع ذلك لم يفارق دنياه إلا بعد أن هذب ألوفاً من التلاميذ، وبعد أن ترك ثروة شعرية وأدبية وفقهية تعز على من رامها وتطول.

تلاميذي الأعزاء:

ستحيون بإذن الله حتى تشيب نواصيكم، وستكون لكم في سبيل المجد وثبات صوادق، وسيذكر العراق أن أبناءه لم يخذلوه، وأنهم استطابوا في سبيله كل عذاب حتى الحرمان من نعيم الشباب.

## الشاعر الوصاف

أيها السادة:

نحدثكم الليلة عن الوصف في أشعار الشريف، ونبدأ فنحكم بأنه خليق بأن يسمى (الشاعر الوصاف)، وإنما سارعنا إلى هذا الحكم؛ لأن الشريف مظلوم من هذه الناحية، فيما قال أحد من القدماء أو المحدثين بأنه كان من الوصافين، وليس معنى هذا أنهم أنكروا عليه القدرة على الوصف؛ ولكن لم يتفق لإحدى قصائده أن تظفر بشهرة وصفية، فالمتنبى له قصيدة في وصف الأسد، والبحري له قصيدة مشهورة في وصف إيوان كسرى، وأبو تمام له قصيدة مشهورة في وصف الربيع، وشوقي له قصيدة في وصف "أنس الوجود" أشهر القصود في التاريخ.

لم يقل أحد بأن الشريف كان من الوصافين، وتجاهل هذه الناحية يشهد بأن النقاد لم يعرفوا هذا الشاعر كما كان يجب أن يعرف.

فلنحاول نحن إنصافه ولنكشف عبقريته في هذا الباب، ونسارع فنقرر أن الشريف لم يصف الخمر، وكان وصف الخمر من أهم الفنون عند شعراء العراق، فما السبب في ذلك؟

لا موجب للمداورة، فالشريف لم يكن يرى من الوقار أن يتبدل في وصف الخمر والسقاة كما فعل غيره من الشعراء؛ لأنه كان يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية، وربما جاز أن نحكم بأنه لم ير الخمر رأي العين.

وهكذا الحكم يبدو غريباً؛ ولكن يسهل تصوره حين نذكركم بابن الفارض الذي شغل الناس بقصائده الخمريات، فمدينة القاهرة لعهد ابن الفارض لم تكن تعرف الخمر، والبيئة التي نشأ بها ابن الفارض لم تكن تعرف إلا أن الخمر شراب حرام، ومع ذلك وصفها الشاعر وأجاد الوصف كما اتفق

لأحد الشعراء العميان أن يجيد وصف الحروب. وقد رأيت في بغداد ناسا يعرفون تخطيط القاهرة ولم يروها، وإنما تمثّلوا خططها بالسماع عن طريق الجرائد والمجلات<sup>(١)</sup>.

وما أنكر أن العراق يكاد يكون أقدم شعب عرف الخمر في التاريخ؛ ولكن الخمر كانت مع ذلك متاعا يجمله الجمهور في العراق، وإسراف أبي نواس في وصف الخمر هو الشاهد على أنها كانت قليلة الوجود، ولولا قتلها لما أمكن أن يتهالك عليها كل ذلك التهالك وأن يفتن بها ذلك الفتون.

وفرنسا التي تشرب الخمر في كل وقت ولا يكاد أهلها يعرف طعم الماء، فرنسا هذه لم ينبغ فيها شاعر يصف الخمر على نحو ما نبغ أبو نواس، وكان ذلك؛ لأن الناس يقل غرامهم بها يملكون.

فإن كنتم في ريب من ذلك فانظروا قول السري الرفاء شاعر الموصل وهو يقول في استهداء النبيذ.

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| يا من أنامله كالعارض الساري  | وفعله أبدا عار من العار    |
| أما ترى الثلج قد خاطت أنامله | ثوبا يزر على الدنيا بأزرار |
| نار ولكنها ليست بمبديّة      | نورا وماء ولكن ليس بالجاري |
| والراح قد أعوزتنا في صبيحتها | يبعا ولو وزن دينار بدينار  |
| فامن بما شئت من راح تكون لنا | نارا فأنا بلا راح ولا نار  |

فهذا الشعر يشهد بندرة الخمر في تلك العهود.

وانظروا أيضا قول السلامي:

(١) استغرب أحد العلماء هذا الحكم، وقال: "أنا أؤكد أن ابن الفارض كان يعصر الخمر بيديه"، وربما كان هذا العالم أعرف مني بأساليب القوم الصالحين، ولعل الأستاذ محمد بهجت الأثري يحكم بيني وبين ذلك العالم المفضل.

أرسلت أشكو إليكم غدوة ظمئني  
فقد كتبت إلى أن خانني قلمي  
أنت امرؤ جوده غمر ونائله  
فابعث إلي بصفو والراح يشبهه  
وما شككت بأي سوف أغتبق  
وقد تردد حتى ملني الطرق  
همر ووبل نداء مسبل غدق  
مني قريضي ومنك العرف والخلق

وقد لاحظت مثل هذه الملاحظة في كتاب "النثر الفني" حين تكلمت عن أبي الفرج البغاء.

قد تقول: هؤلاء الشعراء يستجدون!

وأجيب بأن الشعراء لا يستجدون إلى حين لا يجدون.

كانت الخمر في العراق قليلة جدا بدليل اللهفة الظاهرة في كلام الشعراء، وما عرفها الشريف فيما أفترض، وإن كان صرح بأنه عرفها في هذا البيت الحزين.

ويمنعني المدام طروق همي فما يحظى بها إلا نديمي

وهو قد وصف الخمر بالفعل؛ ولكنه نص في الديوان على أنه سئل وصفها على لسان بعض الناس فقال:

اسقني فاليوم نشوان  
كفلت باللهو وافية  
جاز<sup>(١)</sup> وفد الريح فالتظمنت  
كل فرع مال جانبه  
وكان الغصن مكتسبا  
كلما قبلت زهرتها  
والربى صداد وربان  
لك نايبات وعيدان  
منه أوراق وأغصان  
فكأنه الأصل سكران  
من رياض الطمل عريان  
خلت أن القطر غيران

ومقيل بين أخيبّة  
 في أصـيحاب مفارشهم  
 عسكرت فيها السحاب كما  
 فارتشفنا ريق سارية  
 فاسقني فالوصل يالفني  
 غير سمعي للملام إذا  
 رب بدر بت ألمه  
 قدت خيل اللثم أصرفها  
 لي غدير من مقبله  
 وندامي كالنجوم سطوا  
 كم تخلت عن ضمائرهم  
 خطروا والخمر تنفضهم  
 كل عقل ضاع من يفظ  
 إنما ضلت عقولهم  
 فاختلس طعن الزمان بها

قلتـه والحـي قد بانوا  
 ثم أنقـاء وكثبان  
 حط بالبيداء ركبـان  
 حيث كل الأرض غدران  
 إن يوم البين قرحـان  
 ضج ساجي الصوت مرنان  
 صياحا والبدر نشوان  
 حيث ذاك الخلد ميدان  
 ومن الصدغين بستان  
 بالمتى والدهر جـذلان  
 ثم ألباب وأذهـان  
 وذبول القوم أردان  
 فهو في الكاسات حيران  
 حيث يعيبهن وجدان  
 إنما الأيام أقـران

وهي قصيدة تظهر فيها الرشاقة، وخفة الروح؛ ولكن أين هي من  
 خمرات الفاجر أبي نواس!

وسئل مرة ثانية وصف الخمر فقال:

راح يجـول<sup>(١)</sup> شعاعها  
 فكانمـا في كأسها  
 مـاء الهـجير مـرقـقا

بين الضمائر والعقول  
 والليل منسحب الـذيول  
 في سرّة الظلـل الظلـل

وهي أبيات ظريفة جدا، وقد تجمل فيها تجمل النبلاء.

ويصح أن نذكركم بما قضينا به يوم درسنا غراميات الشريف، فقد قلنا إنه وقف عند المعاني الوجدانية، ولم يشغل نفسه بوصف الجوانب الحسية إلا قليلا.

وكذلك فعل حين وصفها الصهباء.

كان الشريف شاعرا وصادقا. ولكن أين الشواهد؟

حدثوا أنه سئل وصف فرخ حمامة فقال:

|  |                          |
|--|--------------------------|
| لأيدي العيس واضعة الرحال <sup>(١)</sup>  | لحسب إلي بالدهناء ملقى   |
| غريب الحاج والهمم العوالي <sup>(٢)</sup> | منأخ مطلحين تقساذفتهم    |
| قد افترشوا زرابي الرمال <sup>(٣)</sup>   | أراحوا فرق أعضاء المطايا |
| وبين مقيد بعري الكلال                    | فبين مضمض بالتوم ذوقا    |
| أغر كجلحة الرجل البجال <sup>(٤)</sup>    | إلى أن روع الظلمات فتقى  |
| سلاليم المعالق والجبال                   | فقاموا يرتقون على ذراها  |
| على جرح قريب الاندمال                    | وأرقتني دعاء السورق فيها |
| وسالفة الغزالة والغزال                   | تذكرني بسالفة الليالي    |
| جمعن لنا وأيام الوصال                    | وأيام الشباب مساعفات     |
| على ظمأ وأنفاس الشمال                    | كأنفاس الشمول كرعت فيها  |

(١) الدهناء: اسم مكان.

(٢) الحاج: هي الحاجات، والمطلحون: هم المهزولون.

(٣) الزرابي: هي الأبسط، وهي كلمة قرآنية، ولا تزال مستعملة في بلاد المغرب.

(٤) الجلحة: انحسار الشعر عن الرأس، والبجال: على وزن سحاب هو الشيخ الكبير مع جمال ونبيل.

أقول لها وقد رنت مراحا  
تباعد بيننا من قيل شاك  
تربيع إلى درادق عا طلات  
لها صنع يطول على طلاها  
عوار لا تزال الدر حتى  
وكل أزبرق قصرت خطاه  
مراحك قبل طارقة المنايا  
لبالك يا حمامة غير بالي<sup>(١)</sup>  
تغلق بالگرام وقيل سالي  
وهن بعيد آونة حوالي<sup>(٢)</sup>  
قلائد لا تفصل باللاللي<sup>(٣)</sup>  
تجملها بربط غير بالي  
كشيخ الحسي طأطأ للحوالي  
وقبل مبرد عادبة الليالي<sup>(٤)</sup>

وهذه القصيدة تمثل مذهب الشريّف في الوصف أصدق تمثيل، فهي في الأصل نظمت في وصف فرخ الحمام؛ ولكن فرخ الحمام من ذلك جاء فرعاً ولم يجيء أصلاً، فقد شغل الشاعر نفسه بوصف مناخ العيس وحوها الركب الطليح، وشاءت له الشاعرية أن يصف ذلك المنظر أجمل وصف، فلما وصل إلى فرخ الحمام لم يشغل نفسه بوصفه إلى قليلاً.

وهنا نجد الأدلة التي تساعد على الحكم بالقول الفصل، فالشريّف شاعر وصاف؛ ولكن الوصف عنده لا يقع إلا عن طريق الاستطراد.

وقد حدثناكم منذ أشهر يوم تكلمنا عن العلا والمعالي في قصائد الشريّف أن جامع الديوان عنون إحدى قصائده بوصف الأسد، ثم أريناكم أنه ما وصف الأسد، وإنما وصف نفسه، أعني أن شبه نفسه بالأسد فساقه ذلك إلى وصف الأسد عن طريق الاستطراد، وأنتم تذكرون أنه قال:

سيرعب القوم مني سطوذي لبد له بعشر أعراس وولدان

(١) رنت: صاحت وسجعت.

(٢) تربيع: ترجع، والدرداق: الأطفال، مفردها درق.

(٣) الضرع: بالكسر من معانيه الثوب، والمراد به الريش، والطلى: بالضم هي الأعناق.

(٤) هذا البيت دعوة إلى انتهاب الصفو في أيام الشباب.

لا يطعم الطعم إلا من فريسته  
 ماشي الرفاق يراعي أين مسقطهم  
 إن يعدم القرن يوماً فهو طيان  
 والسمع متصب والقلب يقظان  
 إلى آخر الوصف.

وكذلك يفعل الشريف في أكثر الأوصاف، فمن أراد أن يعرف قدرته  
 الوصفية فليتابعه حيث استطرد، فهناك قدرته على التصوير والتلوين.

ومن شواهد ذلك قصيدته البائية في وصف الركب، ركب الحجيج، وما  
 كانت القصيدة نظمت لوصف الركب، ولكن الشاعر استطرد فقال:

ثمانون من ليل التمام نجوبها  
 نؤم بكعب العامري نجومها  
 نقوم أيدي اليعملات وراءه  
 كأننا أناييب القنائة يؤمها  
 كذئب الغضا أبصرته عند مطمع  
 بعين ابن ليل<sup>(١)</sup> لا تدأوي من القذى  
 ترأه قبوعا بين شرخي رحاله  
 فمن حلة نجتأها وقبيلة  
 ومن دار أحباب نبل طلوهها  
 ومن رفقة نجدية بدوية  
 ونذكرها الأشواق حتى تحنها  
 إذا ما تحدى الشوق يوماً قلوبنا  
 وملنا على الأكوار طربى كأنها

رفيقين تكسوننا الديداجي ثيابها  
 إذا ما نظرنا ما انتظرنا غياها  
 ونعدل منها أين أو ما رقابها<sup>(٢)</sup>  
 سنان مضى قدما فأمضى كعابها  
 إذا هبط البيداء ثم تراها  
 يربس أقاصي ركبها ما أرابها  
 كمذروبة ضموا عليها نصابها<sup>(٣)</sup>  
 نمر بها مستنبحين كلابها  
 بهاء الأماقي أو نحوي جناها  
 تفاوضنا أشجانها واكتئابها  
 وتعددي بأطراف الحنين ركابها  
 عرضنا له أنفاسنا والتابها  
 رأينا العراق أو نزلنا قبابها

(١) اليعملات: النوق.

(٢) في الديوان (ليلي)

(٣) المذروبة والمذرب: السيف.

نشاق إلى أوطاننا وتوقنا  
وكم ليلة بتنا نكابدها  
وقد نصلت أنضاؤنا من ظلامها  
وهاجرة تلقى شرار وقودها  
إذا ما ظللنا بعد ظمأ بائها  
تمنى الرفاق الورد والريق ناضب  
زيادات سير ما حسبنا حسابها  
ونمزق حصباها إذا الغمرها بها  
نصول بنان الخود تنضو خضابها  
على الركب أنعلنا المطي ظرابها  
وعج الظوامي أوردتنا سراها  
فلا ريق إلا الشمس تلقى لعابها

ففي هذه القصيدة وصف الشاعر القافلة، ووصف الدليل أجمل وصف، وكان السياق يوجب أن تكون القصيدة في التودد إلى رفيقه في السفر وهو ابن أبي الزمان.

أحب أيها السادة أن تذكروا هذه الحقيقة التي استكشفتها بطول الدرس، وهي أن الوصف عند الشريف يقع غالبا على طريق الاستطراد، فإن ذكرتم هذه الحقيقة لم يصعب عليكم استقراء ما عنده من جيد الأوصاف.

وقد أشرنا إلى أنه وصف الأسد عن طريق الاستطراد. تظنون فهل أن ذلك وقع مرة واحدة؟ لا، فهناك شاهد ثان.

بني عامر ما العز إلا لقادر  
ضجيج الهوينا يغلب الخصم رأيه  
أرى إبل العوام تحدي على الطوى  
وتظماً على الأغذاذ أشداق خيله  
يحاول أمرا يرمق الموت دونه  
أقام يرى شم النسيم غنيمته  
وتعجبه غر البروق يشميمها  
ولي بين أخفاف المراسيل حاجة  
تحاربني في كل شرق ومغرب  
على السيف لا نخطو إليه المظالم  
وأكبر سلطان الرجال الخصائم  
وتأكل حوذان الطريق المناسم  
وتشرب من أفواههن الشكائم  
لقد زل عنه ما تروم المراوم  
ولا بد يوماً أن ترد الغنائم  
سراعاً إذا مرت عليها الغنائم  
ستصحب والأيام بيض نواعم  
وأكبر ظني أنها لا تسالم

تقاذهما حتى الصباح المخارم  
 أشم طويل الساعدين ضبارم  
 وإن ثار لا تعيا عليه المطاعم  
 ذوابل من أنيابه وصوارم  
 ولا عاد يوما أنفه وهو راغم  
 وتستن منه في العرين الغنائم  
 وقد فضحتنا بالبنغام الرواسم  
 تشاركه فيها النصور القشاعم  
 تسيقظ من أنيابه وهو نائم  
 ويمضي إذا ما بادته العظام  
 إذا خفقت تحت الظلام الضراغم

أقول إذا سالت مع الليل رفقة  
 دعبي جنبات الوادين فدونها  
 إذا هم لم تقعد به عزماته  
 كأن على شذقيه ثغرا وراءه  
 فما جذب الأقران منه فريسة  
 يرى راكب الظلماء في مستقره  
 نمر وراء الليل نكنمه السرى  
 له كل يوم غارة في عدوه  
 كأن المنايا إن توسد باعه  
 وما الليث إلا من يدل بنفسه  
 وما كل ليث يغنم القوم زاده

فهذه القصيدة نظمت في الأصل لغرض غير وصف الأسد، ثم جاء وصف الأسد عن طريق الاستطراد؛ ولكن أي وصف؟ يكفي أنه قال:

كأن المنايا إن توسد باعه  
 تسيقظ في أنيابه وهو نائم

وكذلك فعل في قصيدة:

وذي ضغن معسولة كلماته  
 ومسمومة تترى إلى القلب نبله

فهي قصيدة قالها في محاربة بعض الأعداء؛ ولكنه استطراد إلى وصف الأسد فأجاد، ويكفي أنه قال:

قليل ادخار الزاد يعلم أنه  
 متى ما يعاين مطعما فهو آكله

وفي مثل ما صنع في وصف الأسد صنع في وصف الحية.

نبهت مني يا أبا الغيداق  
 أصم لا يسمع صوت الراقي

وهي قصيدة رآها جامع الديوان في وصف الحية فعنونها بذلك، وهي حقيقة في وصف الحية، وإن كانت وقعت على طريق التشبيه؛ ولكن جامع الديوان نسي أن الشريف استطرد فوصف قصائد الهجاء أخطر وصف، إذ قال:

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| أهدفت الأرعاد والأبراق   | نصب مسيل العارض البعاق     |
| ترقع عرضاً منك ذا انخراق | كما رفدت النعل بالطراق     |
| حذار من مذروبة ذلاق      | ترفع عنك جانب الرواق       |
| هواجماً مقطوعة الرباق    | حتى على الآذان والأحداق    |
| تنزع الأصول بالأعراق     | يلجأ إليها الحر إلى الإباق |
| أعقدها مواضع الأطواق     | لهذا على الأعناق وسم بناق  |

إلى آخر القصيدة، وقد وصفت فيها الأهاجي بأخطر ما وصفت به الحية.

أيها السادة:

ذلكم قولنا في الوصف عند الشريف، ومنه ترون أن الوصف له عنده خصائص قد تباين ما عند غيره من سائر الشعراء.

وقد يمزج بين الوصف والرثاء كقوله في وصف الحيرة، وبكاء ملوكها السالفين من آل المنذر بن ماء السماء.

|                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| أين بانوك أيها الحيرة البيـ | ضياء والموطنون منك الـديارا |
| والألى شققوا ثراك من العـ   | ب وأجروا خلالك الأنهارا     |
| المهييـون بالـضيوف إذا هـبـ | ت شمالا والموقدون النارا    |
| كلما باخ ضوؤها أقضموها      | بالتبيبات مندليا وغسارا     |
| رابطوا حولك الجياد وخطوا    | لك من مركز العوالي عذارا    |
| وحموا أرضك الحوافز حتى      | لقبوا أرضها خدود العذارى    |
| لم يدع منك حادث الدهر إلا   | عبرا للعيون واستتعار        |

وبقايا من دارسات طول  
 عبقات الثرى كأن عليها  
 وقباب كأنها رفعوا منها  
 عقدوا بينها وبين نجوم الأفق  
 أين عقبانك الخواطف حلقن  
 ورجال مثل الأسود مشوا فيه  
 جذا أهلك المحلون أهلا  
 لم يكونوا إلا كركب تأنى  
 خبرتنا عن أهلها الأخبارا  
 لطمين يتفضون العطارا  
 المسترشد الظلام منارا  
 من سالف الليالي جوارا  
 وأبقين عندك الأوكارا  
 لك تداعوا قوائها وشفارا  
 يوم بانوا وجذا الدار دارا  
 برهنة في مناخه ثم سارا

وما أظنكم تحتاجون إلى من يرشدكم إلى جوانب الدقة والروعة في هذا القصيد.

وقد مر بالحيرة مرة ثانية فراعته بلاؤها بالزمان وجاش صدره بهذه القصيدة:

ما زلت أطرق المنازل بالنوى  
 بالحيرة البيضاء حيث تقابلت  
 شهدت بفضل الرافعين قبابها  
 ما ينفع الماضين أن بقيت لهم  
 باق بها حظ العيون وإنما  
 وعرفت بين بيوت آل محرق  
 ومناطق ما اعتقلوا من البيض الطبا  
 ورأيت مرتبط السوابق للمها  
 المهاجرين على الملوك قباهم  
 حتى نزلت منازل النعمان  
 ثم العماد عريضة الأعطان  
 ويبين بالبنيان فضل الباني  
 خطط معمرة بعمرفاني  
 لاحظ فيها اليوم لالأذان<sup>(١)</sup>  
 مأوى القسرى ومواقد النيران  
 ومجر ما سحبوا من المران  
 ومعاقل الآساد للذؤبان<sup>(٢)</sup>  
 والضرارين معاقد التيجان

(١) هذا بيت جيد.

(٢) وهذا أيضا بيت جيد.

وأسد الشرى وأساود الغيطان  
 أما من الضراء والحدثان  
 أنصاره وخلا من الأعوان<sup>(١)</sup>  
 إطراق منجذب القرينة عان<sup>(٢)</sup>  
 فرموا على الأعناق بالأذقان  
 من قبل بيع زمانها بزمان  
 حتى غدوت مرابض الغزلان<sup>(٣)</sup>  
 منهم فصرت ملاعب الجنان  
 أدماء غانية عن الجيران  
 لأغر من ولد الملوك هجان  
 وهما السلافة منه والروقان  
 وتجيئني عبر بغير لسان  
 لولم يؤل جزعي إلى السلوان  
 وينام بعد تفرق الأقران  
 ببرد الخليع معطر الأردان  
 جرت الرياح بها على العقيان  
 ونقا يدرجه النسيم السواني  
 والمنذرين تغيير الأزمان  
 وإلى الحفائظ في بني السديان  
 وأقض منزلهم على نجران

وكان يوم الإذن يبرز منه  
 ولقد رأيت بدير هند منزلا  
 أغضى كمستمع الهوان تغيبت  
 بالي المعالم أطرقت شرفاته  
 أو كالوفود رأوا سماط خليفة  
 وذكرت مسحها الرياط بجواه  
 أمقاصر الغزلان غيرك السبلا  
 وملاعب الأنس الجميع طوى الردى  
 من كل دار تستظل رواقها  
 ولقد تكون محلة وقرارة  
 بطأ الفترات فناءها بعبابه  
 ووقفت أسأل بعضها عن بعضها  
 قدحت زفيرى فاعتصرت مدايعي  
 ترقا الدموع ويرعوي جزع الفتى  
 مسكية النفحات تحسب تربها  
 وكأنها نشر التجار لطيمة  
 ماء جيب الدرع تصقله الصبا  
 حلل الملوك رمى جذيمة بينها  
 طردا كدأب الدهر في طرد الألى  
 نعق الزمان بجمعهم عن لعلع

(١) في هذا البيت خيال طريف.

(٢) للقارئ أن يتأمل في إطراق الشرفات وتشبيهاها بالبعير المقرون. وهذا بيت نفيس

جدا، والمعنى قديم ولكن الشاعر أورده وردا قويا.

(٣) هذا معنى يكرره الشريف وسنراه في المراثي.

وكآل جفنة أزعجتهم نبوة  
وعن المدائن جلجلت برعادهما  
وإلى ابن ذي يزن غدت مرحولة  
زفر الزمان عليه فتفرقوا  
نقلت قباهم عن الجولان  
عرگًا لكلكلها عن الإيوان  
نفضت حويتها على غمدان<sup>(١)</sup>  
وجلوا عن الأوطار والأوطان

ويضيق الوقت عن تحليل هذه القصيدة النفيسة، وقد ظلت على نفاستها  
منسية، فلم أرَ إليها إشارة في أي كتاب.

وبكاء الديار قديم في الشعر العربي؛ ولكن كان في الأغلب مقصورًا على  
ديار الأحباب، وأظهر من شرع مذهب بكاء الآثار بين القدماء هو البحري في  
القرن الثالث، وأظهر من شرع هذا المذهب بين المحدثين هو إسماعيل صبري  
في أوائل القرن الرابع عشر، وقد أشرنا في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين  
الشعراء) إلى أن شوقي نقل عن صبري هذا المذهب، فوصف الآثار المصرية  
والأندلسية بقصائد سارت مسيرة الأمثال.

أما بعد فهل تروني أقنعتكم بأن الشريف كان من الشعراء الوصّافين؟

(١) الحوية: كماء محشو يوضع حول سنام البعير.

## مراثي الشريف

أيها السادة:

نحن مقبلون على فن أجاد فيه الشريف وهو الرثاء، ومراثي الشريف تنقسم إلى قسمين: رثاء أهل البيت، ورثاء الأصدقاء والرؤساء والملوك.

أما رثاء الشريف لأهل البيت: فلن أحدثكم عنه في هذه المحاضرة؛ لأنني كتبت عنه فصلاً مطوّلاً في كتاب (المدائح النبوية) وقد نشرته مكتبة مصطفى الحلبي منذ ثلاث سنين، وأنا أكره الحديث المعاد، فمن شاء منكم أن يعرف كيف رثى الشريف أهل البيت فليرجع إلى ذلك الكتاب.

وأما مراثي الشريف للأصدقاء، والرؤساء، والملوك، والخلفاء فلها ألوان، وقد مرت لبعضها في هذه المحاضرات إشارات، وما أشرت إليه من قبل لا أعود إليه في هذا المساء.

وأسارع فأقرر أن مراثي الشريف تفصح عن رأيه في دنياه، وتشهد بأنه كان يشعر بأن نهايته قريبة وأن متاعه في الحياة قليل.

ويظهر أن شوقي تأثره من هذه الناحية، مع الفرق بين الشاعرين فالشريف كان يتألم ويتضجّر من سخف الحياة، وشوقي كان يحب أن يعرف ما بعد الموت، وقصائد شوقي في هذا المعنى من الأعاجيب في الأدب العربي، ولها مذاق مرير، والشواهد الآتية تبين لكم ضجر الشريف من دنياه.

قال في تعزية محمد بن الحسن بن صالح عن والدته، وقد توفيت سنة

:٣٧٨

هي ما علمت فهل ترد همومها نوب أراقم لا ييل سليمها<sup>(١)</sup>

(١) السليم: هو الملدوغ أو الملسوع، وييل: يبرأ، والأراقم: الحيات.

إلا قضاء والزمان غريمها  
نفحات عيش لا يدوم نعيمها  
ريح عمر ولا يشم نسيمها  
في العمر إلا عاد وهو خصيمها  
بيدي بلى ويروقتا تسهيمها<sup>(١)</sup>  
قد كنت فيك أناهما وأنيهما  
عمر الزمان ولا يذيم مقيمها<sup>(٢)</sup>  
وأديم جبار يقاد أديمها  
يلقي رميم الأولين رميمها

وداء الموت مغرى بالأنام  
بمتصف من الداء العُقام  
وفي أيدي الردي طرف الزمام<sup>(٣)</sup>  
يطول ولا خدرن على ملام  
وتعطف بالكرام وباللثام  
كما لقي الرضيع من الفطام  
بداء السيف أو داء السقام  
كآخر عائر العرنين دامى<sup>(٤)</sup>  
يفسر من الحياة إلى الحام  
وعزم لا أحط له لثامي

أرواحنا دين وما أنفاسنا  
فلأي حال تستلذ نفوسنا  
يمضي الزمان ولا نحس كأنه  
لم يشفع الدهر الخوون لهجة  
وكانت الدنيا الغرورة بردة  
يا دهر كم أسهرت لي من ليلة  
والأرض دار لا يلبذ نزيلها  
كم باع أباء تفل بطونها  
قبر على قبر لنا وأواخر

وقال في رثاء بنت أحد الأصدقاء:

عجزنا عن مراغمة الحمام  
وما جزع الجزوع وإن تناهى  
وأبى نحور عن طروق المنايا  
نوائب ما أصخن إلى عتاب  
هي الأيام تأكل كل حي  
وكل مفارق للعيش يلقي  
وكم ليد النوائب من صريع  
فمن ورد المنية عن وفاة  
وما يغتر بالدنيا لبيت  
خطوب لا أجسم لها جوادي

(١) التسهيم: التخطيط.

(٢) يذيم: من الذام وهو العيب، ويقال ذام يذيم ذيباً وذاما فهو مذيم ومذيوم.

(٣) بيت جيد.

(٤) العرنين: بالكسر هو الأنف.

رأيت الموت يبلغ كل نفس  
سواء أن شددت له حزمي  
على بعد المسافة والمرام  
زماً أو حللت له حزامي<sup>(١)</sup>

وقال أيضاً في رثاء بنت أحد الأصدقاء، وقد حدثناكم من قبل عن غرامه  
برثاء البنات والنساء:

نخطو وما خطونا إلا إلى الأجل  
والعيش يؤذنتنا بالموت أوله  
يأتي الحمام فينسي المرء منيته  
ترخي النواذب من أعمارنا طرفاً  
لا تحسب العيش ذا طول فتركه  
نروغ عن طلب الدنيا وتطلبنا  
يقودني الموت من داري فأتبعه  
والمرء يطلبه حتفه فيدركه  
ليس الفناء بمأمون على أحد  
تعز ما استطعت فالدينا مفارقة  
ولا تشك زماناً أنت في يده

وننقضي وكان العمر لم يطل  
ونحن نرغب في الأيام والدول  
وأفضل الداء ما يلهي عن الأجل  
فنستعز وقد أمسكن بالطول<sup>(٢)</sup>  
يا قرب ما بين عنق اليوم والكفل  
مدى الزمان بأرماح من الأجل  
وقد هزمت بأطراف القنا الذبل  
وقد نجا من قراع البيض والأسل  
ولا البقاء بمقصور على رجل  
والعمر يعنق والمغرور في شغل<sup>(٣)</sup>  
رهن فمالك بالأقدار من قبل<sup>(٤)</sup>

وقال في رثاء تقيّة بنت سيف الدولة:

نغالب ثم تغلبنا الليالي  
ونطمع أن يمل من التقاضي  
وكم يبقى الرمي على النبال  
غريم ليس يضجر بالمطال

(١) الحزيم: على وزن أمير هو الصدر.

(٢) الطول: على وزن عنب هي طاقات الحبل.

(٣) يعنق: يسرع، والعنق بالتحريك: ضرب من السير.

(٤) القبل على وزن عنب: هو القدرة.

ليالينا وتعثر بالجبال<sup>(١)</sup>  
 رهونًا بالجنادل والرمال  
 وملحقة الأواخر بالأوالي  
 ضربن على الموارد بالجبال<sup>(٢)</sup>  
 ويحفرنا المنون إلى الرحال  
 شبًا بين الأخامص والنعال  
 تهجر ضاحيًا بعد الظلال

أنظر كيف تسفع بالنواصي  
 يحيط السيل ذروة كل طود  
 هي الأيام جائزة القضايا  
 بمنين السورود فإن دنونا  
 نطنب للمنون قباب حي  
 ونسرح آمنين وللمنايا  
 وبيننا المرء يلبسها نعيًا

وقال في رثاء عمر بن إسحاق بن المقتدر:

ويشفى بأسراب الدموع غليل  
 وشيب الفتى غضب عليه صقيل  
 ولا عصرنا بعد الشباب طويل<sup>(٣)</sup>  
 دليل على أن البقاء يحول  
 شروب لأعمار الرجال أكول  
 وهل غير أحشاء القبور مقبل  
 فهمك لا العمر القصير يطول  
 فكل مقام في الزمان قليل  
 درى أن ظلًا لم يزل سيزول

أيرجع ميثا رنة وعويل  
 شباب الفتى ليل مضل لطرقة  
 فما لوننا قبل المشيب بدائم  
 وحائل لون الشعر في كل لمة  
 نؤمل أن نروي من العيش والردى  
 نقول مقيل في الكرى لجنوننا  
 دع الفكر في حب البقاء وطوله  
 ولا ترج أن تعطى من العيش كثرة  
 ومن نظر الدنيا بعين حقيقة

وفي رثاء بعض الأصدقاء يقول:  
 وما العيش إلا غمة وارتياحة  
 هو السدر ببلي جدة بعد جدة

ومفترق بعد الدنو وملتقى  
 فيا لابسا أبلي طويلًا وأخلقا

(١) تأمل هذا الخيال.

(٢) وتأمل هذا أيضًا.

(٣) في الديوان: "فما لون ذا، وما عصر ذا".

فكم من علي فيك حلق وانتهوى وكم من غني نال منك وأملقا

وقال في رثاء الصاحب عميد الجيوش:

وهل نحنن إلا مرامي السهام يحفزهما نابـلـ دائـب  
نسر إذا جازنا طائش ونجزع إن مستا صائب  
ففى يومنا قدر لا بد<sup>(١)</sup> وعند غد قدر وائب  
طرائد تطلبها النائبات ولا بد أن يدرك الطالب

وفي رثاء علي بن الحسين نقيب العباسيين يقول:

تناهى بنا الأجال عن كل مدة وما تنتهي بالطالين المطالب  
نفر بإيعاد الردى وهو صادق ونطمع في وعد المنى وهو كاذب

وفي رثاء خاله أحمد بن الحسين الناصر يقول:

لنا كل يوم رنة خلف ذهب ومستهلك بين النوى والنوادي  
وقلعة إخوان كأننا وراءهم نرامق أعجاز النجوم الغوارب<sup>(٢)</sup>  
نوادع أحداث الليالي على شفا من الحرب لو سالن من لم يحارب  
ونأمل من وعد المنى غير صادق ونأمن من وعد الردى غير كاذب  
وما الناس إلا دراع مثل حاسر يصاب وإلا داجن مثل سارب  
إلى كم نمنى بالغرور وتثني بأعناقنا لمطعمات الكواذب  
نبراع إذا ماشيك أخص بعضنا وأقدامنا ما بين شوك العقارب  
ونمسي بآمال ظوالم كأننا أمنابيات الخطب دون المطالب

وفي تعزية أبي سعيد بن خلف عن ابنه يقول:

وأرى الناس وافرًا وملقى بالرزايا والأرض دارًا وقبرًا

(١) اللابد: المتخفي، وهي كلمة لا تزال مستعملة في مصر.

(٢) القلعة: بالضم لانقلاع، وهو على قلعة أي على رحلة.

منزلي قلعة ولبث فهذا  
كل يوم نذم للدهر عهدًا  
قد أنيخت لنا الركائب فالحا  
أسمع الحاديان واستعجل الرك  
كم فقبد لنا طوته الليالي  
وكان الأيام يدركن ثارًا  
إنما المرء كالقضيب تراه

أيها السادة:

أتعرفون لماذا أطلت في سرد هذه الشواهد؟

إنما أطلت؛ لأنني رأيت جماعة منكم ينكرون فيما سلف أن أكتم الأشعار التي تشهد بأن الشريف كان يعاني علة خفية، وكانت حجته أن الدرس لا يعرف الكتبان، فليفهموا في هذا المساء كيف عجز الشريف عن أن يعيش نصف ما عاش أبوه، وليفهموا كيف كان يدعوا إلى انتهاب الصفو من أيام الشباب، وستعرفون فيما بعد أنه مات في السابعة والأربعين، وهي مئة مبكرة جدًا، بالنسبة لرجل مثله من أسرة كان أكثرها من العماليق.

وهناك جانب محزن في مراثي الشريف هو بأسه من وفاء الباكين، كأن

يقول:

كم ذاهب أبكى النواظر مدة  
أو ثغر محزون تبسم سلوة  
ومضى وطاب لقلته تهويمها  
والعين لما يرق بعد سجومها

وكان يقول:

من مات لم يلق من يحيا يلائمه  
فكن بكل مصاب غير محتفل

وكان يقول وهو يرثي الخيرة:

ووقفت أسأل بعضها عن بعضها  
قدحت زفيرى فاعتصرت مدامعى  
ثرفا الدموع ويرعوي جزع الفتى  
وتجيبني عبر بغير لسان  
لن لم يؤل جزعى إلى السلوان  
وينام بعد تفرق الأقران

وهو مذهب قديم أعلنه أبو العتاهية إذ قال:

إذا ما انقضت يوماً من الدهر مدتي  
سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتي  
فإن غناء الباقيات قليل  
ويحدث من بعد الخليل خليل

ويأس الشريف من الدنيا والناس راضه عن التآسي والتجلد:

صبرت عنك فلم ألفظك من شيع  
وإن لي عادة في كل نازلة  
لذاك شجعت قلبي وهو ذو كمد  
ماض على وقعات الدهر إن طرقت  
وحاسر يتلقى كل نائبة  
ما غاض دمعى إلا بعدما انحدرت  
لولا اندفاع دموع العين غالبه  
في اليأس منك سلو عنك يضمه  
وهوّن الوجد أن الموت مشترك  
شمي الثنايا إلى الآجال نطلعها  
مبهات لا قارح يبقى ولا جزع

لكن أرى الصبر أولى بي من الجزع  
أن لا تذلل لها عنقي من الضرع  
ومات بالدمع عنى وهو ذو دفع  
غداً بحمل أذاها جسد مضطلع  
تدمى فيصبر فيها صبر مدرع  
غروبـه بين منهل ومنهمع  
لم يعقب الصبر دمعا غير مندفع  
وقبل يومك يقوى الحزن بالطمع  
فينا وأنا لهذا الماضي من التبـع  
فمن حيث ومن راق على ظلع  
عن نوائب كـر الأزلـم الجذع<sup>(١)</sup>

ولكن هذا المتجلد يحتاجه اللوعة من حين إلى حين فيقول:

لقد ذهب العيش الرقيق بذاهب  
هو الغارب المجزول من ذروة المجد<sup>(٢)</sup>

(١) الأزلـم: هو الدهر.

(٢) الغارب المجزول: هو السنام المقطوع.

وهيل عليه التراب من جانب اللحد  
وقد جبهها صرف الزمان من الزند  
صميمي بالداء العنيف على عمد  
فأيسر ما لاقيت ما حرز في الجلد  
وجفت له خضر الغصون من الرند

صممت لها ما أورد العود مسمعا  
وما نطق الناعون إلا لأسمعا  
وأخذ نيران القرى يوم ودعا  
والطف في قلبي من القلب موقعا  
لقلبي وراء الهم مذ غاب مطلقا  
وودعني مثل الشباب مودعا  
يخط جنب قبل جنبك مصرعا  
ستنفذ أنفاسا حارا وأدمعا  
فطيرا بأعباء الملامة أوقعا

إذا تذكرت إخوان الصفاء معي  
يدي بجبل من الأفران منقطع  
شري ويو بين مصطافي ومرتعي  
وأزلتلك النوى عني بمنقطع  
فشمل دمعي ولبي غير مجتمع  
من بعد يومك في مرأى ومستمع

وإني إذا قالوا مضي لسبيله  
كساقطة إحدى يديه إزاءه  
وقد رمت الأيام من حيث لا أرى  
فلا تعجبا أني نحلت من الجوى  
ولو أن رزءا غاض ماء لكأنه

ويقول:

جوانب<sup>(١)</sup> أنباء وردت بأنني  
تصامت حتى أبلغ النفس عذرة  
بأن أبا حسان كبت جفانه  
أعز على عيني من العين موضعا  
أكن غليبي بالضلوع ولم أجد  
وفارقتي مثل النعيم مفارقا  
غلا الوجد بي حتى كأن لم أرى الردى  
فإن لم تزل نفسي عليك فإنها  
في لائمى اليوم لا صبر بعده

ويقول:

لله نفرة وجدت لست أملكها  
يواصل الحزن قلبي كلما فجمت  
ما للبالى يرنفن المجاجة من  
عدت عوادي الردى بيني وبينكم  
وشئت شملك الأيام ظالمة  
أخي لا رغبت عيني ولا أذني

(١) في الديوان (جوانب).

وما هذه أشعارًا، إن هي إلا أنفاس حرار.

أيها السادة:

كان الشريف من كرام الأوفياء ومراثيه أصدق شاهد، وقد حدثتكم من قبل أنه كان بقي لأصدقائه فيرثيهم يوم الموت، وبعد أن يطول عهدهم بالموت ونحدثكم الآن أنه صنع مثل هذا الصنيع مع بهاء الدولة، فقد رثاه بالكافية التي سمعتموها من قبل، وبعد أن مرَّ على موته ثمانية عشر شهرًا حنَّ إليه فقال:

|                              |                          |
|------------------------------|--------------------------|
| أظن الليالي بعدكم سترع       | فلم يبق لي من رائع فتروع |
| خذي عدة الصبر الجميل فإنه    | لكل نزاع يا أميم نزوع    |
| وقد كنت أبكي للأحبة قد أنى   | لقلبي سلو واطمأن ولوع    |
| ولكنما أبكي المكارم أخليت    | منازل منها للندي وربوع   |
| وهل أنا جاز ذلك العهد باليكا | ولو أن كحل الماقين نجيع  |

إلى آخر القصيدة.

أيها السادة:

لم يبقَ إلا أن نشير إلى أروع مراثي الشريف، وأروع مراثيه اثنتان: العينية: منابت العشب لا حام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

والرائية:

ألقى السلاح ربيعة بن نزار أودى الردى بقربك المغسوار

والعينية: من عجائب المراثي، والشاعر يجلجل فيها جلجلة قوية، تشهد بقدرته الفائقة على اقتراع المعاني، وانظروا كيف يقول:

منابت العشب لا حام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

والمطعم البذل الديمومة القناع<sup>(١)</sup>  
ومن يجلل نوقاً بين أنساع<sup>(٢)</sup>  
ويهدم العيس من شد وإيضاع  
عيناه إلا على عزم وإزماع  
إذا رموه بأبصار وأسماع  
عضضت كفي من غيظ على الناعي  
عمداً وقد أبلغ الناعون أسماعي

القائد الخيل يرعيها شكائهما  
من يستفز سيوفاً من مغامدها  
يسقي أستته حتى تقىء دماً  
ما بات إلا على هم ولا اغتمضت  
خطيب مجمعة تغلي شقاشقة  
لما أتاني نعي من بلادكم  
أبدي التصامم عنه حين أسمع

وأما الرائية: فهي من غرائب الشعر الجزل، وقد شرحها ابن جني في حياة الشريف، واهتمام الأستاذ بشرح قصائد تلميذه من أطايب البر والرعاية، وقد عرف التلميذ لأستاذه هذه الفضل فمدحه ورثاه، وكان يعبر عنه في مؤلفاته بعبارة (قال شيخنا أبو الفتح).

وانظروا كيف ابتداء الشاعر هذه القصيدة:

أودى السردى بقريعتك المغوار  
ميل الرقاب نواكس الأبصار  
فقدت مصرفها ليوم منار  
عنهن كبش الفيلق الجرار  
مغرى بحل معاقد الأكوار  
وهذا تحمّط فحللك الهسدار  
وطوى غوارب ذلك التيار  
فينسا ويان تحاميل الأقدار  
ولى وفالتى هامسة الجبار

ألقى السلاح ربيعة بن نزار  
وترجلي عن كل أجرد سابع  
ودعى الأعنة من أكفك أنها  
وتجنبي جسر المقنا فلقد مضى  
وليغد كل معروض من بعده  
قطع الزمان لسانك العضب الشبا  
واجتاح ذاك البحر يطفح موجه  
اليوم صرحت النوائب كبيدها  
مستنزل الأسد الهزير برمحه

(١) الديمومة: الفلاة الواسعة.

(٢) الأنساع: جمع نسع بالكسر وهو سير تشد به الرحال.

ونعطلت وقفات كل كريمة أبداً وحط دواق كل غبار

أيها السادة:

قد رأيتم ألواناً من عواطف الشريف في مراثيه، ورأيت كيف صورت تلك المراثي فهمه لقيمة الحياة، ورأيتم كيف كان يتجلد، وكيف كان يرتاع.

وما أحسبني في حاجة إلى النص على قوة الشاعرية في مراثي الشريف ويهمني أن أذكركم بأن تلك المراثي جمعت خصائص الشئال العربية، أو ما كان يتصور الشريف من الشئال العربية، والرجوع إليها في الديوان يفتح أمامكم باباً من فهم النفوس والقلوب والعقول، ويغريكم بالتطبع والتخلق بها كان عند أسلافنا الأسوياء من طباع وأخلاق.

ما كان الرثاء عند أسلافنا بكاءً ونواحاً، وإنما كان تسجيلاً لخلائق الأبطال وتذكيراً بما يجب أن يتخلق به الرجال.

## قصيدة الوداع

وقف الشريف على منزله قبل أن يموت بنحو عام واحد فقال:  
 أمل من مآنيها فهذا مقيلها      وهذي معاني دورهم وطلولها  
 حرام على عيني تجاوز أرضها      ولم يرو أظماء السديار هوها  
 وقد خالطت ذاك الشرى نفحاتها      وجرت على ذكر الصعيد زبولها  
 حقوق رمال ما يخاف انيالها      وأغصان بان ما يخاف ذبولها  
 إذا ما تراءها اللوائم ساعة      فأعذرها فيمن يحسب عذولها  
 رضينا ولم نسمح من النيل بالرضا      ولكن كثير لو علمنا قليلها  
 شمس قباب قد رأينا شروقها      فياليت شعري أين منا أفولها  
 تعالين عن بطن العقيق تيامنا      يقومها قصد السرى ويميلها  
 كهل من معيري نظرة فأريكها      شريقي نجد يوم زالت هوها  
 فطامية التيار يجري سفينها      أو الفلج العلياء يهفو نخيلها<sup>(١)</sup>  
 ولم تَرَ إلا ممسكًا يمينه      رواجف صدر ما يبيل غليلها  
 دعوا لي قلبًا بالفراغ أذيبه      عليكم وعينًا في الطلول أجيلها  
 سقاها الرباب الجون كل غمامة      يهش لها حزن الملا وسهولها<sup>(٢)</sup>  
 نجائب لا يودي بأخفافها السرى      وإن طال بالبيد القواء ذميلها  
 فكم نفحة من أرضها بردت جشا      وبيل غليلاً من فؤاد بليلها  
 منازل لا يعطي القياد مقيمها      مغالبة ولا يهان نزيلها  
 خليلي قد خفّ الهوى وتراجعت      إلى الخلم نفس لا يعز مذيها  
 فلست ابن أم الخيل إن لم أمل بها      عوابس في دار العدو أبيلها  
 إذا انجفلت من غمرة تاب كرها      وعاد إلى مرّ المنايا جفولها

(١) الفلج: جمع فلجة بالضم، من الفلج وهو شق الأرض للزراعة.

(٢) الرباب الجون: السحاب الأسود.

ويرعد من قرع العوالي خصيلها<sup>(١)</sup>  
 تغودر مرعى ذودها ومقلها  
 نغول بها هام العدا وتغولها  
 بيوم الوغى يقضي عليها فلولها  
 بضرب الطلى حتى تفانت نصولها  
 ببيض المواضي والعوالي نسيلها  
 ويجري بأعناق الرجال حميلها<sup>(٢)</sup>  
 وسالت بأطناب البيوت سيولها  
 محفزة تحت اللبود خيولها  
 فروع العملا مجموعة وأصولها  
 وختلى لها الشأو البعيد رسيلها<sup>(٣)</sup>  
 وشنَّ عليها للقاء شليلها<sup>(٤)</sup>  
 وتم جيراد ما يفلُّ رعيها  
 عشية لا يحمي النساء بعولها  
 رديف العلامن قبلكم وزميلها  
 وعجَّ عجيج الموقرات هولها  
 فيفرعها مستعلياً وطولها  
 وإن جاد قلنا مد من مصر نيلها  
 تطأطأ له شبانها وكهولها  
 أقام على نهج الهدي يستميلها

يزعفر من عض الشكيم لعابها  
 ونحن القروم الصيد إن جاش بأسها  
 بأيماننا بيض الغروب خفائف  
 تفللن حتى كاد من طول وقعها  
 قوائم قد جرّبن كل مجرب  
 وأودية بين العراق وحاجر  
 يمدّ بدفّاق الدماء غثاؤها  
 إذا هاشم العلياء عب عبابها  
 مدقعة تحت الرحال ركابها  
 رأيت المساعي كلها وتلاحقت  
 إذا استبقت يوماً تراخى تبعها  
 وإما أحالت للطعمان رماحها  
 فشم عوال ما ترد صدرها  
 وشم الحياة الذائدون عن الحمى  
 أبي ما أبي لا تدعون نظيره  
 هو الحامل الأعباء كل مطيقها  
 طويل نجاد يجتبي في عصابة  
 إذا صال قلنا أجمع الليث وثبة  
 خليم إذا التقت عليه عشيرة  
 وإن نعمة يوماً أمالت رءوسها

(١) الخصيل: على وزن أمير هو الذنب بالتحريك.

(٢) الحميل: هو من السيل الغشاء.

(٣) الرسيل: المراسل.

(٤) الشليل: الدرع الصغيرة.

وأنظرها حتى تعود حلومها  
ولم يطوها بالحلم قضل زمامها  
فعمن بأسه المهوب يرمي عدوها  
أكابرننا والسابقون إلى العملا  
وإن أسودًا كنت شبلًا لبعضها  
لمحقوقة أن لا يذل قتلها

وهذه القصيدة على قوتها ليست إلا زفرة شاعر مودّع، ولا سيما هذه الأبيات:

معا بعدكم تلك العيون بكاؤها  
فمن ناظر لم تبسق إلا دموعه  
دعوا لي قلبًا بالغرام أذيه  
عليكم وعينًا في الظلول أجيلها  
وغال بكم تلك الأضالع غولها  
ومن مهجة لم يبق إلا غليلها

ونقل صاحب التبيان أن أبا الحسن النحوي قال: دخلت على السيد المرتضى طاب ثراه يومًا، وكان قد نظم أبياتًا، فوقف به بحر الشعر فقال: خذ هذه الأبيات إلى أخي الرضي وقل له تمهما، وهي هذه:

سرى طيف سلمى طارقًا فاستفزني  
فلما انتبهنا للخيال الذي سرى  
فقلت لعيني عاودي النوم واهجمي  
لعل خيالًا طارقًا سيعود  
سحيرًا وصحبي في الفلاة رقود  
إذ الأرض قفّر والمزار بعيد

قال: فأخذتها ومضيت إلى السيد الرضي وأعطيته القرطاسة فلما رآها قال عليّ بالمحبرة، وكتب:

فردت جوابًا والدموع بواد  
ففيهات من ذكر حبيب تعرضت  
وقد آن للشمل المشت ورود  
لنادون لقياه مهامه ييد

فأتيت بها المرتضى، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى وقال: يعز عليّ أخي، يقتله الفهم بعد أسبوع، فما جاء الأسبوع إلا وجاء نعي الرضي ومضى

إلى سبيله.

وهذه نادرة يستبدها الناس؛ ولكنها طريقة، إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيهاً بحال من يخنقه أرج الأزهار فيموت.

وكانت وفاته رحمه الله في أوائل محرم سنة ٤٠٦ وورثاه أخوه المرتضى فقال:  
يا للرجال لفجعة جزمت يدي      وددتها ذهبتي علي براسي  
ما زلت آبي وردها حتى أتت      فحسوتها في بعض ما أنا حاسي  
ومطلتها زمنًا فلما صممت      لم يثنها مطلي وطول مكاسي  
لا تنكروا من فيض دمعي عبرة      فالدمع خير مساعد مواس  
وإنما العمرك من قصر طاهر      ولرب عمر طال بالأرجاس

ورثاه تلميذه مهيار بقصيدة يحفظها أكثر الأدباء:  
أقرش لا لفسم أراك ولا يد      فتواكلي غاض الندي وخلا الندي

ورثيته أنا بقصيدة طويلة جدًا، هي هذا الكتاب.

## الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ابتدأت كتابي باسم الله، وأختمه باسم الله.

وأعترف بأن هذا الجهد قليل جدًا بالنسبة لما كان يجب لشاعر مظلوم مثل الشريف الرضي؛ ولكن ماذا أصنع؟ إن أعبائي في دنياي تكاد تقصم ظهري، فأنا أقوم بمشروعات أدبية كثيرة يضيق العمر عما يجب لها جميعًا من إحاطة واستقصاء.

ومن كان في مثل حالي يقبل المنصفون من القليل، وأنا قد وجهت الباحثين في سائر الأقطار العربية إلى عبقرية الشريف الرضي، وأنتظر أن تخرج المطابع بعد أعوام كتابًا أفضل من كتابي، ويومئذ تطيب نفسي.

وبعد عام ونصف ستحين الفرصة للاحتفال بمرور ألف سنة على ميلاد الشريف، فليذكر ذلك أهل الأدب، ولتذكر ذلك مجلة الهلال التي تستعد لإخراج عدد ممتاز لمرور ألف سنة على ميلاد المعري، وليذكر العراق شاعره المظلوم الذي جاهد في سبيل المجد جهاد الأبطال.

وهنا كلمة أرجو أن يسمعها تلاميذي في مصر وفي العراق:

إن مثل هذا الكتاب لا يجب أن يصرفهم عن الرجوع إلى ديوان الشريف فهذا كتاب في النقد الأدبي، والنقد الأدبي ليس له غرض غير التوجيه والإرشاد، وقد كان الأستاذ أحمد أمين دعاني إلى تأليف كتاب عن الشعر في القرن الرابع ليكون سنوًا لكتابي عن النثر الفني في القرن الرابع، فليكن كتابي عن الشريف الرضي إجابة لبعض ما اقترح ذلك الصديق الأمين.

وبهذه المناسبة أذكر أني قررت في كتابي (النثر الفني) أن ما حُفِظَ من نثر

الشريف لا يكفي لحفظ مكانه بين كُتّاب القرن الرابع وكنت أرجو أن تكون إقامتي بالعراق فرصة لمعرفة الشريف كاتبًا، وقد عرفت بالفعل أن له رسائل منشورة في المجلد الرابع من مجلة العرفان، وقد تفضّل أخ صادق فنسخها ولكني رأيتها رسائل قصيرة حفظها الحافظون مراعاة لمكانة الشريف، وقد فهمت أنه كان يكتب الرسالة في المقام الهين الذي لا يوجب الاحتفال بالقصيدة، فالشريف ليس من كُتّاب الرسائل إلى أن تقوم الشواهد.

ولكنني تبينت أنه من كُتّاب النقد الأدبي بفضل كتابه عن المجازات النبوية، وكان في النية أن أختتم كتابي هذا بفصل عن الشريف ناقدًا.

ثم عاقني عائق يحسب له رجل مثلي ألف حساب، فقد كدت أوقن بعد الدرس بأن الشريف الرضي له فضل في تثقيف عبد القاهر الجرجاني، وهذا الافتراض يوجب الانقطاع لبحث هذه القضية بضعة أشهر، يعوزني في هذه الأيام، ولعلي أملك الفرصة فيما بعد فأضعه بين كُتّاب النقد الأدبي في الطبعة الثانية من كتاب النثر الفني.

وكان في النية أيضًا أن أكتب فصلاً عن الشريف مؤلفًا، ثم رأيت الوقت أضيق من أن يجوز بدراسة أنفع من الدراسات التي قام بها (متدى النشر) حين طبع كتاب (حقائق التأويل)

ذلك ما جاد به الخاطر في التعريف بعبقريّة الشريف الرضي، وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

محمد زكي عبد السلام مبارك

بغداد في ١٤ صفر ١٣٥٧

## المراجع

- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
  - المجازات النبوية للشريف الرضي.
  - مختار رسائل الصابي (طبعة الأمير شكيب أرسلان)
  - ترجمة الشريف للأستاذ عبد الحسين الحلبي (المنشورة تصديراً لكتاب  
حقائق التأويل)
  - يتيمة الدهر للشعالي.
  - الأعلام للزركلي.
  - تجارب الأمم لابن مسكويه (طبعة القاهرة بعناية مرجليوث)
  - تاريخ ابن الأثير (الجزء التاسع)
  - النثر الفني.
  - مختصر تاريخ بغداد للأعظمي.
  - الموازنة بين الشعراء.
  - القاموس المحيط للفيروز آبادي.
  - معجم البلدان لياقوت.
- تلك المؤلفات هي أهم ما رجعنا إليه للاستئناس أو الاستشهاد أو  
التحقيق، وهناك مراجع ثانوية قد نكون أشرنا إليها في الهوامش.

## استدراك

مرت إشارة إلى قصيدة:

ما بعد يومك ما يسلوبه السالي ومثل يومك لم يخطر على بالي

وقلنا: إنها في رجل كان له شخصية، ولا نعرف السبب في طي اسمه عن الناس.

ولكننا في الجزء الأول قررنا أن هذه القصيدة قالها الشريف في رثاء الطائع، فليعرف القراء أننا استندنا في هذا الحكم على ابن الأثير، فقد أشار إلى أن الشريف قال في هذه القصيدة في رثاء الطائع، وعبارة ابن الأثير توضح ما أبهم الديوان.